المحقق آية الله الشيخ محمّد السند

الحداثة العولمة الإرهاب

في

ميزان النهضة الحسينية

الشيخ علي الأسدي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحداثة العولمة الإرهاب

في

ميزان النهضة الحسينية

محاضرات

المحقق آية الله الشيخ محمد السند

بقلم

الشيخ علي الأسدي

مكتبة فدك

الحداثة العولمة الإرهاب

آية الله الشيخ محمد السند

الناشر: باقيات

المطبعة: وفا

الكمية: ١٠٠٠نسخة

الطبعة: الثانية

القطع: وزيري

عدد الصفحات: ٣٦٠ صفحة

تاريخ الطبع: ٢٠١١م - ١٤٣٢هـ.ق

شابك: ٢-٤٤-٦١٦٨-٩٦٤

كافة حقوق الطبع محفوظة و مسجلة للناشر و مكتبة فدك

عنوان الناشر: ايران - قم - شارع معلم - رقم ٤٤ - تلفون: ٧٧٤٣٩٠٠

مركز التوزيع: ايران - قم - مجمع الإمام المهدي (عج) - الطابق الأرضي رقم ١١٦،١١٧ - تلفون: ٧٨٣٣٦٢٤

مكتبة فدك

الإهداء

إلى صاحب القلب الرحيم . . والإمام العظيم . . والسيّد الكريم

إلى من سُحقت أضلاعه، وقُطّعت أوداجه، وحُمل على رأس السنان رأسه

إلى مَن خُضّبت لحيته بدم نحره

إلى قتيل العبرات وكاشف الكربات

إلى سيّدي ومولاي الإمام الشهيد

الإمام الحسين (ع)

أُهدي هذا الجهد المتواضع لعلّه ينفع في يوم تقلّ فيه بضاعتي،

ويؤخذ بعاتقي فيكون لي منجياً، وعن النار مُبعداً

المقدّمة

الحمد لله الذي خلق الخلق بقدرته ، وهداهم إلى طاعته ، وسهّل لهم سبيل عبادته ، ورزقهم من كرم جوده وفضله ، وسخّر لهم ما في الكون بأمره ، وأرسل الأنبياء أدلّاء على منهجه وصراطه ، وجعلهم عنواناً لرحمته ، فكانوا مبشّرين بجميل ثوابه ، ومنذرين بسخطه وعقابه.

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وخير عباد الله أجمعين ، الذي كساه الله من نور جلاله ، وعصمه في جميع أقواله وأفعاله ، لتستضيء السماء والأرض برسالته ، فجعله خاتماً لأنبيائه ورسوله ، واستخلف ابن عمّه خير الأوصياء من بعده ، فقال: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى ، إلّا أنّه لا نبيّ بعدي»[1] ، فأعطاه ما أعطى موسى لأخيه ، فكانت بمنزلة الوالد للأمّة منزلته[2] ، ليكمل منهجه ومسيرته ، فأفنى حياته في خدمة الدين ، وما أشرك بالله طرفة عين ، وقاتل المارقين والناكثين والقاسطين ، لإرساء أُسس الحقّ المبين ، فعليه سلام الله في كلّ حين ، وعلى حليلته البتول ، الزاهرة في العالمين ، والمثل الأعلى للأوّلين والآخرين ، الذي لم يرعَ حقّها ، فاغتصب إرثها ، وكسر ضلعها ، وأُسقط جنينها.

والسلام على أئمّة الهدى ، وأعلام التقى ، والعروة الوثقى ، المقيمون أساس الدين ، والسفن لنجاة المؤمنين ، فأنقذوا الناس من الغواية ، ونشروا ببارق الهداية ،

---

(١) بحار الأنوار: ٤١٢/١٦ ، نادر في اللطائف في فضل نبيّنا صلى الله عليه وآله .

(٢) أمالي الصدوق ـ المجلس الرابع: ٦٤ ، الحديث ٦/٣٠.

سيّما أبو الأئمّة النجباء ، والسادة الأتقياء ، وغريب الغرباء ، وشهيد طفّ كربلاء ، الذي ضحّى لإعلاء كلمة الإيمان ، واستأثر عن الدنيا بالجنان ، فكان للأنبياء امتداداً ، وللأرض أوتاداً ، فعرّف الناس بواقعيّة الحقّ الجميل ، وكشف بدمه الطاهر زيف الباطل الذليل ، فخرج ثائراً ، ونادى مصلحاً «إنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ، لا ظالماً ولا مفسداً ، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي»[١].

فمنهجه إصلاحي ، وساحته الدين والدنيا ، فمثّل منهج السماء ، وخزين الأنبياء ، وأُطروحة الأتقياء ، ليقف بوجه الانحراف والزيف ، والفساد ، المتمثّل بالمنهج الأموي ، فخرج بصحبه وأهله وولده لإرساء الحقّ القويم ، فقدّموا أنفسهم قرابين للحريّة ، ليبقى مشعله يضيءُ درب الثوّار ، ويرسم معالم التغيير الواقعي والحضاري للحياة ، لأنّ كلّ تغيير أو ثورة تستند في نهضتها إلى مقوّمات ثلاثة :

أوّلها : الأهداف الأساسيّة للتغيير . ثانيها : القيادة القويّة والواعية ، الحاملة لمشاعر الناس ، والنابعة من بينهم . وثالثها : القاعدة الجماهيريّة المؤمنة بالتغيير وأهدافه ، والمضحّية من أجل تحقيقها ، فكلّ حركة تغيير أو ثورة إذا استندت في قيامها إلى هذه المقوّمات ، فلابدّ أن يكتب لها النصر عاجلاً أم آجلاً ، وهذا ما حصل مع النهضة الحسينيّة ، التي استندت في قيامها إلى تلك المقوّمات ، ولكن بأرقى صورها ، وأعلى درجاتها ، فأهدافها أهداف السماء ، وقائدها الإمام الحسين ، الذي قال في حقّه القرآن: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾[٢] ، فكان واحداً ممّن نُصّ على عصمته ، مع جدّه وأبيه ، وأُمّه وأخيه ، وقال في حقّه المصطفى مع أخيه : «هذان إمامان قاما أو قعدا»[٣].

---

(١) بحار الأنوار : ٤٤ / ٣٢٩ ، الباب ٣٧ ، فيما رواه الشيخ المفيد ﷺ في وقعة الطفّ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٣٣.

(٣) بحار الأنوار : ١٦/ ٣٠٧ ، الباب ١١ فضائله وخصائصه ﷺ .

وأمّا القاعدة الجماهيريّة ، فهي وإن كانت ثلّة قليلة لا تمثّل من حيث الحسابات العسكريّة الظاهريّة قيمة مؤثّرة في مقابل تلك الأعداد الهائلة ، والأمواج الهادرة من البشر ، المظلّل بها عن الحقّ ، إلّا أنّها كانت تمثّل صرخة الإيمان المدوّية ، الذي ما حال بينها وبين إرساء المنهج الحضاري مانع ، ولا دفعها عن اتّباع القيم الحسينيّة دافع ، فقدّمت أنفسها قرابين التضحية لسعادة الأجيال ، وممهّدة للبناء الحضاري الكبير في الأُمم القادمة ، فكانت الثورة الحسينيّة حقيقاً أن يقال في حقّها إنّها بحر العطاء ، وديمومة السبق والبناء.

فأيقضت الأُمّة عن غفلتها ، واستنهضتها من سباتها ، لتستلهم من بحر كربلاء حلولاً لمشكلاتها ، وبياناً لمعضلاتها ، فكانت كربلاء ميزان الفصل ، والحكم العدل ، لجميع معضلات الأُمم ومشكلاتها ، لتستخبر عن الحلول الناجعة لها ، وتسلّم بموقفها.

ومن أخطر الإثارات الفكريّة التي تمرّ بها الأُمم هذه الأيّام ، والتي أدارت بعناوينها عقول النخب ، وأثارت بتداعياتها كلّ العجب ، فدوّت في الشرق والغرب ، وأحاطوها بهالة من بريق الأمل ، وشعاراً للوحدة المنشودة ، فأظهروا لنا العولمة المصطنعة ، وزوّدونا بمدارس للحداثة ، لإنشاء أجيال عاجزة عن معرفة حضارتها ، وفاقدة لثقافاتها ، لتصبح أدوات بأيدي المستبدّين والظلمة ، واتّهمونا بالارهاب ، لنكون لقمة سائغة بأفواههم ، وهدفاً سهلاً لرميهم ، اذاً فـ (العولمة والحداثة والارهاب) رشحات من هموم الأُمم ، لتزداد قيودها ، وتكمّم أفواهها ، ولغرض معرفة هذه الأبواب والفصول في واقعها العملي أوّلاً ، والانتفاع منها في إيصال الأُمم إلى رقيّها ثانياً ، كان اللازم علينا عرضها على فكر كربلاء ، وتحديدها بمقاييس النهضة الحسينيّة ، لتكون لنا أُطروحة مستلهمة من منهج السماء ، وبثوب جديد ، وتصبح هذه المصطلحات لنا لا علينا ، ولهذا فقد تصدّى علم من أعلام الحوزة العلميّة ، وأُستاذ من أساتذتها ، وهو سماحة آية الله الشيخ محمّد السند ، لعرض هذه العناوين على الفكر الخالد لنهضة كربلاء ، لبيان الموقف الصحيح منها ، لتضاف إضاءة جديدة

إلى الثقافة الحسينيّة.

فتكوّن هذا الكتاب الذي بين يديك وهو (الحداثة ـ العولمة ـ الارهاب في ميزان النهضة الحسينيّة)، وقد ناقش كلّ موضوع على حدة.

فتناول في الحداثة أهمّ مدارسها (السكولارزم ـ البلورواليسم ـ الهرمونطيقا)، وناقش أُطروحاتها، وخاض في إشكالاتها، وصحّح قوامها علمياً، حتّى انتهى إلى فوائد جليّة، لتثبيت العقائد الحقّة، وترسيخ المنهج الأصيل لأهل البيت عليهم السلام.

ثمّ مال في بحثه نحو العولمة، وشذّب أركانها، وهذّب قوالبها، ليخرج منها بعولمة الخطاب الحسيني المتجذّر.

وانتهى أخيراً إلى الارهاب، ليذكر التعاريف ـ التي وضعتها المؤسّسات الدوليّة، والقنوات العالميّة ـ للارهاب، ليبيّن عيوبها، وأسباب وضعها، ليتسنّى للقارئ الكريم الاطّلاع على ذلك عن كثب، ويرشده إلى أخطارها، وكيفيّة تقييمها، ليستنير سامعها بنور الفكر النابع من مدرسة أهل البيت، ويستلهم الدروس والعبر، وبهذا تمّ الكلام عن بعض الخصوصيّات، التي أردنا إيصالها إلى القارئ الكريم، عن طريق بيان معالم الكتاب، الذي بين يديه.

ولا يسعني في ختام كلامي هذا إلّا أن أُقدّم شكري وتقديري لكلّ من أعان وساعد في إكمال هذا الكتاب، وأخصّهم ذكراً سماحة السيّد الجليل هاشم سيّد حسن الموسوي، الذي كان له من الجهد الكبير ما يستحقّ الشكر عليه، والاخوة في مكتبة فدك لتصدّيهم لنشر الفكر الإسلامي الأصيل. أدعو الله تعالى أن يزيد في حسناتهم، وأن يجمعنا وإيّاهم مع محمّد وآله الطاهرين، إنّه سميع مجيب.

الشيخ عليّ الأسدي

١٧ / ربيع الأوّل / ١٤٢٧هـ

الموافق ١٦ / ٤ / ٢٠٠٦م

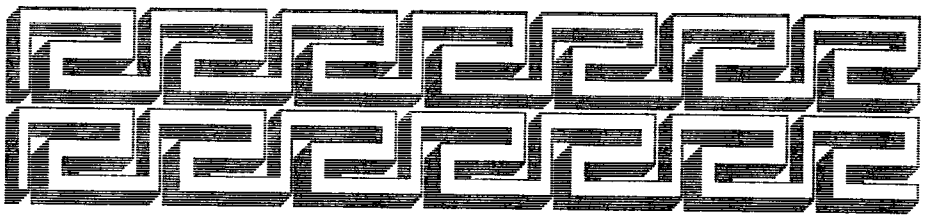

المحاضرة الأُولى

الفرق بين الشريعة والدِّين

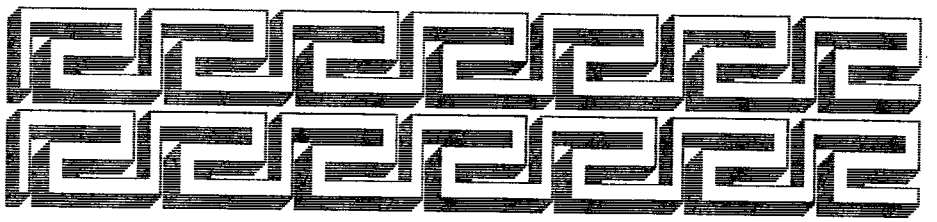

بسم الله الرحمن الرحيم

الشريعة والدين والفرق بينهما

قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً ﴾[2].

هذه الآيات وغيرها تثبت أبديّة الدين الإسلامي، وأنّه الدين السماوي الخالد. فقوله تعالى: ﴿ لِلْعَالَمِينَ ﴾، هو قول مطلق يشمل كلّ الأمم التي تأتي بعد النبيّ محمّد ﷺ.

وقال تعالى: ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيَاً بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾[4].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

(٢) سورة الفرقان: الآية ١.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٩.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[١].

وكيف كان فهذه الآية بإطلاقها شاملة لكلّ من كان قبل النبيّ محمّد ﷺ وبعده أيضاً.

الدين الإسلامي خالد

هذا البحث ـ بحث خلود الدين الإسلامي إلى يوم القيامة ـ هو بحثٌ أديانيّ، أو بحثٌ أيديولوجي بالتعبير اللاتيني، يعني بحثٌ عقائدي، وهو محل جدل واسع وصخب علمي كبير بين الأديان والثقافات الشرقيّة والغربيّة والتيارات الفكريّة المختلفة، سواءً كانت تلك التيارات اجتماعيّة أو حقوقيّة أو قانونيّة، ومن هذه التيارات تيار العلمانيّين من المسلمين ـ أو المتعلمنين من المسلمين ـ أو العلمانيّين من الغرب، ومن المعلوم أنّ للعلمانيّين أمواجاً مختلفةً، وأنّ هذه الأمواج ليست على وتيرةٍ واحدة.

المجتمعات العلمانية بين قبول الدين ورفضه

ما نريد أن نشير إليه هنا أنّ المجتمع الغربي أو مجتمع جنوب شرق آسيا كاليابان، وهي مجتمعات تعتمد على المؤسسات المدنيّة ـ ويعبّر عنها بالمجتمع المدني ـ فهذه المجتمعات وإن كانت علمانيّة إلّا أنّها لم تطلّق الدين طلاقاً مؤبّداً، وأنّهم حفظوا ـ ولو بالشكل ـ موروثهم الحضاري والثقافي والديني كلٌّ بحسب دينه، سواءً كانوا في اليابان، أو في الهند، أو في اوروبا المسيحيّة؛ وذلك لأنّ طبيعة المجتمعات البشرية تجعل منها مستودعاً تُختزن فيه الموروثات الحضارية، ومن المستحيل أن يبدأ أيّ مجتمع بشري من الصفر، بل لا بدّ أن يرث من الأُمم السابقة ما يرث، ولهذا نلاحظ أنّ

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٨٥.

العلمانيّين الغربيّين قد سمّوا أسماءهم بأسماءٍ مسيحيّة ، وتكون عندهم إلى جانب القوانين المدنيّة قوانين كنائسيّة ، وكذلك أُصول التقنين الغربي متأثّرة بالتقنين المسيحي ، فإذن هؤلاء العلمانيّون الغربيّون لم يطلّقوا الدين طلاقاً مؤبّداً ، ولكنّهم حاولوا أن يمزجوا بين الموروث القديم وما ابتكروه من قوانين .

وممّا يؤيّد كلامنا هذا هو أنّ الرئيس الأمريكي السابق جورج بوش الأب عندما شنّ حرب الخليج الثانية كان يستنجد بالكنيسة وإسم الربّ وماشابه ذلك ، وكذلك استخدم جورج بوش الإبن تعبير (الحرب الصليبيّة) بعد الهجوم على نيويورك وواشنطن ، وهذا ما نشاهده أيضاً عند اليابانيّين أصحاب الديانة البوذيّة ، حيث أنّهم لم يطلّقوا ديانتهم طلاقاً مؤبّداً .

الدين واحد والشرائع متعدّدة

من الأخطاء الشائعة في الصحافة والإعلام ، وبين عامّة الناس هو التعبير بـ(الأديان) ، فنسمع عن حوار الأديان ، والبحث عن أوجه الاختلاف أو التلاقي بين هذه الأديان ، وهذا ما يتعارض مع المفهوم القرآني والمفاهيم التي جاءت بها الأحاديث الشريفة ، حيث أنّ المفهوم القرآني يؤكّد على أنّ الدين واحد وليس متعدّد ، فتكون النتيجة أنّ تعبير الأديان تعبيرٌ خاطئ ؛ لأنّه يتعارض مع الطرح القرآني .

وكذلك ينبغي التفريق بين مصطلحات : (الدين ، والشريعة ، والملّة ، والمنهاج ـ وهو الطريقة كما في بعض الآيات ـ) التي وردت في القرآن الكريم ، ولا بدَّ من تعريف هذه المصطلحات قبل الخوض في البحوث المقبلة ؛ لأنّ الكثير من الناس يستخدم الدين كمصطلح مرادف للشريعة ، وهذا من الاستخدام اللغوي والعرفي الخاطئ .

الدين : عبارة عن مجموعة من أُصول اعتقاديّة وأُصول معارف كونيّة ، ويضمّ إليه

أركان الفروع ، أو يضمّ إلى أركان الفروع أُصول الآداب .

الشريعة : الشريعة تختلف عن الدين ؛ لأنّ الإسلام إسم للدين وليس للشريعة .

وتسمى الشريعة المحمّديّة ﷺ كما توجد شريعة موسويّة ، وشريعة عيسويّة ، وشريعة نوحيّة ، وشريعة إبراهيميّة .

والشريعة هي تفاصيل التشريعات في الأحكام الفرعيّة والآداب و ـ لغةً ـ : هي الضفة الجانبيّة المتفرّعة من رافد النهر ، وهذا ما يحدّثنا به أرباب المقاتل عندما يتحدّثون عن العباس حين استقى الماء من الشريعة . قال ابن منظور في لسان العرب : «والشرعة والشريعة في كلام العرب : مشرعة الماء ، وهي مورد الشاربة التي يشرعها الناس فيشربون منها ويستقون»[١] .

الملّة : قد تعرّف بالأحكام التي تتلائم مع الفطرة إذا سنّت وجذّرت وبنيت في أعراف البشر كظواهر سلوكيّة اجتماعيّة دينيّة . وفي اللغة هي كالدين اسم لما شرّع الله تعالى لعباده على لسان الأنبياء ليتوصّلوا به إلى جوار الله ، والفرق بينها وبين الدين أنّ الملّة لا تضاف إلّا إلى النبيّ (عليه الصلاة والسلام) الذي تسند إليه ... ولا تكاد توجد مضافة إلى الله ولا إلى آحاد أُمّة النبيّ ﷺ ، ولا تستعمل إلّا في جملة الشرائع دون آحادها ، وهذا يدعم التعريف السابق ، فإنّ الذي يوجد ويؤسّس الأعراف الدينيّة هم الأنبياء[٢] .

والمنهاج ـ بالكسر ـ والطريقة : هو الطريق الواضح[٣] لغةً ، وقد يعرّفان ـ كما هو مقتنص من الاستعمال القرآني والروائي ـ حيث أُسندا إلى الأئمّة والأوصياء ، لا سيّما

---

(١) لسان العرب /ابن منظور : ٧٦/٧ ، مادة «شرع» .

(٢) المفردات /الراغب الاصفهاني : ٤٧٦ ، مادة : ملل .

(٣) المصدر المتقدّم : ٥٠٨ ، مادة : نهج . المصباح المنير /الفيّومي : ٦٢٧ ، مادة : النهج .

أمير المؤمنين عليه السلام ، أنّه : هدي الأوصياء ، وهو بمثابة التأويل للتنزيل ، بكلّ أنماط وأنواع التأويل .

فالأُسس الرئيسيّة في منطقة الدين ، إنّما هي أُصول الاعتقاد وأُصول المعارف التي تمثّل دائرة الدين ، أمّا الدائرة التي هي أكثر تشعّباً ، وأكثر تراميا ، وأكثر بُعداً عن المركز هي دائرة الشريعة ، حيث تشتمل على تفاصيل الأحكام والقوانين .

ولهذا نجد أنّ القرآن يصرّح في قوله تعالى : ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً** ﴾[1] ، فلم يكن التعبير : « لكلّ جعلنا منكم ديناً ومنهاجاً » ؛ وذلك لأنّ الدين واحد . فدين نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمّد عليهم السلام هو دين واحد ، وأصحاب الشرائع هم الأنبياء أُولو العزم ، وهذا ما ورد عن المعصومين ، حيث وصفوهم بأنّهم أصحاب شرائع وليس أصحاب أديان .

النسخ يقع في الشرائع دون العقائد

من غير المعقول أن يأتي آدم عليه السلام بدين وعقائد حقّة ، ثم تكون هذه العقائد مؤقّتة بزمن معيّن ؟ فيأتي نوح عليه السلام وينسخ العقائد التي أتى بها آدم ، ثمّ يأتي إبراهيم وينسخ العقائد التي أتى بها نوح عليه السلام ، وهكذا ؟

إنّ هذا أمر لا يعقل ؛ لأنّ الدين عبارة عن رؤى كونيّة ، وإذا كانت هذه الرؤى الكونية صادقة فهي غير قابلة للتبديل والتغيير ، فيستحيل نسخ التوحيد أو المعاد أو النبوّة ، وإنّما يقع النسخ في الأحكام التي جاءت بها الشرائع .

بل حتّى أركان الفروع هي من الدين ، ولذلك لا يقع النسخ فيها ، فأصل وجوب الصلاة والزكاة ثابتة في شريعة كلّ نبيّ . قال تعالى على لسان عيسى :

---

(١) سورة المائدة : الآية ٤٨ .

﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيّاً ﴾[١] ، وكذلك الحجّ ، فكلّ الأنبياء حجّوا بيت الله الحرام ، وكذلك الجهاد والصوم . نعم ، قد يختلف شكل الصلاة أو الصيام وطريقة أدائهما ولكنّ أصل وجوبهما ثابت في كلّ الشرائع ، وهذا ينطبق على أُصول الواجبات والمحرّمات وتحريم الفواحش ، كالزنا والخمر ، فأصل تحريم الفواحش ثابت في كلّ الشرائع وإن اختلفت سعةً وضيقاً ، حتّى أُصول أحكام الأُسرة والزوجيّة والتعاقد التجاري وتحريم الربا ، ولذلك فإنّ الله تعالى يندّد بالمجتمع اليهودي لأنّه يتعامل بالربا ، قال تعالى : ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ﴾[٢] ، وتحريم الربا يدخل ضمن أركان أُصول التشريع ، وهذه الأركان تدخل ضمن إطار الدين وليس الشريعة . قال تعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾[٣] ، فصاحب الشريعة اللاحقة لا يكذّب دين صاحب الشريعةالسابقة ، بل يصدّقه في منطقة دائرة الدين ، من حيث أنّالدين واحد لا يتعدّد .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ ﴾[٤] .

ومفهوم هذه الآية لا يقتصر على أنّ الدين الذي جاء به محمّد ﷺ هو دين الإسلام ، بل مفهومها يشمل كلّ الأزمان من لدن آدم إلى يوم القيامة ، فالدين عند الله الإسلام منذ بدء الخليقة .

قال تعالى : ﴿ فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾[٥] .

---

(١) سورة مريم : الآية ٣١ .

(٢) سورة النساء : الآية ١٦١ .

(٣) سورة المائدة : الآية ٤٨ .

(٤) سورة آل عمران : الآية ١٩ .

(٥) سورة الروم : الآية ٣٠ .

فالدين لا يقبل النسخ. نعم، قد تزداد معارف نبيّ عن نبيّ آخر، وأكملها وأوسعها وأعمقها ما بعث بها النبيّ الخاتم ﷺ لمنزلته من القرب الإلهي، حيث أنّ الإحاطة التي زوّد بها ﷺ، والرؤى الكونيّة التي يمتلكها أوسع ممّن سبقه من الأنبياء.

قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ ﴾(١).

فالقرآن الكريم مهيمن على ما سبقه من كتب؛ لأنّ فيه من المعارف الجمّة ما لم يتعرّف عليه من خلال الشرائع السابقة. نعم، لو قلنا إنّ الدين في حالة تبلور وتجلّي أكثر من قبل السماء إلى البشريّة، هذا صحيح ومقبول، أمّا أن نقول بوجود النسخ في الدين فهذا مستحيل؛ لأنّه متعلّق بالعقائد كما مرّ، ولا يقع النسخ إلّا في الشرائع، وذلك حسب الظروف والبيئات.

شواهد قرآنيّة على وحدة الدين

قال تعالى: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِيناً قِيَماً مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾(٤).

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٢) سورة الشورى: الآية ١٣.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٦١.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٣٢.

وقوله تعالى ـ على لسان السحرة بعد أن تابوا وواجهوا فرعون ـ: ﴿ رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴾(١).

وقوله تعالى ـ على لسان يوسف عليه السلام ـ: ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾(٣).

فالدين عند الله الإسلام بصورة مطلقة وهو ما جاء به كلّ الأنبياء، كما هو واضح في الآيات المتقدّمة.

الشريعة والدين وقضية الغدير

نشير إلى هذه القضية وإن لم تكن من صلب الموضوع، إلّا إنّها ثمرة من ثمار التفريق بين الشريعة والدين، وحريّ أن نجني هذه الثمرة.

قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً ﴾(٤).

وبناءً على ما ذكرنا من الفرق بين الدين والشريعة يتّضح أنّ هذه الآية النازلة في قضية الغدير وفي ولاية عليٍّ عليه السلام، تجعل قضية الإمامة وتنصيب عليٍّ عليه السلام من دائرة الدين وليس من دائرة خصوص الشريعة، وهذا يدلّ على أنّ الإمامة من أُصول الدين

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٢٦.

(٢) سورة يوسف: الآية ١٠١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٣٦.

(٤) سورة المائدة: الآية ١٩.

وليس من فروعه.

وإنّ إمامة عليٍّ عليه السلام كانت من صلب الدين الذي بعث به الأنبياء؛ لأنّهم جميعاً بعثوا بدين الإسلام، كما أثبتنا من خلال الآيات السابقة، ومن خلال قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ﴾[1]، والذي هو عند كلّ الأنبياء السابقين كما هو عند النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله، كما مرّ سابقاً، إذن تكون النتيجة: أنّ ولاية عليٍّ عليه السلام من صلب الدين الذي بعث به كلّ الأنبياء السابقين.

ونستنتج أيضاً أنّ الدين من دون ولاية عليّ عليه السلام غير مرضي عند الله لقوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾، ومن غير المعقول أبداً أن يبعث الأنبياء بدين غير مرضيٍ عند الله، وقد جاءت الروايات الكثيرة التي تؤكّد أنّ ولاية عليّ عليه السلام قد بعث بها الأنبياء السابقين. فولاية عليّ عليه السلام لم ترَ الوجود ابتداءاً في يوم الغدير، وإنّما هي موجودة قبل ذلك، ولكنّها أُظهرت وأُبرزت في ذلك اليوم، كما أنّ التوحيد مقرّر عند الأنبياء قبل بعثة محمّد صلى الله عليه وآله ولكن أُظهر وأُبرز ببعثته صلى الله عليه وآله، فكذلك كانت قضية الغدير.

فقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِن رَبِّكَ وَإِن لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[2] تدلّ على أنّ الإمامة ركن ركين من الدين وليس قضية ثانويّة في الشريعة؛ لأن عدم تبليغ إمامة عليّ عليه السلام تساوي عدم تبليغ الرسالة بأكملها كما تنصّ الآية.

آية المودّة وقضيّة الإمامة

قال تعالى: ﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾[3]، الضمير

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩.

(٢) سورة المائدة: الآية ٦٧.

(٣) سورة الشورى: الآية ٢٣.

﴿عَلَيْهِ﴾ راجع إلى الإسلام ، على رأي بعض المفسّرين ، أو راجع إلى الجهد والمعاناة التي عاناها النبيّ صلى الله عليه وآله في تبليغ الرسالة الإسلاميّة[١].

فمودّة أهل البيت عليهم السلام جعلت أجراً للرسالة ، والأجرُ هو العِدل أو المعاوضة ، فيكون عندنا عوض ومعوض ، وينبغي أن تتوفّر المساواة والموازنة بينهما ، فليس من الصحيح أن تشترى جوهرة ثمينة بثمن بخس .

فإذا كانت مودّة أهل البيت عليهم السلام في كفّة والكفّة الأُخرى فيها الإسلام ، وهو الدين الذي يتضمّن أُصول الدين من التوحيد والنبوّة والمعاد ، أو معاناة الرسالة التي قيمتها بلحاظ نفس الدين ، فلا بدّ من أن تكون في مصاف الأُصول وليس حالها حال الفروع ، وبذلك نستنتج من آية المودّة لأهل البيت عليهم السلام أنّ الإمامة لهم ليست من خصوص الشريعة ، بل هي ركن من أُصول الدين ؛ لأنّ أجر الرسالة ليس من المناسب إدراجه في الشريعة ، والله هو الذي أعطى هذا المقام لأهل البيت عليهم السلام ، وعندئذٍ لا محل لاتّهام الشيعة بالغلو في أهل البيت عليهم السلام ؛ لأن الله هو الذي وضعهم في هذا الموضع الرفيع ، والله ينهى عن الغلوّ ، فإذا وضعهم الله في موضع فإنّ هذا الموضع ليس من الغلوّ في شيء .

وهذه المودّة مخصوصة بالمعصومين الأربعة عشر ، ولا تشمل جميع السادة أبناء الرسول صلى الله عليه وآله ، وإن كان يترشّح منها الاحترام لهم والتقدير .

---

(١) راجع تفسير مجمع البيان /الطبرسي : ٤٨/٩ ، تفسير الآية المتقدّمة .

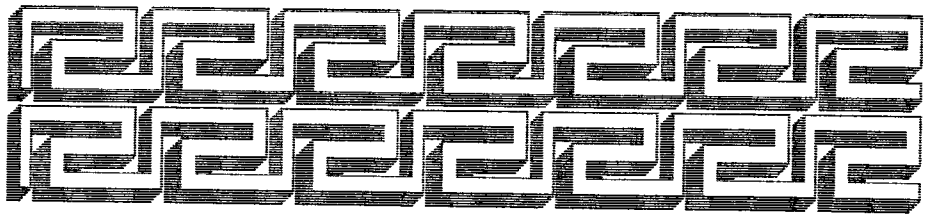

المحاضرة الثانية

المدارس الحديثة التي واجهت الكنيسة

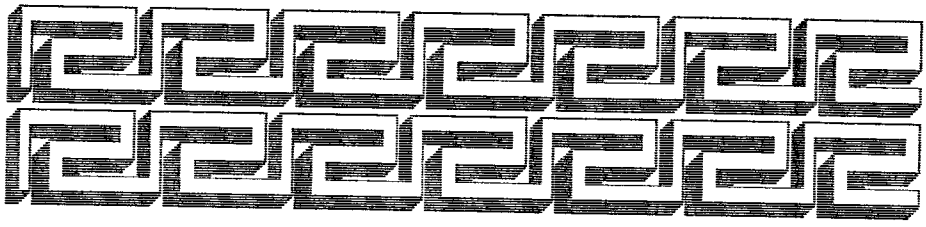

بسم الله الرحمن الرحيم

نشأة العلمانيّة والحداثويات

في البداية سنستعرض لمحة تاريخيّة عن علاقة أُوروبا بالمسيحيّة والعلمانيّة ، فقد دخلت اوروبا الغربيّة في الدين المسيحي في القرن الثاني الهجري ، أي السادس الميلادي ، وهذا أمرٌ مؤسف ، ووجه الأسف ليس الانتقال من الوثنيّة إلى المسيحيّة ، وإنّما وجه الأسف هو أنّ الدين الإسلامي وهو في ريعان شبابه فاتته فرصة إدخال هؤلاء القوم في الإسلام بسبب ما مارسه الخلفاء في ما يسمّى بالفتوحات وسياسة نظام الحكم في البلدان المفتوحة ، وكانت النتيجة أن يحتضن المسيحيّون المبشّرون الذين انطلقوا من الروم أو اليونان إلى أُوروبا الغربيّة لدعوتهم إلى الدين المسيحي ، واستمرّ الدين المسيحي بقوّة في تلك البلدان إلى أن وصل إلى القرن الثامن عشر الميلادي ، وفي هذه الفترة بدأت تعلو الصيحات الثوريّة على غطرسة الملوك والنظم السياسيّة الغربيّة التي كانت تحرق الطبقات الفقيرة بنار الفقر وسطوة الاضطهاد ، وفي هذا الجوّ ظهرت التيارات المعادية لهذه الأنظمة .

تحالف الملوك ورجال الكنيسة ، فرجال الكنيسة يعطون الملوك الشرعيّة فيما يعملون ، والملوك يدعمون رجال الكنيسة بنفوذهم ، في هذه الوضعية ، وأمام هذا التحالف بدأت قوى إصلاحيّة تعتمد على مواجهة الملوك وتحطيم شرعيّة الكنيسة

المتحكّمة في المجتمع آنذاك ـ وهذا هو الفارق بين مدرسة أهل البيت التي لا تربّي علماءها على دين البلاط الحكومي بخلاف مدارس أهل سنة الخلافة والسلطان ـ فبدأت عمليات تنظير عديدة، وإن لم تنتج عن طلاق أبدي للدين، كما قلنا سابقاً، إلّا أنّها كانت تستهدف الحدّ من هيمنة الدين المسيحي على المجتمع، والسبب في عدم حدوث الطلاق الأبدي هو أنّ سرّ الخلقة مرتبطة بالجانب الروحي والغيبي، وإنّ الدين حتّى وإن حرّف يكون قابلاً للتأثير في المساحة غير المحرّفة منه، حتّى الديانات الهنديّة قد يكون بعضها لها أُصول سماويّة؛ لأنّ الأنبياء كانوا منتشرين في بقاع العالم. قال تعالى: ﴿وَإِن مِن أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾[1].

بل حتى بعض أُصول البوذيّة تتوافق مع الديانات السماويّة الأُخرى، وهذا ينطبق على بعض الديانات الموجودة في شرق آسيا.

وفي هذه الأجواء تبلورت ثلاث مدارس فكريّة تأثّر بها المثقّفون والجامعيّون المسلمون، ونتج عن هذه المدارس ما نسمّيه بالعلمانيّة.

فالعلمانيّون الغربيّون يتنبّأون بسقوط الدين الإسلامي، كما سقطت المسيحيّة، ونحن نقول لهم: إنّ المسيحيّة لم تسقط، وإنّما سقط التحالف بين رجال الكنيسة الذين كانوا يبحثون عن مصالحهم الدنيويّة والطبقات الإقطاعيّة متمثّلة في ملوك الظلم والإضطهاد، وكذلك الحال في المدارس والمذاهب الإسلاميّة، فإنّ مذهب أهل البيت عليهم السلام الذي ظلّ مناوءاً لممارسات الأنظمة السياسيّة هو المرشّح للانتشار في الآفاق بخلاف المذاهب التي تتبنّى أنّ السلطان البشري المتغلّب هو ظلّ الله في أرضه، ولغرض الوقوف على الموضوع جيّداً لا بدّ من توضيح المدارس الفكريّة تلك وذكرها بصورة مفصّلة وهي:

---

(١) سورة فاطر: الآية ٢٤.

الأُولى: السكولارزم *Secularism*

(فصل الدين عن السياسة والمجتمع)

وهي مدرسة فلسفيّة أيديولوجيّة تبنّاها مجموعة من فلاسفة القانون والحقوق والسياسة ، ولهذه المدرسة عدّة اتّجاهات ، ولكنّها تعتمد أساساً على نظرية فصل الدين عن النظام السياسي والاجتماعي ، وأنّ الدين عبارة عن طقوس عباديّة ورياضات روحيّة هدفها إشباع الظمأ الروحي عند الإنسان ، فالروح لها برنامجها الخاص ، والدين معترفٌ به بهذا المقدار في هذه المدرسة ، سواءً أكان هذا الدين ديناً سماويّاً حقيقيّاً أم كان ديناً خرافيّاً زائفاً ، وهذه النظرية لا يعنيها حقّانيّة الدين أو بطلانه ، إلّا أنّها ترى أنّه ضروري لإشباع حاجات الإنسان الروحيّة ، وكلمة سكولار تعني باللاتينية الفصل ؛ لأنّ هذه النظرية تفصل الدين عن باقي الأُمور السياسيّة والاجتماعيّة والنظام المالي وغيره .

ولا زالت هذه النظرية لها تأثيرات فكريّة إلى يومنا هذا بالرغم من مرور قرنين من الزمن عليها ، والنظام الغربي الحالي ينتمي إلى هذه المدرسة .

الثانية: مدرسة البلوراليسم *Pluralism*

(تعدّد الإدراك)

وهي مدرسة منطقيّة وليست مدرسة فلسفيّة ، وتعتمد على منهج الإدراك وكيفيّة إستقاء المعلومات ، والمناهج المنطقيّة القديمة والحديثة ، والغربيّة والشرقيّة ، والمادية وغير المادية ، جميعها تهتمّ بكيفية الإدراك ونظم المعلومات والاستنتاج من تلك المعلومات .

تعتمد هذه المدرسة على أساسين :

الأوّل : أنّ الإنسان لا يستطيع أن يحيط بالحقيقة بمفرده .

الثاني: أنّ الإنسان وإن أدرك بعض الحقيقة لا يستطيع إدراكها كلّها.

والعلماء جميعاً يبحثون عن الحقيقة، سواءً كانوا من العلماء الذين يؤمنون بالغيب أو كانوا من العلماء الماديّين؛ لأنّهم يؤمنون بالعلوم التجريبيّة بحثاً عن الحقيقة.

فالقائلون بهذه النظرية يقولون: بما أنّك لا تستطيع أن تدرك الحقيقة بمفردك، وأنّك إذا أدركت بعضها لا تدركها كلّها، إذن فالآخرين أيضاً يمتلكون سهماً من الحقيقة، فالحقيقة أشبه ما تكون بالشركة المساهمة، بعض أسهمها عندك والأسهم الأُخرى عند الآخرين، ومن هنا لا يحقّ لك أن تخطئ الآخرين وتفنّد آراءهم من منطلق تعدّد الإدراك ونسبيّة إدراك الحقّ أو الحقيقة، فكلّ رأي من الآراء -في نظرهم- يجب أن يكون في دائرة الاحتمال، وهناك من تأثّر بهذه النظريّة فقال: إنّ كلّ الأديان حقّ، وكلّها توصل إلى الله تعالى بحجّة أنّ الإسلام أو نبيّ الإسلام لا يملك كلّ الحقيقة، ومن هنا قبلوا بتعدّد الأديان وأنّها كلّها حقّ.

وهذه النظرية تكون مفيدة إذا وضعت لها شروط وقيّدت بقيود معيّنة، أمّا تركها على إطلاقها فذو نتائج سلبية مهلكة، وعلى سبيل المثال: فإنّ فسح المجال أمام الشذوذ الجنسي بعنوان الحرية يعدّ في نظرهم تكاملاً، وكذلك تعدّد الآراء، وأنّك لا تستطيع أن تمنع هذه الحالة لأنّك لا تملك الحقيقة، وإذا عرفت شيئاً منها فإنّك لن تحيط بها كلّها.

وهذه النظرية تحتاج إلى الكثير من المباحث، فهناك من يؤمن بالاستنساخ للفرد البشري رغم مضارّه الجمّة بالحجّة نفسها، والجدير بالذكر أنّ لكلّ نظرية عدّة اتّجاهات ولها منظروها وآراؤها وفرقها، ولكن نحن نركّز على الفكرة الرئيسيّة لكلّ مدرسة من هذه المدارس.

المدرسة الثالثة: المدرسة الهرمونطيقا *Hermenutics*

(تعدّد القراءات)

وهي مدرسة أدبيّة تختلف عن مدرسة السكولارزم الفلسفيّة والبلورواليسم المنطقيّة ، فهذه المدرسة تعنى بالعلوم النقليّة وكيفية قراءة وفهم النصّ ، سواءً كانت نصوص سماويّة ، كالتوراة والإنجيل والقرآن ، أو كان نصّاً بشريّاً ، وكان روّاد هذه المدرسة فلاسفة ألمان متخصّصون في الألسنيات وعلوم اللغة .

أمّا على المستوى السياسي فهناك تأثير كبير في مجريات الأحداث جرّاء التأثّر بهذه النظرية ، فمثلاً: لو أصدرت منظمة الأمم المتّحدة بياناً تدعم فيه العرب والمسلمين ، نرى أنّ بعض المتخصّصين من اليهود يحاولون قراءة النصّ قراءةً تدعم مصالحهم معتمدين على تعدّد القراءات .

ولكنّ الفرق بين هذه المدرسة ومدرسة البلورواليسم هو أنّ المدرسة الهرمونطيقا تعتمد على تعدّد القراءات للنصّ بينما البلورواليسم تعتمد على تعدّد الإدراك . هذا من جهة .

ومن جهة أُخرى ، فإنّ المدرسة الهرمونطيقا ترفض القراءة الفرديّة للنصّ ، وهي تتعامل مع النصّ كما تتعامل مع اللغز الذي له العديد من الحلول ، فتسمح بقراءة النصّ ، ونقصد من القراءات هنا الدلالات والاستظهارات والاستنباطات والأفهام .

ومن هنا ترفض هذه المدرسة رفضك لأي رأي من الآراء ، فربّما فهمت أنت شيئاً معيّناً من قراءتك ، وتكون لصاحب الرأي الآخر قراءة مختلفة عن قراءتك ، فيستطيع من خلالها أن يبرّر ما تنتقده أنت .

ولهذه المدرسة ثمارٌ ، لا يسع المجال لذكرها ، بالإضافة إلى أنّ هذه المدرسة معترف بها في المحافل الأكاديميّة والبحوث الجامعيّة والعلوم الإنسانيّة .

فخلاصة ما تقول هذه النظرية : إنّ المعنى هو وليد ذهن القارئ والسامع وليس وليد

ذهن المتكلّم والكاتب ، وبناءً على هذا فمن حقّ الإنسان أن يُعدّد القراءات للنصّ الواحد ، فمثلاً: قراءة التوراة والإنجيل والقرآن ، أو قراءة قانون معيّن ، أو قراءة الدستور نجد في كلّ هذه الأُمور جدلاً سياسياً وقانونياً محتدماً في تفسير النص بين الأحزاب والمجموعات في البلد الواحد ، فضلاً عن الدول المختلفة ، وكلّ منها يدّعي الوصل بليلى ، ويجرّ النار إلى قرصه ، ويدّعي أنّه على حقّ ، ويفسّر النصّ ويقرأه حسب ما يتطابق مع مصالحه ومشتهياته .

الأثر الإيجابي للمدرسة الهرمونطيقا على النقد الأدبي

أنّ وظيفة الناقد الأدبي هي تحليل النصّ الأدبي بتوسّط علوم اللغة ، وطبعاً لا يقتصر على المفردات وإنّما يشمل النحو والصرف والبلاغة والاشتقاق اللغوي وغيرها ، سواءً كان هذا النقد في اللغة العربيّة أم غيرها .

ويستطيع الناقد الأدبي أن يستخرج من قصيدة شعريّة أو نصّ نثري في زمان غابر ـ العصر الجاهلي على سبيل المثال ـ طبيعة البيئة الجغرافيّة التي كان الشاعر يعيش فيها ، والجوّ النفسي والمحيط الاجتماعي والنظام السياسي والعادات والتقاليد في ذلك المجتمع ، والنظام الأُسري فيه ، والحقائق التاريخيّة وغيرها ، ومن هذا العمل يستطيع الناقد الأدبي أن يخدم علوماً عديدة ، ويقدّم لها معلومات مفيدة في هذا المجال ، كلّ هذا يتمّ من خلال التحليل الأدبي الذي يقوم به الناقد ، ووظيفة هذا الناقد شبيهة بعمل عالم الآثار الذي يستطيع من خلال القطعة الأثريّة أن يحدّد الزمان الذي تنتمي إليه هذه القطعة من خلال الأدلّة والبراهين التاريخيّة .

فهذه بعض إيجابيات النظرية ، ولا يعني كلامنا هذا أنّ هذه النظرية خالية من السلبيات . نعم ، هناك بعض السلبيات التي سنذكرها لاحقاً .

فتعدّد القراءات شبيهٌ بالتأويل الذي يقول به أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام وإن كان مرفوضاً من قِبل المدارس الإسلاميّة الأُخرى ، فالتأويل هو نوع من تعدّد القراءات ،

وهو أمرٌ إيجابيٌ إذا كان خاضعاً لضوابط وقوانين تحكمه ، أمّا إذا كان بشكلٍ عشوائي وغير مستند إلى البراهين والأدلّة ، وكان بشكل سائب يكون بلا شكّ أمراً سلبياً مضرّاً بفهم النصّ .

فتعدّد القراءات هو تجاوز القشور في النصّ والغوص في أعماقه كي يستخرج منه المعاني المكنونة في بواطنه .

نعم ، البعض يرمي مذهب أهل البيت عليهم السلام أنّه مذهبٌ باطني وغنوصي -أي أنّهم يغوصون في أعماق اللفظ للوصول إلى معنىً معيّن -؛ لأنّ هؤلاء يرفضون فكرة التأويل جملة وتفصيلاً ، وهذا خطأ . نعم ، لو طالب هؤلاء بإيجاد أُسس وموازين لهذا التأويل لاتّفقنا معهم ، وهؤلاء يقرّون بجدارة المدرسة الهرمونطيقا ، ولكنّهم حين يأتون إلى التأويل يرفضونه ، مع أنّ الأمرين يحملان نفس المعنى ، ولهذا فهم يناقضون أنفسهم بأنفسهم .

والتأويل مثبت في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِن عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ** ﴾[1] .

فالغريب أنّ البعض ينفي التأويل بصورة كلّية ، وهذا يتناقض مع الحديث القائل بأنّ القرآن ظاهره أنيق ، وباطنه عميق[2] ، ورفض التأويل بهذه الطريقة هو تحجيم للنصّ القرآني ، حيث تكون القراءة مقتصرة على الظاهر والقشور .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٧ .

(٢) راجع : أُصول الكافي : ٥٩٢/٢ ، كتاب فضل القرآن ، الحديث ٢/٣٤٦١ . وسائل الشيعة : ١٧١/٦ ، باب استحباب التفكّر في معاني القرآن ، الحديث ٣/٧٦٥٧ .

قال تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١).

فالقرآن يصرحّ بأنّ له حقيقة مكنونة، ولا يمسّه إلّا المطهّرون، ولم يقل تعالى: «المتطهّرون»، بل قال: ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾، وهم الذين طهّرهم الله تعالى حيث قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾(٢).

فدرجات القرآن ليست واحدة، قال تعالى:

﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ * فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾(٣).

و﴿مَجِيدٌ﴾، أي ذو مجدٍ وعظمة، أي له درجات غيبيّة، ﴿فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ عن أن يناله الإنس والجنّ.

وقال تعالى متكلّماً عن القرآن الكريم:

﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾(٤).

فهل من المعقول أن تحلّل القصيدة تحليلاً عميقاً، وأن تقف عند قشور القرآن بحجّة رفض التأويل.

---

(١) سورة الواقعة: الآيات ٧٥ ـ ٨٠.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

(٣) سورة البروج: الآيتان ٢١ و ٢٢.

(٤) سورة العنكبوت: الآية ٤٩.

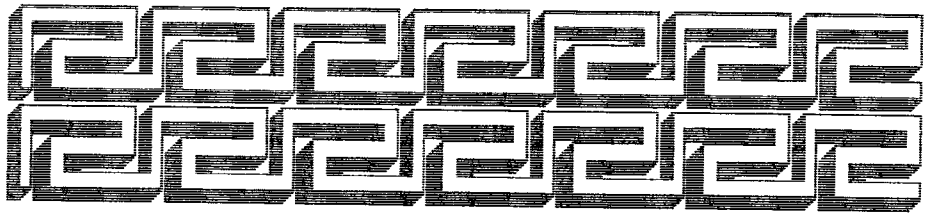

المحاضرة الثالثة

إثارات العلمانيّين الغربيّين حول الإسلام

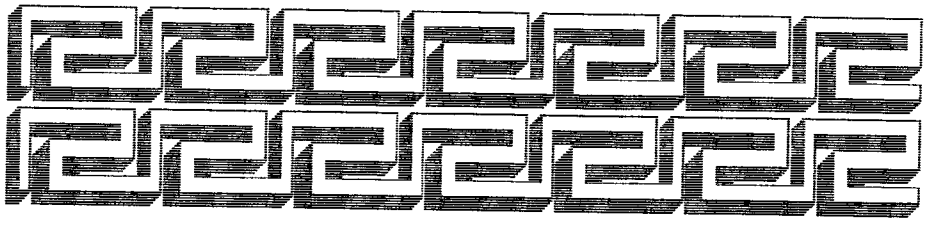

بسم الله الرحمن الرحيم

في البداية نودّ أن نذكر أنّ الدين الإسلامي أقوى من هذه الإثارات والإشكالات ، وأنّه لا يزداد إلّا قوّة ونصاعة وثباتاً بعد هذه الرياح التي تهبّ عليه من هنا أو هناك .

فالبعض ينظر إلى الدين على أنّه أُسطورة ليس إلّا ، والبعض الآخر ينظر إلى الدين نظرة احترام وتقدير ليس إيماناً بأنّه منزّل من عند الله ولكن لأنّه يحارب الجريمة وينظّم المجتمع .

ومن خلال النظريات والمدارس التي ذكرناها حاول الغربيّون أن يوجّهوا العديد من الإشكالات على الدين الإسلامي وعلى مذهب أهل البيت عليهم السلام ؛ لأنّه المذهب الأكثر تمسّكاً بالحجج المنطقيّة وتطابق العلوم الدينية مع العقل والمنطق .

وسنطرح الإثارات ونردّ عليها حسب مذهب أهل البيت عليهم السلام ، وأمّا على نظر باقي المذاهب الإسلاميّة ، فالرد عليها ممتنع ، بل إنّهم يتبنّون نفس المباني التي يثيرها العلمانيّون الغربيّون ، ويكرّرها العلمانيّون من المسلمين والعرب ؛ لأنّ هؤلاء يطرحون ما يطرحه الغربيّون وترجع أساساً إلى المدارس التي ذكرناها .

ومن الإثارات المطروحة التي يتبنّونها بأنّ الباري سبحانه وتعالى إذا كانت ذاته أزليّة غير محدودة في اعتقاد الموحّدين الذين يعتقدون بالألوهيّة ، فذات الباري غير متناهية ولا يشكّ أحدٌ في ذلك من أصحاب الديانات السماويّة ، بل وحتّى المشركين

فإنّهم يعدّون من الملل الإلـهيّة؛ لأنّهم يقولون بوجود الإلـه، وهم لم يـبنوا فكـرهم على الوثنيّة إلّا لأنّهم يقرّبونهم إلى الله زلفى، وأمّا الملحدون الذين يـؤمنون بـالمادة فهم يؤمنون بوجود أصل للكون، وهي المادة، وأنّها أزليّة. إذن فكلّ البشر يـذعنون بفطرتهم إلى أنّ هناك حقيقة غير متناهية في الوجود وإن اختلفوا في تسميتها.

فكيف يمكن للنبيّ ﷺ الإحاطة بكلّ الحقائق، وهو مخلوق ومحدود ولا يحيط بـالحقائق كـلّها؛ لأنّ المـحدود لا يـحيط بـاللّامحدود، والمـتناهي لا يسـتوعب اللّامتناهي، وأنّنا لو سلّمنا بكلّ ما قاله محمّد ﷺ فإنّ العقل البشـري سـوف يـصيبه الجمود وتتعطّل عجلة الفكر الإنساني، وهم يعبّرون عن النبوّة بأنّها نوعٌ من التجربة البشريّة شبيهة برياضة المرتاضين والمتصوّفة، أو أنّ النـبوّة نـوعٌ مـن أنـواع النـبوغ البشري، إذن فمصدر عـظمة الأنـبياء هـو العـقل أو الروح، والمـذاهب الإسـلاميّة الأُخرى ـ غير مذهب أهل البيت ـ يـقولون بأنّ عـلوم النـبيّ ﷺ مـحدودة فـي إطـار التشريع، وهذا ما يرويه مسلم وغيره من أهل السنّة، حيث يقولون بأنّ النبيّ ﷺ قد تعلّق علمه بالأمور التشريعيّة وأمّا غيرها فمن الممكن أن لا يحصل له علم بها، وهذا ـ حسب زعم مذاهب السنّة ـ ما يبيّنه فعل النـبيّ ﷺ حـين أوصـى الأنـصار بـطريقة زراعيّة معيّنة لاستثمار النخل، ثمّ ثبت أنّ هذه الطـريقة التـي أوصـى بـها النـبيّ ﷺ فاشلة، فلما سألوه عن ذلك قال: «**أنتم أعلم بأمر دنياكم**»[1]، وهم يقولون في مواضع عديدة بأنّ النبيّ اجتهد فأخطأ، وفي كتب أُصول الفقه عندهم يذكرون موارد اجتهاد

---

(١) صـحيح مسـلم بشـرح النـووي: ١٥/ ١١٥، الحـديث ٦٠٧٩ ـ ١/١٣٩، ٦٠٨٠ ـ ٢/ ١٤٠، ٦٠٨١ ـ ٣/ ١٤١، كتاب الفضائل، باب وجوب امتثال ما قاله شـرعاً دون مـا ذكـره ﷺ مـن معايش الدنيا. سنن ابن ماجة: ١٧٥/٣، الحديث ٢٤٧٠/ ١ و ٢٤٧١/ ٢، كتاب الرهون، باب تلقيح النخل. مسند أحمد بن حنبل: ١٦٣/١ (مسند أبي محمّد طلحة بن عبيدالله) ومسند أحمد بن حنبل (مسند أنس بن مالك).

النبيّ ﷺ ثم تخطئته ، ويذكرون أنّ القرآن نزل موافقاً لرأي الصحابة ومخطّئاً لرأي النبيّ ﷺ .

ولو حوّلنا جملة : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » التي ينسبونها للنبيّ ﷺ إلى التعبير اللاتيني الحديث لأصبحت (سكولار) فصل الدين عن الحياة العامّة ، أو كما يقال : ما لله لله ، وما لقيصر لقيصر » . إذن هذا الطرح موجود في المذاهب الإسلاميّة الأُخرى غير مذهب أهل البيت عليهم السلام .

ونستطيع أن نقول : إنّ المذاهب الإسلاميّة الأُخرى تمثّل العلمانيّة القديمة في محتواها وفي معناها ، وهذه ليست مجرّد روايات مذكورة ، وإنّما هم يتبنّونها ويبنون عليها آثار كثيرة .

وفي ذيل هذه الآية : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾[١] يروون أنّ النبيّ قد تسلّط الشيطان على قلبه وروحه ، ثمّ حكى آيات ليست من عند الله ، وتسمّى هذه القصّة بقصّة الغرانيق : « تلك الغرانيق العلى ، اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأُخرى ، منها الشفاعة ترتجى »[٢] ، وأنّ قريش قد استبشرت بمداهنة الرسول لها ، فنزل جبرئيل وسدّد النبيّ وقال له : « إنّ تلك الآيات آيات شيطانيّة وليست آيات رحمانيّة » ، وهذه القصّة ليست مذكورة عندهم في كتب الروايات فحسب ، بل توجد في كتب الأُصول والتفسير والكلام .

والنصّ في كتاب البخاري لا يذكر لفظ الغرانيق ، وإنّما يذكر أنّ الشيطان يلقي في

---

(١) سورة الحجّ : الآية ٥٢ .

(٢) جامع البيان / ابن جرير الطبري : ٦٠٤/١٦ ، سورة الحجّ : الآية ٥٢ . تفسير القرطبي : ٧٩/١٢ ، تفسير الآية المتقدّمة . مجمع الزوائد : ٢٤٨/٧ ، سورة النجم ، الحديث ١١٣٧٦ .

قراءة النبيّ ﷺ[١]، وإن اختلف النصّ إلّا أنّ المعنى واحد، والإيمان بهذه الأُمور في حقّ النبيّ يعني فيما يعني الإيمان بالبلورياسم وتعدّد الإدراك، وأنّ كلام النبيّ ﷺ قد يصيب وقد يخطئ، وأنّ النبيّ ﷺ لا يدرك كلّ الحقيقة، وليس له أن يفنّد رأي الآخرين، ومن هذا ينتج عدم صحّة القول بخلود الشريعة الإسلاميّة، وكيف تخلد وهي لا تمتلك الحقيقة ؟

ومن ثمّ يظهر لنا مصطلح عقلنة الخطاب الديني، وهناك من يطرح نفس الطرح حتّى من وسطنا الداخلي، ويقولُ إنّه يحقّ للعقل أن ينتقد بعض خطوات الأنبياء من باب البلورياسم أو تعدّد الإدراك.

وهم ـ المتأثّرون بالحداثويات ـ يفسّرون ﴿وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾[٢]، وقوله ﷺ: «**لا نبيّ بعدي**»[٣] أنّ إرسال الرسل إلى الأُمم السابقة إنّما حدث بسبب عدم تأهّل تلك الأُمم، وأنّها لم تبلغ سنّ الرشد، فلذلك احتاجت إلى نبيّ يرشدها، أمّا الأُمم التي جاءت بعد محمّد ﷺ فهي قد بلغت سنّ الرشد، ولا تحتاج إلى قيمومة ووصاية السماء، وهي قادرة بواسطة الحوار والمجتمع المدني والديمقراطية والتجارب العمليّة والانفتاح والحرية على إدارة نفسها ومسايرة الحياة، فيكون ختم الأنبياء يعني الاستغناء عن السماء وشريعتها.

وهم يقولون أيضاً: إنّ الشريعة لا تعالج الأُمور المعاشيّة والمتعلّقة بالحياة العامّة، فهي عاجزة عن تلبية الكثير من مستلزمات الحياة، فمثلاً هي فاقدة لقوانين النظم

---

(١) البخاري: ٢٦٥/٣، كتاب التفسير، سورة الحجّ: الآية ٥٢.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٤٠.

(٣) الدرّ المنثور: ٥٤٥/٦، تفسير سورة الأحزاب: الآية ٤٠، تفسير القرآن العظيم: ٣٨٣/٦، في تفسير الآية المتقدّمة. تفسير القرطبي: ١٤ /١٧٨، تفسير الآية المتقدّمة، ولكن ورد فيها: «لا نبوّة بعدي».

العسكريّة والمصارف والبنوك والاقتصاد والإدارة وغيرها ، وهذا الإشكال وقعت فيه المذاهب الإسلاميّة الأُخرى من أهل السنّة ، وإن هم أنكروا على العلمانيّين الغربيّين والعلمانيّين المسلمين ، بل كفّروهم ، أو حكموا بضلالهم ، ولكنّهم يتبنّون نفس المعنى وإن اختلف اللفظ ، وقال البعض في قوله تعالى : ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ** ﴾[١] ، أنّ القرآن ليس تبياناً لكلّ شيءٍ من أُمور الدنيا ، بينما ذهب البعض الآخر إلى القول بأنّ القرآن ليس فيه تبيان لكلّ شيء من الدين والدنيا ، ومع ذلك فإنّ بعض المفسّرين ـ كالمفسّر الطنطاوي ـ له تفسير يبيّن فيه المعجزات العلميّة العديدة التي ذكرها القرآن ، ثمّ أثبتها العلم بعد عدّة قرون ، فهم يتخبّطون في فهم هذه الآية ، ومع كلّ ما تقدّم فإنّ الذين قالوا : إنّ القرآن فيه كلّ شيء من الدين قد اصطدموا بأنّ ظاهر القرآن ليس فيه كلّ شيءٍ من الدين ، فضلاً عن الدنيا ، ولذلك ذهب البعض ـ متوسّلاً في الخروج من هذه المشكلة ـ : إلى إنّ السنّة النبويّة داخلة في هذا النطاق ؛ لقوله تعالى : ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا** ﴾[٢] ، فتكون السنّة النبويّة داخلة في التبيان لكلّ شيء المذكور في الآية الكريمة ، وعندما رأوا أنّ ظاهر القرآن وظاهر السنّة ليس فيهما تبيان لكلّ شيء ضمّوا لهما الإجماع باعتباره مصدراً من مصادر التشريع ، وأنّه حجّة ، ولكنّ هذا لم يحلّ المشكلة أيضاً ، ثمّ ضمّوا القياس والظنّ والرأي .

ومن هنا فإنّهم وقعوا في مشكلة أنّ ظاهر القرآن وظاهر السنّة ليس فيهما تبيان لكل أُمور الدين ، فضلاً عن الدنيا ، ففتحوا باب العقول والتجارب البشريّة ، وهذا عين ما يدعو إليه العلمانيّون ، وهم كفّروا نصر حامد أبو زيد ـ ونحن لسنا بصدد تصحيح مسلكه وتقليده للحداثويّين الغربيّين ـ ولكن نقول : إنّ ما طرحه هو تتبنّونه أنتم وإن

---

(١) سورة النحل : الآية ٨٩.

(٢) سورة الحشر : الآية ٧.

اختلف اللفظ ، وحكمت المحكمة الشرعيّة ببينونة زوجته منه .

وهنا نقاط لا بدّ من ذكرها :

النقطة الأُولى : هي وجود الحقيقة ، ولا بدّ من وجودها ، سواءً كانت هذه الحقيقة هي حقيقة الحقائق ، ومحقّق الحقائق ، وموجد الحقائق ، ومقرّر الحقائق ، والمثبت للحقائق ، وهو الله سبحانه وتعالى ـ على مبنى الموحدين ـ أو حتّى على مبنى الماديّين الذين يؤمنون بأنّ المادة لها حقيقة أو الذي ولّد المادة له حقيقة ، وإلّا لو لم تكن للمادة حقيقة فلِمَ هذه البحوث العلميّة الكثيرة ، هل هي بحث وراء السراب أم هو بحث وراء الحقائق ؟ طبعاً بحث وراء الحقائق ؛ لأنّها هي المطلوبة .

إذن البحث العلمي يجب أن يبحث عن الحقيقة .

النقطة الثانية : أنّ السير البشري في العلوم التجريبيّة وإن ازدادت وتيرته بصورة مضاعفة ، إلّا أنّه لن يقف عند حدّ من الحدود وعند درجة من الدرجات .

والنتيجة : أنّ البشر لن يصلوا إلى الكمال العلمي بحسب الواقع والحقيقة ، بل إنّ البشرية ستظلّ تبحث وتبحث عن الحقيقة ، وهذا دليل على النقص والعجز البشري في بلوغ الكمال والحاجة إلى الله جلّ جلاله ؛ لأنّه هو المحيط بكلّ الحقائق ومطلق الوجودات ويعلم بكلّ القوانين والمعادلات . ومن خلال النقطتين السابقتين نستطيع أن نقول : بأنّ البشرية لم تصل إلى مرحلة النضج البشري ، وعدم الوصول هذا يدلّ على الجهل البشري ، والله يعلم إلى أي درجة سيكون الفارق بيننا وبين الأجيال القادمة في التقدّم العلمي وأساليب المعيشة ، سواء في العلوم التجريبيّة أو العلوم الإنسانيّة الاجتماعيّة أو غيرها من منظومات العلوم .

إذن البشر لم يصلوا إلى سنّ الرشد ، ولم يستغنوا عن وصاية السماء ؛ لأنّهم لا يزالون يعيشون المحدوديّة في التفكير ، ولا يستغنون عن العالم المطلق الذي يحيط بالأدوار الزمنيّة ، والعوالم المختلفة ، وأُصول الخلقة البشريّة والموجودات

الأُخرى ، وأسرارها ، وكيفيّة ارتباطها وتأثيرها على بعضها وتأثيرها على الإنسان ، والبشريّة لن تصل في يوم من الأيام إلى اكتشاف كلّ أسرار الكون ، بما فيها طبيعة الإنسان روحاً وجسداً وتفاعلاً مع بني جنسه من البشر ، ومن هنا تأتي ضرورة النبوّة ؛ لأنّ البشريّة غير كاملة ، ولذا فنحن نحتاج إلى حبل متّصل بين الأرض والسماء لنحيط بكلّ الأُمور .

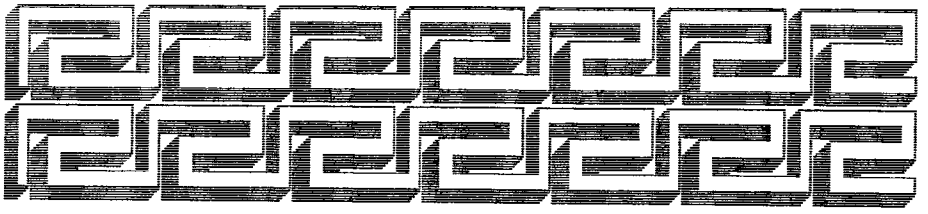

المحاضرة الرابعة

مناقشة آراء مدرسة البلورااليسم

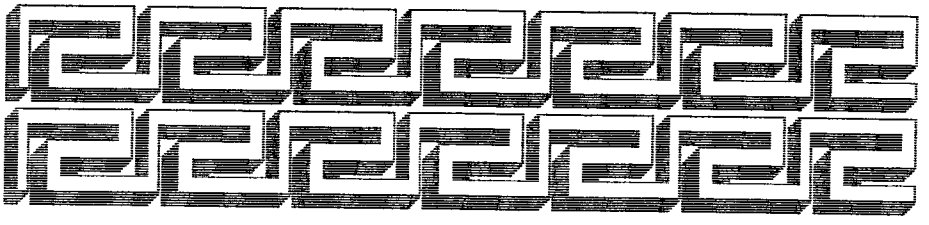

بسم الله الرحمن الرحيم

مدرسة البلوراليسم بين الاتّفاق والاختلاف

المدارس الثلاث التي تكلّمنا عنها كلّها تنطلق من قناعات تصبّ في ضرورة أبديّة الدين الإسلامي والشريعة المحمّدية من حيث لا تشعر.

وسنبدأ بمناقشة المدارس الثلاث، وأوّل مدرسة سنناقشها هي المدرسة المنطقيّة البلوراليسم؛ لما لها من بريق وجاذبية في الأوساط الثقافية، وهذه المدرسة التي تعتمد في طرحها على أنّ الإنسان لا يدرك الحقّ لوحده، بل يشاركه الآخرون في معرفة الحقيقة، وأنّ الإنسان وإن أدرك شيئاً من الحقيقة إلّا أنّه لا يدركها بشكل يجعله يحيط بها إحاطة كاملة.

ولذا فهم يقولون: إذا كان الله تعالى هو المحيط بالحقيقة بشكل كامل فذلك لأنّه هو المطلق اللامتناهي، أمّا الرسول ـ أي رسول، حتّى لو كان محمّد ﷺ ـ فهو مخلوق ومتناهي، وهو لا يمتلك الحقيقة لوحده، ولا يمتلكها بشكل مطلق، وما تعيشه البشريّة من تطور في السير العلمي ناتج من قصورها وحاجتها للوصول إلى الكمال المطلق وهو الله تعالى.

وهذه النظرية هي تطوير لنظرية آينشتاين النسبيّة، وأنّ الحقّ نسبي، وهم يطرحون طرحاً فكرياً يتبنّى الرأي القائل بأنّه لا يحقّ لأحد تخطئة غيره؛ لأنّ الحقّ

منتشر ومتوزّع ولا يحتكره أحد أو جهة معيّنة.

الردّ على هذه الشبهة:

إذا كنتم تقولون: إنّ الحقيقة متفرّقة، وأنّه لا يحقّ لأحد أن يدّعي أنّه يمتلك الحقيقة لوحده ويحيط بها إحاطة كاملة، فأنتم بهذا تميلون إلى جمع الحقائق من كلّ الأطراف، وترفضون أن تتقوقعوا في جزءٍ من الحقيقة عند هذا الشخص أو ذاك، وعند هذه الجهة أو تلك، وأنّ الإنسان بطبيعته يسير نحو الكمال المطلق والبحث عن الحقيقة، والكمال المطلق هو الله تعالى، قال تعالى: ﴿ **قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ** ﴾[1]، فكلّ إسم من أسماء الله يمثّل كمالاً من الكمالات الإلـٰهيّة.

والحاصل: فما عند القوم هو أنّه إذا ادّعى شخص أنّ الحقيقة كلّها عنده، فهذا غير صحيح، بل الصحيح أنّ عنده بعضها وبعضها الآخر عند الآخرين، فبإدّعائه هذا فإنّه سيلغي وينفي جزء الحقيقة عند الآخرين، وبهذه الطريقة ستضيع الحقيقة أو سيضيع جزءها الذي عند الآخرين وهم في حذرٍ شديد من ضياع بعض الحقيقة عند هذا الطرف أو ذاك، وأنّه ينبغي على الإنسان أن يبحث عن الحقيقة عند كلّ الأطراف لكي يحصل على صورتها الكاملة. إذن هم يتّجهون للبحث عن الحقيقة بصورة كاملة من حيث يشعرون أو لا يشعرون، ونحن نتّفق معهم في أنّنا يجب أن نبحث عن الحقيقة بصورة كاملة.

ونحن أتباع الطرح الإلـٰهي المقابل للطرح المادي نقول لهم: إنّ بعض الحقيقة التي يمتلكها هذا الشخص أو ذاك، وهذه الفئة أو تلك، هذا البعض من الحقيقة غير كافٍ للوصول إلى الحقيقة بشكل كامل، والنتيجة هي أنّنا لابدّ لنا من طريقة تجمع لنا

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١١٠.

الحقيقة بقدر ما يستطيع الإنسان أن يدركها لا الحقيقة المطلقة والعلم المطلق الذي يمتلكه الله تعالى؛ لأنّ ذلك مختصّ به تبارك وتعالى، وبالتالي فإذا أردنا أن نحافظ على الحقيقة يجب أن لا نبعّضها وأن لا نوزّعها في هذا الطرف أو ذاك كي نحتفظ بها ولا تضيع بين هذه الأطراف، وأنّه لا بدّ من صيغة عقليّة ذهنيّة فكريّة تضمن لنا حفظ الحقيقة من الضياع عندما تقسّم عند عدّة أشخاص أو فئات، وأنّ الطرح الذي يطرحونه من توزّع الحقيقة عند الفئات أو الأشخاص لا يؤمّن لنا الوصول إلى الحقيقة الكاملة المتمثّلة بالخالق (جلّ وعلا).

وهذا ما يؤيّده ما ورد في الدعاء: «**يا دائم الفضل على البريّة، يا باسط اليدين بالعطيّة، يا صاحب المواهب السنيّة**»[1]، فصاحب المواهب السنيّة هو صاحب الحقيقة المطلقة التي تفيض الكمالات على الإنسان.

العقل الجماعي ومفهوم الشورى الصحيح في الإسلام

من ضمن ما يطرحه العلمانيّون الغربيّون وتبعهم العلمانيّون من العرب والمسلمين هو القول بعدم نفي وإلغاء الطرف الآخر باعتبار أنّه يمتلك جزءاً من الحقيقة، ولكنّنا نقول لهم: إلى أي مدى نعترف بالآخر، هل نصحّح آراءه بشكل مطلق؟ أم نصحّحها بشكل نسبي؟ وعندما نصحّحها بشكل نسبي ما هي النسبة التي تمنح لها، هل هي نسبة التسعين في المئة أم العشرة في المئة؟

ثمّ ماذا نفعل عندما تكون آراء الآخرين آراء سراب وليست آراء صواب، هل نعترف بها بحجّة عدم إلغاء الآخر؟ إذن فنحن بحاجة إلى وضع ضوابط وأدوات للاعتراف بالآخر.

صحيح إنّني لا أستطيع أن أدّعي امتلاك الحقيقة باعتباري إنسان عادي غير

---

(١) المصباح /الكفعمي: ٦٤٧، الفصل السادس والأربعون: فيما يعمل في شهر شوّال.

معصوم ، والقرآن الكريم والمذهب الإمامي يدعو إلى العقل الجماعي «**حقّ على العاقل أن يضيف إلى رأيه رأي العقلاء**»[١] هذا هو الذي يطالب به الدين الإسلامي لغرض الوصول إلى الكمال والحصول على الحقيقة ، وبالتالي يكون له الأثر الايجابي في الرقيّ والإسهام في التطوّر ، ولم يعبّر الحديث بأنّ العاقل من جمع أهواء الناس إلى هواه» ، أو : «من جمع سفاهات الناس إلى سفاهته» ، بل قيّدها بإضافة آراء الآخرين إلى رأيه ؛ ولذلك من المفيد أن نضيف إلى علمنا علم الغربيّين من حيث التكنولوجيا والتقنيات الحديثة والدراسات العلميّة والتعدّدية السياسيّة ، ولكن ينبغي علينا أن نترك ما يعتبر من التخلّف في المجتمعات الغربيّة من الانحلال الخلقي والتفسّخ والرقص والمجون التي تضجّ منها أُوروبا والهند واليابان مع كونهم غير مسلمين ، لأنّهم يخشون على أنفسهم من شراسة الجنس والإغراء والتحلّل والمجون الذي تصدّره أمريكا .

فالعقل الجماعي الذي تكلّمنا عنه هو ما يعبّر عنه بالشورى في المفهوم الإسلامي وليس الإرادة الجماعيّة ، ونحن نحترم التعدّدية في هذا الإطار ، وهي جيّدة ومفيدة ، ولكن المهمّ هو انتقاء الفكر الصحيح عند الآخر لا قبوله بشكل مطلق بحجّة قبول الرأي الآخر والتعدّدية ، وإذا لم يكن فيه شيء من الصحّة لا نقبل منه شيء ، وإذا كان يحتوي على نسبة ضئيلة من الصحة لا نقبل غير هذه النسبة الضئيلة ، ونرفض الفكر الخاطئ منها .

ومن الأخطاء الشائعة في هذا الزمان إقحام الحوار وإدارته من قِبل أشخاص لا يعلمون من التخصّص الذي يدور حوله الحوار شيئاً ، فليس من المعقول أن يدير

---

(١) غرر الحكم : ٥٥ ، رأي العاقل ، الحديث ٤٩٦ .

وورد الحديث : «**أعقل النّاس من أطاع العقلاء**» ـ راجع غرر الحكم : ٥٢ ، باب أعقل النّاس ، الحديث ٣٨٥ .

الحوار الطبي مهندس ميكانيكي وينصب هذا المهندس الميكانيكي نفسه حكماً على ذلك الحوار الطبي وهو لا يعرف من الطب حتّى أبجدياته.

فالصحيح والمهمّ إذن، هو أن لا يستبدّ الإنسان برأيه، وأنّ من استبدّ برأيه هلك، ولا بدّ من الاستماع إلى الرأي الآخر، وهذه هي ثقافة الإسلام التي سبق بها البلوراليسم وإن كانت هذه الثقافة قد شوّهتها وجود الحكومات الظالمة المستبدّة التي كانت تحكم باسم الإسلام من حيث المظهر والشكل.

وعليه فالسعي للحصول على تمام الحقيقة يدعونا إلى الانفتاح على الآخرين، وأنّ البحث عن الحقيقة يحتاج إلى سلسلة من تجارب البشر حتّى يصلون إلى بعض درجاتها، ونحن نعتقد أنّ الله قد بعث محمّداً صلى الله عليه وآله قبل أربعة عشر قرناً، وقد جعله سيّد البشريّة من حيث الروح والأخلاق والعقل، وقد أعطاه الله ما لم يعط غيره، فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1]، ويتجلّى لطف الله بمحمّد صلى الله عليه وآله في سورة الشرح والضحى وغيرهما.

مفاتيح العلوم عند النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله

لا شكّ إنّ الله قد أعطى محمّداً صلى الله عليه وآله قواعد العلوم، بل أحاطه بالحقائق، وقد زقّه العلم زقاً بصورة غير قابلة للخطأ إطلاقاً، والله تعالى يحيط بالحقيقة فلا يعزب عن علمه شيء، سواء كان من حيث الكمّ أو الكيف، ولا يصل إليه البشر في سيرهم العلمي القائم على التجربة في العلوم السياسيّة والإنسانيّة والحقوقيّة وغيرها، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[2]، فالله يعلم ما خلق من الذرّة إلى المجرّة، ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ الذي لا يخفى عليه شيء، وهذا ليس إفراط

---

(١) سورة القلم: الآية ٤.

(٢) سورة الملك: الآية ١٤.

في معرفة شأن النبيّ محمّد ﷺ، بل هذا هو ما أخبر به الله تعالى حيث قال:

﴿وَمَا مِن غَائِبَةٍ فِي السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[١]، وفي هذه الآية لا يقتصر الأمر على التشريع في الكرة الأرضية، بل يتجاوز إلى الغائبة في السماء والأرض، حيث توجد في الكتاب المبين وهو القرآن، ولكن ليس تنزيل القرآن النازل من المصحف، بل هو القرآن في اللوح المحفوظ، وقال تعالى:

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٢].

﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَبِّكَ مِن مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّماءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾[٣].

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[٤].

﴿حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[٥].

حقيقة الكتاب المبين

وسنورد معنى الكتاب المبين بصورة مقتضبة، حيث يقول تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ﴾، والتنزيل تخفيف كما لو قلنا: سننزل هذا المطلب، أي سنخفّفه؛ لأنّ حقيقة الكتاب المبين لا تستوعبه الدنيا، ولكن أصول المطالب الموجودة في الكتاب المبين

---

(١) سورة النمل: الآية ٧٥.

(٢) سورة الأنعام: الآية ٥٩.

(٣) سورة يونس: الآية ٦١.

(٤) سورة يس: الآية ١٢.

(٥) سورة الدخان: الآيات ١ ـ ٣.

موجودة في مصحف القرآن الكريم ، والكتاب المبين هو حقيقة القرآن وعلومه الغيبيّة بنصّ سورة الدخان ، وسور أُخرى فضلاً عن الروايات كي يوسوس من يتمرّد على التراث الروائي المعتبر أو يطعن على مذهب الإماميّة بالباطني .

﴿ حم * وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ * إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾(١) ، أي جعلاً مخفّفاً يتحمّله الوجود الأرضي ، ﴿ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً ﴾ ، وإلّا فإنّه في حقيقته ليس لفظاً عربياً ولا فارسياً ولا إنجليزياً ، كما هو الحال في معاني القرآن ، فإنّها لغة بشريّة موحّدة ، بل لغة عقليّة موحّدة بين الإنس والجنّ والملائكة ، فضلاً عن حقائقه وحقيقته العينيّة التكوينيّة الملكوتيّة ، وهذا ما نستفيده من كلمة ﴿ جَعَلْنَاهُ ﴾ الواردة في الآية ، أي صيرّناه ونزلّناه بصورة ألفاظ ، وإنما هو وجود تكويني وحقيقة من الحقائق ، وأمّا ماهي هذه الحقيقة ؟ فهذا بحث آخر لسنا في صدد الخوض فيه في المقام .

وقال تعالى : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُدْهِنُونَ ﴾(٢) .

فالقرآن يقول : هل أنتم مرتابون بهذه الحقيقة ولا تصدّقونها ؟

وهذا القرآن الذي هو تنزيل ونزول ، والنزول هو مقابل الصعود ، كما هو معروف في اللغة . والقرآن الكريم ينبّئنا أنّ كثيراً من المغيّبات والحقائق موجودة في الكتاب المبين ، يقول تعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾(٣) .

---

(١) سورة الزخرف : الآيات ١ ـ ٣ .

(٢) سورة الواقعة : الآيات ٧٥ ـ ٨١ .

(٣) سورة النحل : الآية ٨٩ .

إنّ هذا إدّعاءٌ حقّاني كبير ، ومن يستطيع في هذا العصر أن يثبت هذا الإدّعاء أنّ القرآن فيه كلّ شيء ؟

بالله عليكم لو لم يكن للقرآن قريناً آخر وهم أهل البيت عليهم السلام كيف يمكننا أن نثبت هذه الحقيقة أمام الأُمم الأُخرى ؟

وقد حاول بنو أُميّة وبنو العباس طوال قرنين أو ثلاثة في التواطؤ مع الدول الأُخرى وعلماء أديان الملل والنحل الأُخرى وأرباب الفنون والعلوم في سائر أرجاء البقاع أن يحرجوا أهل البيت عليهم السلام ، فكانوا يأتون بالعلماء وأهل الفنون والصنائع والمهارات لكي يناقشوهم ، وبالتالي ينتصرون عليهم فتقل منزلة أهل البيت عليهم السلام عند الجماهير ، ولكنّهم فشلوا في هذا الأمر ، وانتصر أهل البيت عليهم عليهم السلام على جميع المستويات العلميّة بما فيها الطب وغيره ، والتاريخ يشهد للإمام الصادق عليه السلام والإمام الرضا عليه السلام ، وغيرهما من أئمّة أهل البيت ، والمقام العالي للإمام الرضا عليه السلام هو الذي جعل المأمون يضطرّ إلى إدخال الرضا عليه السلام في دولته صوريّاً كي يأمن من تنامي نفوذه بين الناس من جهة ، ويتقوّى بذلك اعتبار وشرعيّة دولته بأن يجعله وليّ العهد ، ولو قرأنا كتاب تهذيب الكمال للمزي[1] ، وهو من علماء العامّة في ترجمة عليّ بن موسى الرضا عليهما السلام فكان يقول : إنّ الإمام كان يأتي بالغرائب عن آبائه عليهم السلام ، وهو وإن أرادوا به عنوان طعن عليه عليه السلام ، لكنّه إقرار منهم بأنّ ما نشره عليه السلام من العلوم غريب على مستواهم العلمي وفوق درجة المعرفة لديهم . وهذا المقام العالي لأهل البيت عليهم السلام جعلهم القرين للكتاب الكريم .

---

(١) ورد في المصدر : « يأتي عن أبيه بعجائب » .

راجع : تهذيب الكمال : ١٥٢/٢١ ، ت ٤١٤١ في الهامش . ميزال الاعتدال / الذهبي : ١٥٨/٣ ، ت ٥٩٥٢ . كتاب المجروحين / ابن حبّان : ١٠٦/٢ ، ولكن ورد : « يروي عن أبيه العجائب » .

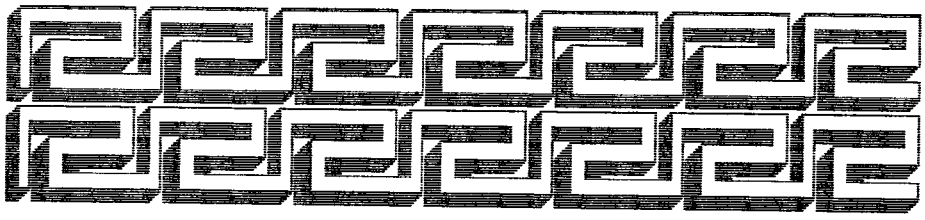

المحاضرة الخامسة

مناقشة مدرسة السكولارزم

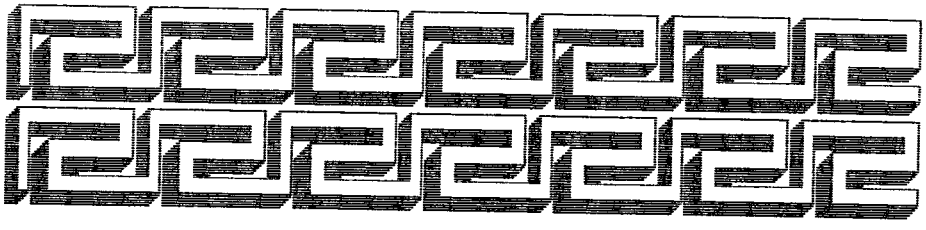

بسم الله الرحمن الرحيم

مدرسة السكولارزم نقد وتحليل

قلنا في الحديث السابق: إنّنا لا نرفض مدرسة البلورااليسم بشكل مطلق، وأشرنا إلى الجوانب الإيجابيّة فيها، وذكرنا أنّنا نستنتج من آراء هذه المدرسة استنتاجات تصبّ في ضرورة النبوّة والرسالة ووصاية السماء، وليست معطياتها وأُسسها ضدّ هذه المفاهيم كما يتراءى للمطّلع عليها من أوّل وهلة وإن أراد الحداثيّون توظيفها ضدّ الثابت الديني، وسنشير إلى تطبيقات هذه المدرسة في المجال السياسي فيما بعد إن شاء الله.

وسوف ندخل في مناقشة مدرسة السكولارزم، وهي أقدم المدارس الثلاث، ولا زالت تتطوّر وتتبلور بصياغات فكريّة جديدة وإضافات علميّة متعدّدة.

ملخص إثارات هذه المدرسة ـ وإن كنّا لسنا في مقام استقصاء هذه الإثارات ـ يرتكز على الجانب المتغيّر في النظام الاجتماعي أو الاقتصادي أو العسكري أو السياسي أو المالي أو الإداري في حياة البشر، هذا بالإضافة إلى نظام الأُسرة والفرد وطبيعة المعيشة وتطوّرها؛ من السكن في الكهف، ثمّ الصحراء، ثمّ الغابات، ثمّ الأودية، ثمّ القرية، ثمّ المدينة.

فلو قارنا معيشتنا في هذا الزمان مع مَن عاشوا قبل خمسين سنة، فضلاً عمّن

عاشوا لقرون سابقة ، لوجدنا أنّ طبيعة الأُسرة تختلف من حيث المتطلّبات والتعقيدات الحضاريّة ، وطبيعة المشاركة بين الزوج والزوجة قد اختلفت أيضاً ، ففي الماضي لم يكن المال هو الوسيط الاقتصادي ، وإنما كان عن طريق المقايضة والمبادلة بين بضاعة وأُخرى في فترة من فترات الزمن ، وفي فترة أُخرى تكون البضاعة السائدة هي النقد ، فمثلاً: البلد الذي يكون فيه الشاي هو البضاعة السائدة يكون الشاي هو النقد في ذلك المجتمع ، ثمّ تحوّلت هذه الحالة إلى وضعيّة النقد المالي الذي بدأ بالنحاس ، ثمّ بالفضة والذهب ، ثمّ النقد الورقي ، والآن تحوّل النقد الورقي إلى النقد الاعتباري بالشيكات والحوالات وبطاقات الائتمان ، أو الفيزا كارد كما تسمّى ، والنقد الورقي آخذٌ في الاضمحلال شيئاً فشيئاً ، وهكذا في الجانب السياسي الذي بدأ بصور قبليّة بسيطة ، ثمّ تطوّر إلى نظام الديوان والكتّاب والشرطة والجيش العسكري التقليدي بأسلحته التقليديّة ، ولكن هناك فرق شاسع بين هذه الحالة وحالة الحكومات في زماننا المعاصر وحيث نرى أنّ هنالك تشكيل الوزارات وإجراء الانتخابات وكذلك التطوّر الإلكتروني الذي دخل كلّ المجالات وأدوات النظام ، وهذا لم يكن موجوداً في السابق ، وكذلك لم يكن في الماضي الفصل بين السلطات الثلاث: التشريعيّة والقضائيّة والتنفيذيّة كما هي موجودة الآن ، ولم تكن القوانين في الأزمنة الغابرة على ما هي عليه في هذا الزمان من التشريعات الثابتة أو الدستور أو التشريعات المتغيّرة أو مصوّبات المجالس النيابيّة وغيرها.

فالقوى التشريعيّة في الحكومات تضاهي القوّة الفكريّة عند الإنسان ، والقوى العسكريّة تضاهي القوّة الغضبيّة الرادعة عند الإنسان ، ووزارات التربية والتعليم تضاهي الإدراك عند الإنسان ، فأصبح جهاز الدولة كإنسان كبير متطوّر.

وأعمال الصرافة التي تطوّرت حتى أصبح البنك بحدّ ذاته كدولة مستقلّة ، وهذا ما ينطبق على التطوّر الزراعي والصناعي وغيرهما.

الشبهة التي يطرحونها

كيف يبقى الدين ثابتاً مع كلّ هذا التطوّر الذي جرى على البشريّة ، ولو لاحظنا أنّ نسخ شريعة موسى بشريعة عيسى عليهما السلام ، إنّما جاء في فترة لم تكن فيها قفزة تطوّرية في نظم الحياة ، وهكذا بالنسبة لنوح وإبراهيم ومحمّد صلى الله عليه وآله ، وإنّما حدثت القفزات والتطوّرات الهائلة في العصور المتأخرة والأزمنة المعاصرة ، فكيف يبقى الدين ثابتاً مع هذا التطوّر العلمي ؟

فمن باب الأوْلى أن يحدث النسخ في الزمان الحاضر مثلما حصل للشرائع السابقة ؛ وذلك لحدوث التطوّر الهائل ؟ فالمجتمع لم يعد مجتمعاً قبلياً وعشائرياً ، بل تحوّل النظام إلى وطن وجنسيّة ومواطنة وبطاقة سكانيّة وجواز وإثبات هوية ، وغيرها .

وأنا أطرح هذه الإثارات بكلّ صراحة لأنّ ديننا دين خالد ، ويستطيع أن يستوعب كل هذه الأُمور ويجيب عليها ؛ لأنّ عنده قابلية الردّ على كلّ الإشكالات ، بل إنّه يمتلك القدرة على تلبية العطش البشري ، ونحن لا نعيش في ذلك الزمان الذي ينغلق فيه كل قوم على أنفسهم ، وإنّما نحن في زمان أصبح فيه العقل البشري كلّه على طاولة واحدة وتغلب عليه الشفّافيّة في أغلب الأشياء .

ومن إشكالاتهم أيضاً هي : أنّ النبيّ قد بعث في مجتمع يغلب عليه البداوة ، ولم يكن في مجتمع حضاري كالفرس والروم ، وإن كان هذا الأمر يدل على عظمة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله الذي استطاع أن يحوّل هذا المجتمع البدوي إلى مجتمع يحكم العالم ويسيطر عليه ، وهذا محل إعجاب الباحثين والعلماء ، فهم يقولون ـ مع هذا الإعجاب والانبهار بالدور الذي قام به محمّد صلى الله عليه وآله ـ : إنّ المجتمع الذي كان يعيش فيه كان مجتمعاً بدوياً ، فلا يمكن أن نبقى على أحكامه في ظلّ التطوّر العصري الهائل ، ولا يمكن الاعتماد على البيّنة والشاهد كما يطرحه الفقه الإسلامي ؛ لأنّ ملف القضاء في الزمان المعاصر قائم على التحقيقات والاستخبارات القضائيّة ، وفي باب المرور يأتي

المختصّون في هذا الجانب ليفصلوا الخصومة. وقبل الإجابة عن هذا الإشكال نقول:

إنّ مدرسة السكولارزم هي مدرسة فلسفيّة، وهي لا تناقش قدرة النبيّ محمّد ﷺ الفردية، كما هو الحال في البلوراليسم، فالمناقشة إنّما تقع على مسألة المنهج والقانون والدين، ، وهم يناقشون البحوث المختلفة ويعترضون عليها وعلى البحوث المتعلّقة بها، خصوصاً البحوث القضائيّة والأسريّة والمصرفيّة، ففي بحوث الديات والقصاص والحدود، فهم -مثلاً- يعترضون على قطع اليد وعلى الجَلد وغيرهما من العقوبات الإسلاميّة، ويعتبرونها غير مناسبة للعصر الحاضر، وينبغي -حسب رأيهم- التفكير في أساليب رادعة أُخرى لمحاربة الجرائم والجنايات، وأنّ العقاب الإسلامي قد أكل الدهر عليه وشرب، ولا يناسب النظام النفسي والسيكولوجي الاجتماعي الحديث.

الجواب الأوّل

أوّل ما يثار على هذه التساؤلات هو: هل كلّ ما هو في البيئة التي تحيط بالإنسان -بكلّ أنواعها وأشكالها- هو متغيّر أم ثابت؟

نحن نطرح هذا التساؤل لأنّ مدرسة السكولارزم تريد أن تفصل الدين عن الحياة بكلّ أطيافها بحجّة أنّ البيئة تتغيّر دون أن تراعي أن هناك ثوابت إلى جانب المتغيّرات، ونحن نطرح سؤالاً آخر، وهو: ما هي نسبة الثابت والمتغيّر في حياة الإنسان؟

فالإنسان منذ آدم عليه السلام وحتّى يومنا الحاضر هو الإنسان لم يتغيّر من الناحية الخلقيّة والبدنيّة والنفسيّة والفسيولوجية، فالجهاز الهضمي والعصبي، والدورة الدموية والأعضاء البدنيّة وغيرها هذه كلّها ثابتة.

كذلك الحاجات الإنسانيّة لم تتغيّر، فالإنسان في زمن آدم عليه السلام لديه حاجات جنسيّة ويحتاج إلى نظام الزواج، والإنسان في زماننا هذا كذلك، وهو في ذلك الزمان

يحتاج إلى الرعي والزراعة من أجل تأمين الجانب الغذائي ، وفي زماننا هذا كذلك ، والبيئة ، والصيف والشتاء ، والحرارة والبرودة ، والقوى الشهويّة والغضبيّة ، والاحساسات والعواطف ، والقوى الروحيّة ، كلّ هذه الأُمور ثابتة وليست متغيّرة .

فالإنسان صاحب عواطف وأحاسيس ، ولا يمكن تهميش هذا الجانب المهمّ في حياته كما تنطلق بعض الدعوات التي تدعو لذلك ؛ فالإنسان يحبّ ويكره ، وينقبض وينبسط ، ويحزن ويفرح ، وهذا هو الجانب الحيوي فيه ، ولا يمكن أن نفرض الجانب الفكري فقط ، فمثلاً : نجد أنّ الجانب التربوي يعتمد على الجانب العاطفي والوجداني بدرجة كبيرة ، لا يمكن بحال من الأحوال الاستغناء عنه ، ولا يمكن إخضاعه للفكر بصورة مطلقة .

ونحن ذكرنا في المحاضرات الأُولى أنّ الدين هو الذي لا يتغيّر بين نبيّ وآخر ، وأنّ الذي يتغيّر هو أحكام الشريعة ، فالتوحيد الذي يحتاج إليه الإنسان في الغابة والكهف هو نفس التوحيد الذي يحتاج إليه في عصر المعلومات وغزو الفضاء ، فالتشريع الإسلامي الذي يعالج الجوانب الثابتة في حياة الإنسان هو أيضاً يحارب الرذيلة ، والرذيلة وإن تطوّرت في أساليبها وأشكالها إلّا أنّها هي الرذيلة التي يجب أن نحاربها ونجتثّها من المجتمع .

وعندما نردّ على نظريةٍ ما لا يعني أنّنا ننسف هذه النظرية التي نردّها من الأساس ، بل قد تكون فيها جوانب إيجابيّة كالنوازع الفطريّة التي أصابها بعض الانحراف ونحاول أن نهذّبها من الانحراف ونرجعها إلى أُصولها الفطريّة النقيّة ، وأهل البيت عليهم السلام قد علّمونا أن ننفتح على جميع الآراء شريطة أن نزن ونميّز الغثّ من السمين المستمدّ ذلك من الدعوة القرآنيّة ﴿ **الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ** ﴾[1] ، والقول جنس عامّ شامل ولكن الاتّباع هو للأحسن ، وهو أعلى رتبة

---

(١) سورة الزمر : الآية ١٨ .

من الحسن وذلك بعد القدرة على التمييز ، وهذا ما نراه من الإمام الصادق عليه السلام عندما يناقش عبدالكريم بن أبي العوجاء[١] وغيره من المنحرفين فكرياً ، أمّا بقيّة أئمّة المذاهب الأُخرى لو دخل عليهم داخل وأثار إثارات وإشكالات غامضة فإنّهم يطردونهم ويتّهمونهم بالزندقة ، كما ينقل المزي في ترجمة مالك أو أحمد بن حنبل عنهم ، بينما الإمام الصادق عليه السلام كان لا يستعمل معهم هذا الأُسلوب ، وهذه الإثارات قد تفتح ذهن الإنسان على حقانيّة الدين .

الجواب الثاني

إنّ الباحث العلمي في شتّى حقول المعرفة يجب أن يبحث عن الحقائق والمعادلات الثابتة وليست النتائج المتغيّرة ، فالفيزيائي عندما يبحث عن قانون لحساب السرعة في مجال معيّن هل يبحث عن قانون متغيّر أم قانون ثابت ؟ طبعاً قانون ثابت .

نحن لا ننكر وجود الجانب المتغيّر ، ولكن نقول : إنّ الباحث في شتّى المجالات لا يستطيع أن يتنكّر للجانب الثابت في حياة الإنسان ، وهذه الجوانب الثابتة هي المهيمنة على كلّ المتغيّرات ، وبالتالي يمكن مواكبة المتغيّرات من خلال الاستفادة من الجوانب الثابتة .

---

(١) راجع الكافي : ٩٧/١ ، باب حدوث العالم وإثبات المحدث ، الحديث ٢ . التوحيد : ١٢٢ ، باب القدرة ، الحديث ٤ . الإرشاد / المفيد : ١٩٩/٢ ، ذكر طرف من أخبار أبي عبدالله جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام وكلامه ، فصل .

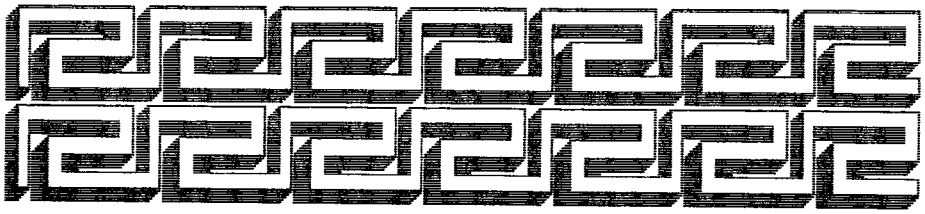

المحاضرة السادسة

الإمام يطبّق الشريعة على المتغيّرات

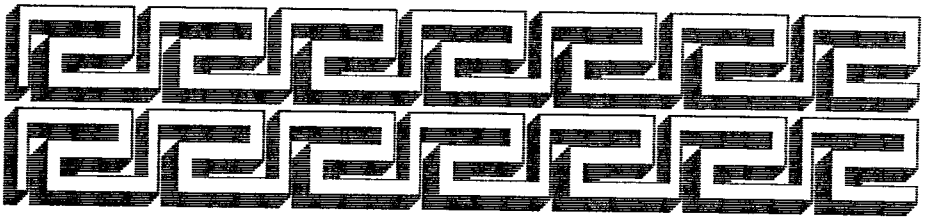

بسم الله الرحمن الرحيم

قلنا: إنّ الله قد أهّل محمّداً ﷺ ليحمل رسالة تحتوي على أُصول التشريع، وهي أُصول كلية وقواعد عامة كشف عنها التشريع الإسلامي بواسطة محمّد ﷺ، والله هو الذي يعلم ما خلق وهو اللطيف الخبير، أمّا المتغيّرات فهي الجانب الذي تعالجه الشريعة والشرائع، إلّا أنّها قد تطوّرت بشكل أكبر ممّا كانت عليه في الرسالات السابقة التي نسخت بعضها البعض الآخر، كرسالات عيسى وموسى وإبراهيم ونوح عليهم السلام، وأمّا منطقة الثبات في الدين فهي أُصول الدين وأركان الفروع، وأمّا التفاصيل التشريعيّة والعباديّة والنظام السياسي والقضائي فهي داخلة في المتغيّرات في نسخ الشرائع، وتبقى الأُصول التشريعيّة جامعة وثابتة.

مجهولات العلوم وحلولها

وهنا قد يطرح إشكال وهو: من يضمن سلامة واتقان استنباط القضايا التفصيليّة من الأُصول والقواعد الكلّية بنحو ترتبط بها بدقّة في الشريعة الإسلاميّة؟ وعلى سبيل المثال: علم الرياضيات والهندسة والجبر والحساب فهي تعدّ من العلوم البديهيّة تقريباً، أمّا المجهولات الهندسيّة والجبريّة والرياضيّة والميكانيكيّة إلى الآن لم يستطع علماء الرياضيات أن يجدوا حلولاً لها مع أنّ حلولها توجد في الأُسس الأوّليّة

لعلم الرياضيات من عمليات الطرح والجمع والضرب والقسمة ، وعلم الرياضيات علم معصوم في نفسه ، وإذا حدث خطأ ما فالخطأ إنّما هو في الشخص الذي استعمل الرياضيات بصورة خاطئة لا في علم الرياضيات نفسه ، وفي العديد من المقابلات مع نجوم علم الرياضيات قالوا: إنّ علم الرياضيات الموجود بصورته الحالية يرجع إلى تسع معادلات حسب كلامهم ، وبعضهم قال: إنّها ستّ معادلات ، إلّا أنّ العقل البشري لا يستطيع الإحاطة واستيعاب الأُسس التي قامت عليها هذه المعادلات وخلفيّاتها ، ولا يعرف ما وراءها ، وقد أكّد غير واحد من ذوي التخصّص العالي في الرياضيات هذه الحقيقة ، وهم يقولون: إنّنا لو استطعنا معرفة الأسرار التي تقف وراء هذه المعادلات لاستطعنا أن نكتشف العديد من الأسرار المذهلة في الكون ، وهذا العجز البشري في معرفة هذه الأسرار لا يعني عجز علم الرياضيات في نفسه ، وإنّما النقص في من يستنبط هذه النتائج من هذا العلم ، ولا يقتصر ذلك على علم الرياضيات فقط ، وإنّما ينطبق على باقي العلوم الأُخرى ، وهذا الكلام بعينه يأتي في مسألة الاستنباط من الأُصول والقواعد في الشريعة الإسلاميّة.

الإمام عنده علم تأويل الكتاب

قد يطرح سؤال في المقام هو: من هو الذي يستطيع من بعد محمّدٍ صلى الله عليه وآله أن يحفظ شريعة محمّد صلى الله عليه وآله التي تغطّي كلّ المتغيّرات ؟ وهذا السؤال لا يجد جواباً إلّا عند مدرسة أهل البيت عليهم السلام ، حيث نعتقد أنّ الإمام عنده علم الكتاب كلّه ، ومن هنا نحن نقول: إنّ هذا المقام يعدل مقام أُولي العزم من الأنبياء السابقين عليهم السلام ، وإن كنت لست في مقام إثبات هذا الأمر إلّا إنّها إشارة معترضة ؛ لأنّ الذي يحيط بأُسس الشريعة والأُصول العامّة التي تغطّي المتغيّرات لملايين البشر حتّى يوم القيامة هو الذي يستطيع الإحاطة بعلم الكتاب كلّه ، وهذا علمه يزيد على علم الأنبياء السابقين ، لأنّ علمه يكون علم الكتاب الذي هو مهيمن على جميع الكتب السابقة ، وكذلك الفترة

التي كانت فيها شرائع الأنبياء السابقين شرائع محدودة بفترة معيّنة قد تطول أو تقصر ، بينما شريعة النبيّ ﷺ هي الشريعة الخالدة التي لا تنسخ ولا تتبدّل ، بخلاف الشرائع السابقة فإنّها نسخت بشريعة النبيّ ﷺ ، فالذي يقوم مقام النبيّ في خلافته ـ باستثناء النبوّة ـ في تغطية حاجيات البشر من خلال المتغيّرات التي تطرأ عليهم هو الإمام ، وهو الحافظ للشريعة كما يعرّفه الإماميّة بهذا التعريف باعتباره القادر على المعرفة الكاملة لما تغطّيه الشريعة للمتغيّرات .

فالتأويل لا يعلمه إلّا الله والراسخون في العلم ، وهذا هو معنىً من معانٍ عديدة للتأويل ، فالراسخون هو وصف اتّصف به جماعة من الناس دون غيرهم لأنّهم القادرون على التأويل ، حيث من معاني التأويل أيضاً هو تطبيق الأُسس والأُصول على المتغيّرات ، كما حدث بين موسى عليه السلام والخضر في قضية السفينة والغلام والجدار التي يذكرها القرآن في سورة الكهف بحيث يكون الانطباق بين الشريعة والمتغيّرات انطباقاً يقينياً وله تداعياته وتأثير في مستقبل النظام الاجتماعي ، فبقاء الجدار وعدمه ، وبقاء الغلام وعدمه ، وخرق السفينة وعدمها ، يترتّب عليه أُمور عديدة ونتائج مختلفة ، ولو بقي هذا الغلام لانقطع نسل سبعين نبياً ، كما ورد في بعض الروايات التي يرويها الفريقان[1] ، أي سيحدث منعطف خطير في حياة البشريّة لو قدّر لهذا الغلام أن يبقى .

أين يوجد الإمام المهدي ؟

إنّ المشكّكين في وجود الإمام المهدي عليه السلام يطرحون إشكالاً مفاده أنّه : أين يستقرّ الآن المهدي ، وما هي نشاطاته ؟ فإنّ النشاط المهمّ في الدولة هو النشاط السري

---

(١) الكافي : ٩/٦ ، باب فضل النيّات ، الحديث ١١ . الفقيه : ٣١٣/٣ ، باب حال من يموت من أطفال المؤمنين ، الحديث ٨ . تفسير القرطبي : ٣٧/١٠ ، تفسير سورة الكهف : الآية ٨٠ ـ ٨١ .

والاستخباري ، والقوّة تكمن في الخفاء ، وليس الغياب عن ميدان العمل ؛ لأنّ ذلك يعني تلاشي التأثير والفاعليّة. وللإجابة عن هذا الإشكال نقول: إنّ هناك غيبتان: إحداهما غيبة في مقابل الظهور ، وأُخرى في مقابل الحضور ، وغيبة الإمام المهدي (عج) إنّما هي في مقابل الظهور وليس في مقابل الحضور ؛ لأن الإمام المهدي (عج) حاضر بيننا ومعنا ، ولكنّ المشكلة فينا ، فنحن لم نستطع تمييز الإمام عليه السلام ومعرفته بحقيقته ؛ ولذلك نرى النّاس يقولون عند ظهوره إنّنا رأيناه ونعرفه ، ونحن نعبّر عن عصره بعصر الظهور ، ونتكلّم عن علامات الظهور ، ولا نعبّر عنه بعصر الحضور وعلامات الحضور ، وعصر الظهور هو العصر الذي تنكشف فيه هوية الإمام المهدي (عج) للملأ وهذا يكشف عن أنّ الإمام المهدي موجود ونشط ، ويقوم بالإعداد الكامل للنهضة الكبرى التي تستوعب العالم ونفوذه إلى الحقّ بعد ما سحقته أيدي الظلم والطغيان وغيّبت عنه الحقائق لتمنعه من الاستعداد والتهيّؤ لذلك اليوم.

اختلاف أنماط الحكومات وأهمّية الأجهزة السريّة

لا شكّ أنّ أنماط الحكومات تختلف فيما بينها ، بل حتى القبيلة التي هي نمط من أنماط الحكومة والعشيرة والطائفة التي تمتلك مواردها الخاصّة وقوانينها وقدراتها وروافدها الثقافية الخاصّة بها ، فإنّ لها أنماطاً تختلف عن أنماط باقي العشائر والقبائل الأُخرى ، والمجتمع إنّما هو مجموعة قوى ، كلّ قوة لها إمكانياتها الخاصّة بها ، ولذلك فالأدبيات السياسية التي تقيم تحليلاً عن المرجعيّة الشيعيّة تقول: إنّ المرجعيّة حكومة ولكنّها شبه رسميّة أو نصف رسميّة ، حيث أنّ المرجعيّة الشيعيّة لها وزارة ثقافة تتصدّى للغزو الثقافي والوضع الفكري المنحرف ، وتنشر الوعي ، ووزارة دفاع تتمثّل في فتاوى الجهاد ، ووزارة مالية تتمثّل في جمع الضرائب والأخماس وغيرها ، وهذه الوزارات ليست وزارات لها مباني ، وإنّما هي وزارات لها نفوذ اجتماعي ، والحكومات ليست هي الحكومات الرسميّة فقط ، والتي تنحصر في

المباني المعدّة لها والظاهرة من خلال الأسماء والمسمّيات وإنّما الحكومات هي القوى التي تمتلك النفوذ الاجتماعي، سواءً كانت رسميّة أو غير رسميّة، فهناك أجهزة تدير العالم في زماننا الحاضر في الحقل المالي وحقل التسلّح العسكري والمصرف والإعلام، وكلّها أجهزة سريّة تدير العالم ولا نعرف من يقف وراءها، فليس معنى النفوذ والنشاط أن يكون هذا النشاط معلناً ومن يقف وراءه ظاهراً؛ لأنّه لا يوجد رابط بين القدرة على الحكم وبين إعلان الحاكم، ولذا حتّى الحكومات الأوربيّة والأمريكيّة، وكذلك الحكومات في آسيا وأفريقيا المعلنة نرى أنّ هنالك أجهزة سرّيّة تقف وراءها.

فالإمام المهدي عليه السلام حاضر وموجود ونشط في مختلف القضايا، ولو تأمّلنا في هذه الآية من سورة الكهف: ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِن عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِن عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً﴾[1].

ويستفاد من مجموع الأحاديث الواردة في ذيل الآية: أنَّ هذا مثلاً ضربه الله للإمامة، ولولا علم التأويل لم يقتنع موسى عليه السلام بما فعله الخضر عليه السلام[2].

﴿ذٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾[3]، وعندما علم موسى تأويل تلك الأفعال اقتنع ورضي بما فعله الخضر على ضوء أُسس الشريعة التي تغطّي هذه المتغيّرات، والنبيّ موسى عليه السلام لم يكن عنده هذا التأويل ـ مع أنّه كان من أنبياء أُولي العزم بنصّ سورة الكهف ـ بل كان عند غيره، ومع أنّ الله تعالى لم يصف الخضر بأنّه نبيّ من الأنبياء أو رسول من الرسل، وإنّما وصفه بأنّه عبد من عباد الله، وقال تعالى إنّه آتاه علماً لدنياً حينما عبّر بـ﴿مِن لَّدُنَّا﴾، والعلم اللدني هو السبب المتّصل بين

---

(١) سورة الكهف: الآية ٦٥.

(٢) لاحظ ما ورد في تفسير البرهان ونور الثقلين في ذيل الآية.

(٣) سورة الكهف: الآية ٨٢.

الأرض والسماء. وهذا العلم كان أيضاً عند أمير المؤمنين عليه السلام كما في قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «**يا عليّ، أنا أُقاتل على التنزيل، وأنت تقاتل على التأويل**»(١)، والعلم الذي عند الإمام عليّ عليه السلام هو من عند رسول الله صلى الله عليه وآله، وهو القائل: «**علّمني رسول الله ألف باب، يفتح كلّ باب ألف باب**»(٢)، وآيات سورة الكهف تثبت بأنّ الإنسان الذي يمتلك العلم اللدني يستطيع أن يغطّي كلّ المتغيّرات حتّى ولو لم يكن نبيّاً، فهو باعتباره يمتلك العلم اللدني من عند الله فهو لا يخطئ، وهو يستطيع أن يربط بين هذه الحلقة في هذا الزمن بحلقات أُخرى في أزمنة قادمة، وهذا عمل جبار، فلا يستطيع أحدنا أن يخطط لعمل اجتماعي لخمسين سنة قادمة مع معرفة كلّ العوائق والسلبيات التي ستعترضه في هذا المجال، فجميع التخطيط البشري يتبيّن فشله أو فشل أجزاء منه بنسب مختلفة بسبب قصور الفكر البشري عن استيعاب كلّ الجوانب، فبعد إتمام المشروع تتبيّن النواقص التي فيه.

والإمام هو صاحب العلم اللدني، وهذا العلم يؤهّله أن يخبر عن الله، ولكن ليس بمعنى أن يكون نبيّاً أو يكون صاحب شريعة جديدة، وهذا تماماً ما حدث للخضر الذي حاور موسى بنفس الأُسس الشرعيّة في شريعته هو، فسورة الكهف تخبرنا عن مقام إلهي تحتاج إليه البشريّة، وهذا المقام يطّلع على إرادة الله كما ورد في الآية: ﴿**وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ**

---

(١) ورد الحديث: قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «**أنا أُقاتل على التنزيل، وعليّ يقاتل على التأويل**» ـ بحار الأنوار: ٣١١/٢٩، باب علّة قعوده عليه السلام عن قتال من تأمّر عليه من الأوّلين، الحديث ٤٥، الطبعة الأُولى /١٤٢١ هـ. ق ـ ١٣٧٩هـ. ش، دار الفقه للطباعة والنشر ـ قم المقدّسة.

(٢) بحار الأنوار: ٢٩/٢٦، أبواب علومهم عليهم السلام، باب ١ ـ جهات علومهم عليهم السلام، الحديث ٣٦، الناشر: دار الوفاء ـ بيروت، الطبعة الثانية /١٤٠٣ هـ ـ ١٩٨٣م.

﴿أَمْرِي ذٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾[١].

ولو تأمّلنا في الآية لوجدنا أنّ الخضر مطّلع على إرادة الله من خلال قوله: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾، وهذا القول لا يعني أنّ الخضر قد أتى بشريعة جديدة من عند الله، وإنّما هو تطبيق للشريعة بأُسسها العامّة التي تغطّي كلّ المتغيّرات. وكذلك الأئمّة عليهم السلام فإنّ عندهم ذلك المقام والاطّلاع على الإرادة الإلهيّة، وليست برسالة جديدة بل هي من نفس صميم رسالة جدّهم المصطفى صلى الله عليه وآله.

إذن فنحن نتّفق مع مدرسة السكولارزم بأنّ المتغيّرات كثيرة وكبيرة، ولكن الأُسس الدينيّة قادرة على التغطية والاستيعاب لكلّ هذه المتغيّرات، كما أنّ الأُسس العامّة للرياضيات تغطّي جميع المجهولات الرياضيّة.

لا يمكن الاكتفاء بظاهر اللفظ القرآني

الذي يدّعي أنّ الشريعة مقتصرة على ظواهر القرآن يجني عليها، والقرآن أخبر: أنّه تبيان لكلّ شيء، وأخبر: أنّ الراسخين في العلم يعلمون تأويل القرآن، والآيات المحكمات والمتشابهات هي في القرآن المنزل وفي ظواهر القرآن، أمّا الكتاب المبين في لوحٍ محفوظ، في كتاب مكنون، في عوالم الغيب، ذاك الموجود الذي فيه كلّ شيء، وهو تبيان لكلّ شيء، أمّا ظواهر القرآن فهي ليست تبياناً لكلّ شيء في التشريع، فضلاً عن العلوم الأُخرى، وإلّا فكيف نجمع بين وجود المحكمات والمتشابهات، وبين قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[٢]، وهذه الآية تقول: إنّ هذه الآيات البيّنات في صدور الذين أُوتوا العلم، وعليه فمقتضى الجمع بين الآيتين هو أنّ هنالك محكم ومتشابه فيما هو عند

---

(١) سورة الكهف: الآية ٨٢.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤٩.

الناس ، ولكن عند أُولي العلم كلّه محكم وبيّن ، وليس فيه متشابه ، ولذلك فإنّ الآية المباركة لم تقل إنّه في المصحف ، بل في صدور الذين أُوتوا العلم .

وهذا التبيان لا يوجد في غيره من الكتب الأُخرى ، كالرياضيّات ، فهل يمكن أن يوجد كتاب في الرياضيات يحتوي على حلّ جميع المجهولات الرياضيّة ؟ طبعاً لا يوجد .

أهل البيت عليهم السلام والعلم اللدني

إذا كان القرآن يحدّثنا عن وجود التأويل عند الذين أُوتوا العلم اللدني في زمن موسى عليه السلام فهل هذا الموقع شاغر في أُمّة محمّد صلى الله عليه وآله ، أم أنّ هناك من يشغله في هذه الأُمّة .

فإذا كانت شريعة محمّد صلى الله عليه وآله سيّدة الشرائع ، وهي الشريعة الخالدة فلا بدّ من وجود هذا الموقع ، وينبغي الإشارة إلى أنّ المسلمين مجمعون على بقاء الخضر حيّ إلى قيام الساعة ، وهذا يؤيّده قول الإمام أبي الحسن عليّ بن موسى الرضا عليه السلام ، قال : **«وسيؤنس الله به وحشة قائمنا في غيبته ، ويصل به وحدته»**[1] .

والله تعالى أخبر : أنّ في هذه الأُمّة راسخين في العلم يعلمون التأويل ، والكتاب كلّه بيّن عندهم ، كما في قوله تعالى : ﴿**بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ**﴾ ، وعلى هذا فالآيات عندهم كلّها بيّنة ، وليس بعضها محكم والآخر متشابه ، وهي في صدور أُولئك الذين أُوتوا العلم .

وممّا تقدّم يتّضح أنّ مدرسة السكولارزم تثبت ـ من حيث لا تشعر ـ بضرورة وجود من يحيط بالمتغيّرات في الشريعة ، وهذا موافق لما تذهب إليه المدرسة

---

(١) راجع كمال الدين وتمام النعمة : ٣٦٢/٢ ، الحديث ٤ ، ما روى من حديث الخضر عليه السلام . بحار الأنوار : ١٥٢/٥٢ ، ٢٣ ـ باب من ادّعى الرؤية في الغيبة الكبرى ، الحديث ٣ .

الإماميّة التي تعتقد بوجود الأئمة بعد رسول الله ﷺ ، وتعطيهم منصب الإحاطة بالشريعة ، فالمتغيّرات إذن توجد حلولها في هذه الشريعة ، وأمّا في عصر الغيبة فتعتقد بوجود صاحب الزمان عجّل الله فرجه ، وتعتقد باستحقاقه لهذا المقام ، وبتصدّيه للأُمور بنحو فاعل متحرّك نشط ولكن خفيّ سرّي.

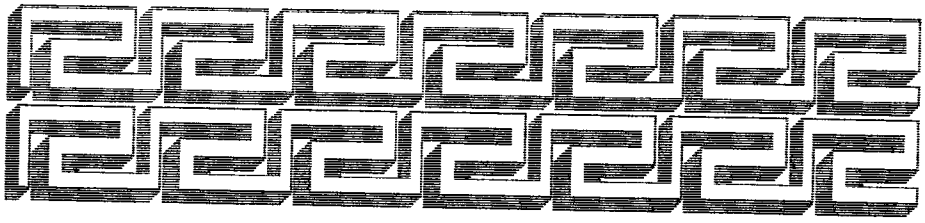

المحاضرة السابعة

مناقشة مدرسة الهرمونطيقا

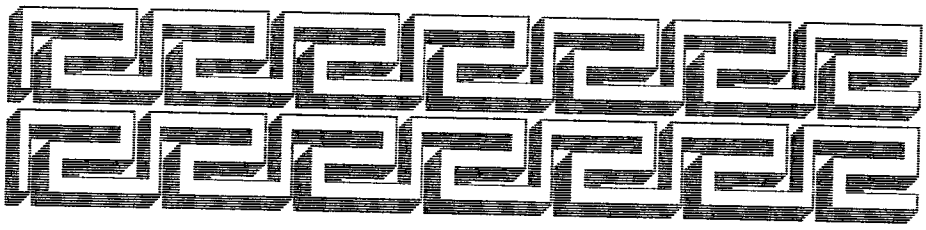

بسم الله الرحمن الرحيم

تمّ بشكل إجمالي مناقشة المدرستين السكولارزم والبلورواليسم ، واستعراض بعض أفكارهما ، خصوصاً المدرسة الثانية ؛ لأنّها تعتبر المدرسة الأشهر ، وذكرنا الردّ عليها بصورة سريعة .

وقلنا أيضاً : إنّ هذه المدارس تصبّ في خدمة الدين لأنّها تثبت وصاية السماء للبشريّة ، وتؤكّد إمكانيّة وجود شخص مؤهّل للاطّلاع على الأُصول والأُسس السماويّة ، وقبل الخوض في المدرسة الثالثة ، وهي المدرسة الهرمونطيقا ، وحيث إنّني قد عرضت بعض الإشكالات التي طرحها أصحاب المدرسة الثانية ، فمن اللازم أن أردّ عليها .

الإشكال الأوّل :

تأخّر القضاء الإسلامي واعتماده على البيّنة واليمين

الردّ : هو أنّ القضاء الإسلامي لا يعتمد على البيّنة واليمين كحلّ منحصر ، إنّما يعتمد عليهما إذا لم يكن هناك طريق لعلم القاضي ، أمّا إذا أمكن للقاضي العلم بالقضيّة عن طريق البراهين والأدلّة الوجدانيّة والتحقيق القضائي فإنّه يحكم به ، فإذا لم يحصل أي من هذه الأدلّة والبراهين فحينئذٍ يعتمد القاضي على الشهود واليمين ، وهذا

لا يقتصر على القضاء الإسلامي ، بل هو العرف القانوني عند غير المسلمين أيضاً ، فإذا انسدّت الأبواب في التحقيقات القانونيّة والقضائيّة تصل النوبة حينئذٍ للحلف ، وكلّ بلد يحلف بالرمز المقدّس الذي يعتقد به ، سواءً كان هذا الرمز دينياً عند من يؤمنون بالدين ، أو رمزاً وطنياً مقدّساً عند من لا يؤمنون بالدين ، ولو راجعنا قضاء أمير المؤمنين عليّ عليه السلام الباهر للعقول لوجدناه يبحث ويحقّق عن أسباب النزاع والأدلّة والبراهين القضائيّة التي توصله إلى الحقيقة ، بل إنّ أكثر أعاجيب قضاء أمير المؤمنين كان بهذه الطريقة وليس بالاعتماد على اليمين والشهود ، والذين أثاروا هذا الإشكال لم يطّلعوا على القضاء الإسلامي في مدرسة أهل البيت عليهم السلام بصورة جيّدة .

الإشكال الثاني :

القبيلة والعصبة ودور الإسلام في المحافظة عليها

نلاحظ أنّ الدين الإسلامي يدعو للمحافظة على الأُسرة وعلى وشائج القرابة ، بل هو يحافظ على لحمة السبب بالإضافة إلى لحمة النسب ، فما نلاحظه من أنّ بعض الأشخاص عندما يخرج من بيئته المحافظة إلى بيئة أُخرى بعيدة عن الرقابة الاجتماعيّة ينحرف سلوكه عمّا كان عليه عندما كان يعيش في بيئته ، ولذلك فمن المفيد الحفاظ على الأعراف التي لا تتعارض مع الدين ، لأنّها تكون كالمانع والحصن الذي يحمي الناس ، وخصوصاً الشباب ، من دواعي وأسباب الانحراف ، ولهذا لم يقطع النبيّ صلى الله عليه وآله أوصال شبكة القبائل الموجودة في ذلك الزمان مع أنّ الإسلام قد عانى من هذه القبائل ووجّهت له ضربات قاسية ، كما حدث ذلك في معركة الأحزاب حينما تحزّبت القبائل لمواجهة النبيّ صلى الله عليه وآله ودين الإسلام ، وكذلك تحزّبت لإقصاء الوصيّ بعد النبيّ صلى الله عليه وآله ومع ذلك حافظ النبيّ صلى الله عليه وآله على بناء القبيلة لما فيه من إيجابيات ، منها : أنّها نوع من النظام الاجتماعي الذي يحفظ الإنسان ـ من خلال الانتماء إليه ـ عن حالة الانفلات والخروج عن الرقابة الاجتماعيّة .

المدرسة الهرمونطيقا (قراءة النصّ)

هذه المدرسة التي تحمل في طيّاتها فكرة التعدّدية كما تحمله البلوراليسم ، وهي التي تسمّى بمدرسة الألسنيات التي تهتم بقراءة النصّ ، فالنقد الأدبي أخذ يتوسّع بصورة كبيرة ، وعلوم اللغة آخذة في التوسّع في كلّ اللغات ، بشكل علوم متعدّدة ، فعلى سبيل المثال : كانت اللغة العربيّة مقتصرة على علم المفردات اللغويّة وعلم النحو والصرف ثمّ البلاغة ، وممّا لا يخفى على الجميع فإنّ المؤسّس الحقيقي لعلم النحو هو أمير المؤمنين عليّ عليه السلام كما ذكره السيّد حسن الصدر في كتابه الشريف (تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام) ، أمّا الآن فعلوم اللغة قد توسّعت وأصبحت تضمّ في طيّاتها فقه اللغة والاشتقاق ، وهو علم غير علم الصرف والنحو والنقد وغيرها .

وكذلك علم البلاغة فهو ليس مقتصراً على اللغة العربيّة ، بل هو موجود في اللغات الأُخرى ، مثل اللغة الإنجليزيّة ، مع أنّ العربيّة تنتمي إلى أُسرة لغويّة تختلف عن الأُسرة اللغوية التي تنتمي إليها اللغة الإنجليزيّة ، وإن كانت المعاني في اللغات واحدة وإنّما الاختلاف في الألفاظ فقط ، فلفظة : (ماء) في العربية و (آب) في الفارسية و (واتر) في الإنجليزيّة جميعها تدلّ على حقيقة واحدة وهو هذا السائل المعروف ، أمّا كيفيّة التركيب والدلالة فهي مشتركة بين اللغات ، فالجملة الإسميّة يمكن أن تكون في كلّ لغة من اللغات ، وهكذا الجملة الفعليّة والفعل والفاعل .. ، وعليه فهذا البحث إنّما هو بحث بشري يعمّ جميع البشريّة ولا يختصّ بلغة أو بقوم .

نشأة النقد الأدبي

النقد الادبي لا يقتصر على لغة معيّنة ، بل هو يشمل كلّ اللغات ، وقد كان في بداياته يعتمد على تفسير المفردات وبعض التراكيب اللغويّة ، ثمّ أخذ بدراسة النصّ دراسة شاملة تحلّل فيه كلّ حيثيات النصّ الأدبي ودراسة البيئات المحيطة بقائل النصّ ،

ومن هذا المنطلق استطاع النقد الأدبي أن يخدم العلوم الأُخرى بصورة واسعة ، واستطاع النقد الأدبي أن يكشف بعض جوانب اللاشعور عند الكاتب أو قائل النصّ ، وهذا التحليل الأدبي شبيهٌ بالتحقيقات الجنائيّة التي تحاول أن تستفيد بكلّ ما يحيط بالجريمة من أجواء ، كذلك فإنّ المحلّل الأدبي يحاول أن يستفيد من كلّ ما يحيط بالنصّ من أجواء.

التعمّق في النصّ الأدبي يوازي التأويل في النصّ الديني

هذا النقد الأدبي الذي يعتمد على أُسس وأدلّة في الاستنتاجات يوازي تأويل النصّ الديني ، ونرى أنّ الجميع يحترم النقد الأدبي حتّى أُولئك الذين يتّهمون التشيّع بالباطنيّة والغنوصيّة والخرافات والأساطير نجدهم يحترمون هذا النقد الأدبي العميق ، ونحن فتحنا باب التأويل الذي يعتمد على الموازين الصحيحة لا التأويل القائم على التخرّصات والأهواء الملتوية.

تطوّر علم الفقه

إنّنا نلاحظ أنّ الفقه بدأ بصورة بدائيّة بسيطة ، ثمّ ظهرت محاولات في تبويب الفقه ، وبعدها استخرج العلماء القواعد الشرعيّة ، ثمّ أبواب التضارب أو التعارض وعلاجها في النصّ الديني ، وتوسّعت الأبواب الفقهيّة والتحليلات الإستدلاليّة ، فلم يعد الأمر مقتصراً على الفقه بل تعدّاه إلى أُصول الفقه والقواعد الفقهيّة ، فكلّ هذه الأُمور تبحث في قراءة النصّ الديني ، فكم هو الفارق بين الفقه في عصوره الأُولى وما عليه الفقه في زماننا هذا ، فلو قارنّا بين كتاب فقهي من القرن الرابع وكتاب فقهي لأحد الأعلام المعاصرين نجد أنّ البون واسع حتّى إنّ نمط الاستدلال بين العلماء المعاصرين وبين العلماء المتقدّمين يوجد فيه اختلاف كبير ، فسير الفتاوى وأراء الفقهاء في تحليل القوانين كان بنمط والآن بنمط آخر ، ولهذا نرى أنّ الشهيد الأوّل والشيخ جعفر

الكاشف الغطاء وغيرهم كانوا يحاولون قراءة النصّ الديني والاستفادة ممّا وراءه بعد الاستفادة من النصّ نفسه ، وما ذكرناه في الفقه أيضاً ينطبق على العقائد والمعارف ، ولا زالت جهود الاجتهاد متواصلة للتطوّر والتجديد ، ولكن تبقى هناك قواعد وأُصول لهذا الاجتهاد لا يمكن إغفالها أو تجاوزها.

تعدّد القراءات بين القبول والرفض

المدرسة الهرمونطيقا التي تذهب إلى القول بتعدّد القراءات ، تحكم بعدم صحّة إلغاء أيِّ قراءة من القراءات التي تفهم النصّ بصورة معيّنة وهي تدعو إلى فتح الباب على مصراعيه أمام الاجتهاد في فهم النصّ ، ونحن نقبل بعض ما تطرحه هذه المدرسة كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

ولكن قبول هذا التعدّد لا يفرض علينا المذهب السفسطي وأن نشكّك بما قد توصّلنا إليه من حقائق على أُسس علميّة وعقليّة ، ولا يغلق الباب باب الاحتكام إلى الموازين الثابتة بين قراءتنا وقبول القراءات الأُخرى ، وهذا ما أثرناه مع مدرسة البلوراليسم ، وما قلناه ـ من أنّنا نبحث عن الحقّ المتوزّع عند هذا الطرف أو ذاك ـ في تلك المدرسة نقوله هنا أيضاً في الردّ عليها ، بحيث إنّنا نريد أن نجمع الحقيقة ونحصل عليها كاملة ، وهي في عقيدتنا توجد كاملة عند المعصوم الذي يستطيع قراءة النصوص الدينيّة بشكل صحيح ، وهو الذي يمتلك الحقيقة وإلّا لما وضعه الله في هذا المنصب ، حتّى الفقيه والمرجع مهما وصل إلى درجة عالية فإنّه يبقى دون المعصوم بمسافات شاسعة غير متناهية في عقيدتنا ؛ لأنّ المعصوم له قنواته الخاصة التي لا يمتلكها غيره ، ولذلك فإنّ من يعتقد أنّ الشيعة عندما فتحوا باب الاجتهاد فهم تنازلوا عن شرط العصمة والإمامة فهو مخطئ ، والصحيح أنّ دور الفقيه يأتي بعد وجود المعصوم ؛ لأنّ دوره ضروري ، وقد نصّ عليه القرآن الكريم بقوله: ﴿ **فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ**

﴿يَحْذَرُونَ﴾[١]. وهو ـ بعبارة أُخرى ـ مجال التخصّص البشري.

فالفقيه ينهل من الأُسس التي وضعها النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام لأنّهم حلقة الوصل بين الأُسس والأُصول التشريعيّة وبين البشر، ولذا فهم الذين عبّر الله عنهم بأنّهم ﴿أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[٢]، وهذا التعبير لا يشير إلى طلب العلم العادي عند العلماء، وإنّما يشير إلى العلم اللدني الذي عند أهل البيت عليهم السلام.

وأمّا قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾[٣]، فهو يبيّن الترتيب الإلهي للذين يتصدّون لإقامة التوراة من الشريعة الموسويّة في النّاس، وهذا ما يوافق الترتيب عند الإماميّة؛ لأنّ الترتّب عند الإماميّة يكون هكذا: الأنبياء، ثمّ الأوصياء، ثمّ العلماء، وهذا ما أشارت إليه هذه الآية من سورة المائدة، فالنبيّون هم الأنبياء، والربّانيّون هم الأوصياء، والأحبار هم العلماء.

وممّا تقدّم يتّضح لنا أنّه كما أنّ جميع المجهولات الرياضية يمكن حلّها بالأُسس الرياضيّة الصحيحة، وعدم حلّ بعض المسائل من قِبل بعض الأشخاص لا يعني عدم وجود الحلّ في الأُسس، فكذلك الكلام ينطبق على تغطية الشريعة لكلّ المتغيّرات من قِبل الإمام المعصوم عليه السلام، ولذلك عندما يظهر صاحب الزمان وهو الذي يمتلك علم تأويل الكتاب وفهم الشريعة بصورة مطلقة، وهو الذي لديه كنوز العلوم يكشف عن أسرار الشريعة، ويغطّي جميع المتغيّرات.

وأمّا قوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤٩.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٤.

﴿الْإِسْلَامَ دِيناً﴾[١]، فالقرآن الكريم يثبت أنّ الدين قد كمل وتمّت النعمة ورضي الربّ به، من خلال إعلان السماء موقفها من خليفة النبيّ ﷺ، ليكون قادراً على فهم النصّ الديني بأعمق معانيه، ويستخرج منه الحلول لكلّ القضايا، ونحن نعتقد أنّ الإمام عليه السلام قادر على ذلك، وأنّ ما تذهب إليه مدرسة أهل البيت عليهم السلام ليس من الخرافة كما يتّهمنا البعض، بل هو الحقيقة بعينها، ولهذا فإنّ الإمام عليه السلام هو الذي يستطيع أن يسدّ كلّ الثغرات العلميّة والعمليّة التي لا زالت كثيرة رغم الجهود الجبارة التي يبذلها العلماء، والمدارس التي ذكرناها كلّها تشير بصورة أو بأُخرى إلى ضرورة العلم الجمعي والإحاطة بالحقيقة، وهذا هو هدف البشريّة والتي ستصل إليه بواسطة الإمام المهدي (عج).

سورة الفاتحة وبيان صرط الحقّ

لو رجعنا إلى سورة الفاتحة التي نقرأها صباحاً ومساءً يقول تعالى: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[٢] نجد أنّ الله قد أنعم على بعض الناس بنعمة خاصّة جعلهم صراطاً مستقيماً لغيرهم، حيث افترض على العباد مودّتهم، وجعله ركناً في الرسالة، وخصّهم بولاية الفيء والخمس، واصطفاهم مع حبيبه المصطفى بالطهارة اللدنية من عنده، واحتجّ بهم على العالمين في آية المباهلة، فهؤلاء هم أهل البيت الذين طهّرهم دون غيرهم، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾[٣]، وهم الذين جُعلت مودّتهم أجراً للرسالة ﴿قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ

---

(١) سورة المائدة: الآية ٣.

(٢) سورة الفاتحة: الآيتان ٦ و ٧.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

﴿فِي الْقُرْبَىٰ﴾[١]، وهل هناك عائلة أو أُسرة أو آل أعطاها الله مثلما أعطى آل محمّد صلى الله عليه وآله من الفضل والشرف، وهذا ليس توارث قيصري أو كسروي، وإنما هو توارث اصطفائي ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾[٢]، فهذه الذرّية مؤهّلة لأن ترتبط بالله، وهذه الذرّية واصطفاءها قد ذكرها القرآن فلم يستنكر علينا الجاحدون لهذه الآيات من أن نؤمن بأنّ الله اصطفى آل محمّد صلى الله عليه وآله.

إذن إنّ الذين أنعم الله عليهم دون غيرهم هم أهل البيت عليهم السلام، وهم الذين ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، فهذا الوصف ينطبق على أهل البيت عليهم السلام فهم الذين عُصموا من غضب الله، بينما نجد بعض الصحابة الكبار من البدريّين الذين كانوا مع الرسول صلى الله عليه وآله في بدر قد نزل فيهم قول الله تعالى: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٣].

فلولا أنّ الله قد أخذ على نفسه أن لا يعذّب المسلمين ورسول الله فيهم لعذّبهم ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾[٤]، فإذا كان هذا حال البدريّين فما حال سائر المسلمين، والذين كانوا مع رسول الله في معركة أُحد نرى أنّ الله قد لامهم وغضب عليهم في سورة آل عمران، ثمّ عفا عنهم لوجود الرسول صلى الله عليه وآله بينهم، أمّا أهل البيت عليهم السلام فلم يغضبوا الله تعالى بقول أو فعل، ولم يغضب عليهم، وهذه هي العصمة العمليّة، وهذا ما تثبته سورة الفاتحة بضميمة آية التطهير وآية المباهلة، وغيرها من الآيات لأهل البيت عليهم السلام وليس كما يجحدون

---

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.

(٢) سورة آل عمران: الآيتان ٣٣ و ٣٤.

(٣) سورة الأنفال: الآية ٨٦.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٣٣.

ذلك ويفترون بأنّ حقائق هذه الآيات أتى بها عبدالله بن سبأ ، وأمّا ﴿ **وَلَا الضَّآلِّينَ** ﴾ فلا يمكن لنا أن نجعل الضالّين قدوة نهتدي بهم؛ لأنّه كيف نهتدي بأُناسٍ قد يضلّون عن الحقّ ويخرجون من الإيمان إلى الفسق ، ولو في بعض الأُمور ، وهؤلاء هم الذين لا تنطبق عليهم العصمة ، وأمّا المعصومون فهم المنزّهون عن الخطأ وينطبق عليهم ﴿ **غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّآلِّينَ** ﴾ ، فاللازم في التعليم والهديّ القرآني لسورة الفاتحة هو الاقتداء والائتمام بالمطهّرين من أهل البيت الذين يمسّون الكتاب المكنون كما في سورة الواقعة .

ويبقى هنالك شيء لا بدّ من الإشارة إليه ، وهو أنّ مسألة معايشة القرآن لا بدّ أن لا تكون مقتصرة على الألفاظ ، فكم من مدرسة أو مؤسّسة لحفظ القرآن ولكن تعلّق عملها على حفظ الألفاظ دون التعمّق في المعاني ، فلا بدّ أن يخالط القارئ الألفاظ والمعاني ، وأنّ يعيش حالة الحبّ مع القرآن الكريم ، كما حصل في ليلة العاشر من المحرّم عندما طلب الإمام الحسين عليه السلام من أعدائه تأجيل القتال إلى صبيحة يوم العاشر ، وقال عليه السلام : « **إنّي أُحبّ القرآن وتلاوته** » ، ولذا قيل إنّ في ليلة العاشر سمع من معسكر الحسين عليه السلام دويٌّ كدويّ النحل من كثرة القراءة .

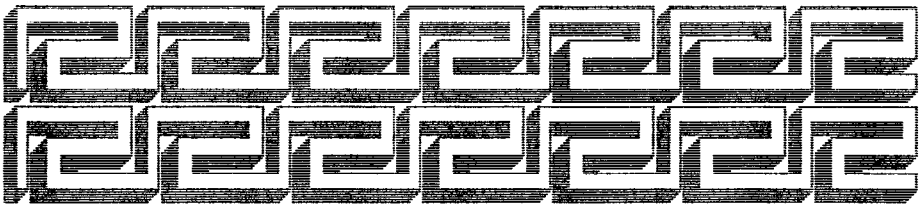

المحاضرة الثامنة

المنهج الحضاري عند أهل البيت

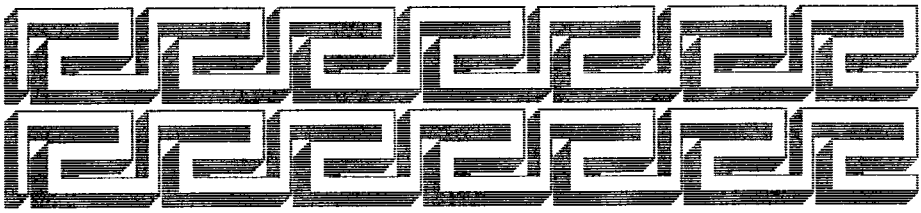

بسم الله الرحمن الرحيم

مقامات أهل البيت عليهم السلام

من الاشكالات التي يطرحها بعض المخالفين ، أنّه ما هي الآيات القرآنيّة التي تدلّ على مقامات أهل البيت عليهم السلام ، والمخصوصين بها من الله دون غيرهم ؟

فنقول : بالإضافة إلى الآيات التي تدلّ على الولاية ، كما في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ** ﴾[1] ، والتي تدلّ على العصمة ، كما في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** ﴾[2] ، فإنّ هناك آيات تدلّ على المقامات العالية لأهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله ، والمراتب السامية التي خصَّ الله تعالى بها أولئك الأولياء ، والتي بيّنتها زيارة عاشوراء في مقطع من مقاطعها ، حيث تقول : « **وَلَعَنَ اللهُ أُمَّةً دَفَعَتْكُمْ عَنْ مَقامِكُمْ وَأَزالَتْكُمْ عَنْ مَراتِبِكُمُ الَّتي رَتَّبَكُمُ اللهُ فيها** »[3] ، والظاهر أنّه

---

(١) سورة المائدة : الآية ٥٥ .

(٢) سورة الأحزاب : الآية ٣٣.

(٣) كامل الزيارات : ٩٢ ، الباب ٧١. بحار الأنوار : ٩١/٩٨ ، باب كيفيّة زيارته (صلوات الله عليه) يوم عاشوراء ، الحديث ١ .

لم يكن المقصود منها مقام الولاية والعصمة؛ لأنّ هذه المقامات لا يمكن للأمّة دفع أهل البيت عليهم السلام عنها بصريح قول النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله: «**ابناي هذان إمامان قاما أو قعدا**»[1]، فقعودهم أو قيامهم لا يؤثّر في مقام الإمامة والعصمة.

إذاً ما هي المقامات التي ذكرت في زيارة عاشوراء، والتي دُفع أهل البيت عليهم السلام عنها؟ ولغرض بيانها فلابدّ من الخوض في تلك الآيات الكريمة لتوضيح الأمر.

فقد قال تعالى في سورة الحشر: ﴿**مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِن أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ**﴾[2].

فإنّ أفاء ـ لغة ـ بمعنى رجع.

والفيء مصطلح فقهي أُريد به الثروات والموارد الطبيعيّة الموجودة في الأرض، وقد أوكل الله تعالى تدبيرها إلى رسوله الأكرم صلى الله عليه وآله وذوي القربى، فما كان تحت أيدي الكفّار فهو في حقيقته داخل في ضمن تدبيرهم عليهم السلام، ولذلك عبّرت الآية الكريمة عمّا أُخذ من أولئك بالفيء ولم تعدّه غنيمة، وهو يدلّ على أنّ تدبير الأرض برمّتها في أيديهم عليهم السلام، وهم أرباب الأرض، ولا نعني بذلك أنّهم المالكون لها ـ خلقة وألوهيّة ـ حقيقة، بل ملكها لله تعالى، وإنّما هم المالكون لتدبير شؤون أُمورها.

أضف إلى ذلك فإنّ الآية قد ألحقت العناوين الثلاثة الأُولى بـ(اللام)، فقالت: ﴿**فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ**﴾، بينما خلت الثلاثة الأُخرى منها، فقالت: ﴿**وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ**﴾، فاللام هنا تفيد الملكيّة، وهو دليل آخر على صحّة المدّعى، وهو أنّ ملكيّة التصرّف هي من الله تعالى لنبيّه وذوي القربى،

---

(١) الإرشاد: ٣٠/٢. المناقب: ١٤١/٣، إمامة السبطين. بحار الأنوار: ٣٠٧/١٦، الباب ١١.

(٢) سورة الحشر: الآية ٧.

والغرض من ذلك هو إقامة العدل الإلهي في الأرض ، كما صرّح بهذا التعليل في ذيل الآية المباركة لتؤكّد ذلك : ﴿ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ﴾ ، أي متداولاً بين طبقة الأغنياء ، وحرمان الطبقات الأُخرى في المجتمع ، سواء كان الإسلامي منه أم البشري ، وهو ما تطالعنا به بعض التقارير من بعض الدول ، كألمانيا ، حيث إنّ جميع الموارد الماليّة محصورة بين طبقة صغيرة تقدّر بنسبة ٤٪ من مجموع السكّان ـ أي بيدهم ما يقرب من ٩٠٪ من الثروات ـ ويبقى ٩٦٪ منهم من الطبقة الوسطى أو المسحوقة ، وكذلك نجد في أمريكا أنّ نسبة ٩٠٪ تقريباً أيضاً من الثروات محصورة في ٤٪ من سكّانها ، فأراد الله تعالى وبعلمه الأزلي أن تسود العدالة بين أبناء البشر من خلال إدارة هذه الثروات من قِبل أهل البيت عليهم السلام ، فمعهم تتحقّق مقوّمات العدالة الإلهيّة في المجتمعات .

وهذه الإدارة والتدبير من قِبل أهل البيت عليهم السلام هي المسمّاة بولاية التصرّف ، وهي من المقامات التي تستطيع الأُمّة بجهلها أن تدفع أهل البيت عليهم السلام عنها .

الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام

استبشرت الأُمّة بمجيء الإسلام ـ ليرفع عنها كاهل الظلم وعبء القوانين الظالمة التي كانت سائدة قبل ذلك ، فقانون الغاب هو المعمول به بين أفراد المجتمع ، فالقويّ يأكل الضعيف ، والحرمات تنتهك ، وتقتل النفس التي حرّم الله قتلها إلّا بالحقّ ـ ليضيء حياة أبنائها بنور الرحمة الإلهيّة ، المتمثّلة بالنبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾[1] ، وبالتشريعات السماويّة ﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَبِّكُمْ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[2] ، لتُبنى أُسس العدالة الإلهيّة في هذا المجتمع ، ويتساوى

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ١٠٧ .

(٢) سورة الأعراف : الآية ٢٠٣ .

أفراده إلّا ما أُخذ قيداً في التشريف والتكريم ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾[١]، ليصبح الناس سواسية في الحقوق والواجبات بين يدي النبيّ الأكرم ﷺ، ويُمنح العطاء بلا مفاضلة بين الجميع، وتقسيم الغنائم بالتسوية ـ وهذا العدل لم يكن مألوفاً في المجتمعات الجاهليّة السابقة، فللشريف عطاء غير ما يعطى للآخرين ـ واستمرّ العدل في الرعيّة مع وجود الرسول ﷺ، ولكن ما أن أغمض عينيه حتّى استأثر جماعة بالسلطة فلتة لم يوق المسلمين شرّها والذي غيّر مسيرة الأُمّة ـ والذي صرّح به الثاني بقوله: «**ما هو إلّا أن رأيت أسلم فأيقنت بالنصر**»[٢] ـ وبدأت عمليّة إرجاع الأُمّة إلى جاهليّتها، فأخذت الأوصاف والقوميّات عناوين في تفريق العطاء، وازدادت المفاضلة هوّة في زمن الثاني، ففرّق في العطاء بين القرشي وغيره، والمهاجر وغيره.

وازداد الفتق اتّساعاً عندما تأمر عثمان على الناس، فقرّب من أبعده النبيّ ﷺ ونفاه، واستأثر بالسلطة من كان من الطلقاء وأبناء الطلقاء، والذين وقفوا في الصفّ الأوّل لمحاربة سيّد البشر ﷺ، ليحصلوا على الغنى والثراء، فملكوا الصفراء والبيضاء، والعقار والبساتين، فلا يجاريهم أحد من المسلمين في غناهم، وأخذت الناس تتذمّر من هذا التصرّف الجاهلي حتّى وصل إلى حالة الانفجار، وتعالت صيحات الثوّار من العراق ومصر وغيرهما من البلدان الإسلاميّة ـ كالعبديّين من عبدقيس من هجر والبحرين ـ للانقضاض على مركز السلطة والانحراف.

وبدأت الأيادي تشير إلى منبع الحقّ والعدالة، لتتشرّف الخلافة بأمير المؤمنين عليه السلام، ويبدأ بمشروعه الإصلاحي لإعادة القوانين الإسلاميّة إلى نصابها، وسراية الأحكام في المجتمع، وتطبيقها على نحو يضمن حقوق الجميع، وينصب ميزان العدل

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

(٢) تاريخ الطبري: ٨٥/٣، ذكر الخبر عمّا جرى بين المهاجرين والأنصار في أمر الإمارة في سقيفة بني ساعدة.

الإلهي مرّة أُخرى على يدي أخ الرسول ونفسه ، ولكن أبت النفوس المريضة أن ترى في الدنيا وجه العدالة الحقيقي؛ لأنّها انغمست بوحل الانحراف الجاهلي ، فتحرّكت في جماعات لمعارضة منهج الحقّ والاستقامة ، لتضمن بقاء نفوذها وتمييز مقاماتها ، فأجمعوا الجموع وأعدّوا العدد ، لتقويض سلطة الإمام عليه السلام ، ودارت الحروب التي راح ضحيّتها أُولئك البسطاء المغرورين الذين استمالهم الباطل وتركوا الحقّ .

وبقي هذا الخط المنحرف إلى زمن الدولة العبّاسيّة ، ومن قبلها في الدولة الأمويّة ، ليصبح عنواناً للتزلّف والتقرّب للحاكم ، وامتلأت الجماهير احتقاناً على السلطة ، وبان الاختلاف بينهما ، إلّا أنّ قوّة السلاح والقهر والاضطهاد كمّمت أفواه الناس ، وكثرت التحديّات للدولة الإسلاميّة ، وشعر المسلمون بالخطر الذي يهدّدهم ، سواء من الخارج أو الداخل ، فاحتاجت الجماهير إلى المحرّك والمنتفض على الاستبداد السلطوي ، فكان هذا في حقيقته سرّ من أسرار النهضة الحسينيّة الإصلاحيّة ، والدافع للتغيير الشامل ، وقد بيّنه سيّد الشهداء عليه السلام بمقولته الخالدة : «**لم أخرج أشراً ولا بطراً ، ولا ظالماً ولا مفسداً ، وإنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي**»[1] .

فالإصلاح الحسيني احتاج إلى منهجيّة مختلفة ، وسلاح قادر على أن يضع حداً للتهوّر الأموي ، فكان الدم الحسيني الطاهر هو السلاح الذي أزاح الخوف عن الناس ، وقوّض سلطة الانحراف ، لتستبشر القواعد الجماهيريّة بالبركان الثائر ، الذي حدّد معالم الإشعاع الإصلاحي ، والنور الذي أضاء درب الثوّار ، ليتسامى المنهج الحسيني في العُلى ، ويضع موازين الحقّ بأُسس العدالة الإلهيّة ، وهو الذي سعى له أهل البيت عليهم السلام في إعادة الأُمّة إلى سابق عهدها ، واسترجاعها لكرامتها المسلوبة .

ولذا فإنّ اتّباع أهل البيت عليهم السلام هو الكفيل في شفاء جميع جراحات الأُمّة ، وارتقائها إلى مقامات الشموخ والقوة ، ولذلك صرّحت الآية الكريمة : ﴿ **كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ**

---

(١) بحار الأنوار : ٤٤ /٣٢٩ فيما رواه الشيخ المفيد رحمه الله في وقعة الطفّ .

﴿الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ ، وهو إشارة واضحة إلى أنّ جميع الأمور لا يمكن أن تستقيم ، ويتحقّق في تطبيقها العدالة ، إلّا برضى الناس بإدارة أهل البيت عليهم السلام لشؤونهم دون غيرهم ، فكان إخبار القرآن الكريم ـ أنّ إكمال الدين وإتمام النعمة ورضى الربّ الجليل بالإسلام ديناً ، يكمن في ولاية أهل البيت عليهم السلام من خلال قوله تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾[1] ـ بياناً واضحاً للتقديرات الإلهيّة في منهجيّة الإصلاح والعدالة التي يتّبعها أهل البيت عليهم السلام في جميع المجالات ، ليتحقّق معها الوعد الإلهي بيأس الكفّار من التلاعب في الدين ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾[2] ، وهذه في حقيقتها ملحمة قرآنيّة ، سلّطت الأضواء على أنّ العزّ والعدالة في المجتمع الإسلامي ، بل في البشريّة جمعاء ، لم ولن ولا يتحقّقان إلّا بتولّي أهل البيت عليهم السلام لإدارة الأمور .

فحاكميّة أهل البيت عليهم السلام وطاعتهم هو السبيل الوحيد للتكامل والرقيّ ، فكانت حقّاً كربلاء المصحّح لمسيرة الأمّة ، والباني لمجدها ، فهي العنوان الأوضح لمسيرة الإصلاح الإنساني .

العصمة العلميّة والعمليّة عند أهل البيت عليهم السلام

من المسائل التي نستلهمها من قوله تعالى : ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾ أنّ هناك مقام تتّضح فيه معالم العدالة التي يريدها الله تعالى للنّاس ، وهذا المقام هو وجود العصمة العلميّة والعمليّة التي أُنيطت بذوي القربى ؛ لأنّ العدالة في جميع مجالاتها لا تتحقّق إلّا إذا اتّصف القائمون على إدارة شؤون الناس بالعصمة العلميّة والعمليّة ، فالعادل مهما بلغ في درجاتها قد يقع في الخطأ ، أو الميل عن الحقّ ولو جهلاً ، مع عدم اتّصافه بالعصمة العلميّة ، وهذا ما تطالعنا به سورة يوسف عليه السلام في قوله

---

(١) و (٢) سورة المائدة : الآية ٣ .

تعالى: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[١]، فالحفظ ـ الذي هو دلالة على الأمانة في التصرّف والعدالة في التقسيم ـ هو العصمة العمليّة التي يحتاجها يوسف عليه السلام في هذا المجال، ومع ذلك فقد قرنها بالحاجة إلى الدراية العلميّة ـ أو قل إلى العصمة العلميّة ـ التي أشار إليها بقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾، فالحفظ لوحده غير كافٍ إذا لم يكن مستنداً إلى العلم، ولهذا جمعت العصمتان في قوله: ﴿حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾، وقد أُسندتا إلى أهل البيت عليهم السلام أيضاً من خلال إسناد الله جلّ وعلا كلّ مقدّرات إدارة الأرض إليهم عليهم السلام للتصرّف فيها، فإذا لم يكن قد اتّصفوا بالعصمتين ـ العلميّة والعمليّة ـ فمن الممكن أن يقع في تصرّفهم الخطأ والجور، وهو ما يكون بعلم الله تعالى ـ وحاشاهم من ذلك ـ لأنّ الله جلّ وعلا بوضعه هذا التصرّف في أيديهم، كان في علمه أنّهم يتمتّعون بأقصى درجات العدل وإقامة العدالة، والمتقوّمة بالعصمة العلميّة والعمليّة، لأنّهما ركنان لها، وحصنان مانعان من التخلّف عنها.

ولتمتّع أهل البيت عليهم السلام بالعصمتين كان حقيقاً وصف الإمام الحجّة المنتظر عليه السلام في خروجه، أنّه يملأ الأرض بالعدالة المنتظرة، كما في روايات أهل البيت عليهم السلام «**ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً**» التي وردت في كتب الفريقين[٢].

وبهذا يتّضح أنّ المناصب العليا في المجتمعات إذا أُسندت إلى ذوي القربى تحقّقت العدالة بجميع مجالاتها، وكان سبباً لكرامة الأمّة وقوّتها، وأمّا إسنادها إلى الظلمة فإنّه يحوّل حياة الناس إلى جحيم، وتضعف فيها قدرات المجتمع، وتصبح

---

(١) سورة يوسف: الآية ٥٥.

(٢) الأمالي / الصدوق: ٧٨، الحديث ٣/ ٤٥، المجلس السابع. التوحيد: ٧٩، باب التوحيد ونفي التشبيه، الحديث ٣٧. الوسائل: ١٦/ ٢٤١، الحديث ٢١٤٦١/ ٩. مسند أحمد: ٣/ ٢٧ (مسند أبي سعيد الخدري). سنن أبي داود: ٢/ ٣٠٩، الحديث ٤٢٨٢ و ٤٢٩٥، كتاب المهدي. مجمع الزوائد: ٧/ ٣١٣، باب ما جاء في المهدي.

محلاً للنكبات ، بسبب سوء سياسات الظلمة والمتجبّرين ، ويفقد الإسلام جاذبيّته ، وقدرته على حفظ التوازن بين الناس ، ورفدهم بالقيم العليا ـ التي تؤثّر إيجاباً على غيرهم ـ لتحقيق الوعد الإلهي الكبير ﴿ **لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾[١] .

فأهل البيت عليهم السلام عنوان ومصداق للجاذبية التي يتمتّع بها الإسلام ، لتتسابق الجموع في الاهتداء بنوره ، وتتشرّف به سربالاً لها ، لتبقى سورة النصر صادعة بنصرها ، ومدوّية بقولها : ﴿ **إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللهِ أَفْوَاجاً** ﴾[٢] ، لتعلن الفتح الإلهي المتمثّل بمنهج أهل الحقّ والعدل محمّد وآله الطاهرين ، ليكونوا لنا القادة والأدلّاء على سبل العبادة ، لترتسم كربلاء بعشق الولاء ، الواصل إلينا من أُفق السماء ، لتضع لنا معالم الإصلاح والعدالة بمنهجيّة صلاح الأُمّة بصلاح حكّامها .

مقوّمات المدنيّة والحضارة

قد يطرح بعضهم إشكالاً متصيّداً من بعض المواقف التي حصلت مع أهل البيت عليهم السلام ، ليحاول تحليلها على وفق طريقته وبعقليّته الضعيفة ، مستدلّاً بها على نفي منهجيّة أهل البيت عليهم السلام ، واستحالة الغرض الإصلاحي لهم ؛ لأنّهم كانوا طرفاً في الصراع الذي دار بين المسلمين ، وراح ضحيّته الآلاف من القتلى والجرحى ، وسبب الفوضى الاجتماعيّة ، والفساد الاقتصادي الذي هدرت فيه الأموال الطائلة ، أضف إلى ذلك أنّه لو كان غرض أهل البيت عليهم السلام إصلاح الأُمّة من خلال السيطرة على المراكز العليا فيها ، فلماذا رفض الإمام عليّ عليه السلام عرض عبدالرحمن بن عوف ـ في مسألة الشورى بعد

---

(١) سورة التوبة : الآية ٣٣ . سورة الصفّ : الآية ٩ .

(٢) سورة النصر : الآيتان ١ و ٢ .

وفاة الخليفة الثاني ـ باستلام السلطة بشرط اتّباع كتاب الله وسنّة النبيّ وسيرة الشيخين ، فكان الفارق بينه عليه السلام وبين القيادة كلمة واحدة ، إلّا أنّه رفض العرض بقوله: «**أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمي وطاقتي**»[1] ، وهذا أكبر دليل على عدم صحّة ما ادّعيتموه فيهم عليهم السلام .

الجواب: أنّ هذا الطرح في حقيقته مبنيّ على وفق معطيات المصالح السياسيّة والعقليّة السياسيّة ذات الحرص والطمع في القدرة ، وهذا من أكبر الأخطاء وأفدحها؛ لأنّ سيرة هؤلاء الأولياء لا يمكن تحليلها وفق القواعد المحاسبيّة الوقتيّة السياسيّة والحكومة السياسيّة ، بل انّ تحليلها إنّما يتمّ على طبق القواعد الحضاريّة والحكومة الحضاريّة والتمدّن ، وهنالك فرق كبير بين الحكومتين .

فالحكومة السياسيّة أُفقها ونظراتها مقيّدة بعمر الحاكم أو ذويه ، فكلّ ما يخطّطه الحاكم ويضعه في منهجه ـ من استلام السلطة وتسليمها إلى ذويه ، وإدارة الأُمور الماليّة ، وغير ذلك ـ فهو خاضع للعامل الزمني ، فمهما طال أو قصر فهو لا يتعدّى عمر جيل أو جيلين أو أكثر بقليل .

أمّا الحكومة الحضاريّة فهي تختلف بجميع أبعادها عن الحكومة السابقة ـ بل إنّ قياسها معها قياس مع الفارق ـ فهي لا تكتفي بأُطر العامل الزمني المقيّد ، بل تمتدّ نظرتها إلى عمر البشريّة ، لأنّها تحاول تجذير المنهج الإصلاحي الذي يواكب مسيرة البشريّة جمعاء ، وأن تجعله عرفاً سائداً في المجتمع ، بحيث يكون له القدرة المؤثّرة في صياغة القانون ـ المعبّر عنه بالمصطلح القانوني بالعرف أو الأعراف ـ لأنّ المسير العرفي لأي مجتمع مهما كان هو الذي يحدّد صياغة القانون ، ويؤثّر في موادّه وفقراته ، ولا شكّ أنّ أعراف المجتمع مستمدّة من حضارته ، ولهذا فهي التي تحكم

---

(١) تاريخ الطبري: ٦٠٦/٣. بحار الأنوار: ٤٠٢/٣١ ، الباب ٢٦ الشورى واحتجاج أمير المؤمنين . شرح نهج البلاغة /ابن أبي الحديد: ٣٦٧/١٢.

المجتمعات ، وإن لم تُقَرّ في دستور البلد ، فمثلاً: أنّ الأعراف في أمريكا وبريطانيا تنصّ على أنّ المناصب السياديّة من نصيب الجنس الأبيض ، وإن لم يُذكر ذلك في فقرات القانون ، إلّا أنّه عرف سارت عليه أجيالهم ، وهذا هو الجانب الأهمّ الذي تنظر إليه الحكومة الحضاريّة لتجذّر الأعراف الصحيحة في المجتمع ، لتكون هي المحرّك الحقيقي له ، وهو ما تبيّنه سورة الكهف ، التي ترسم معالم القانون الحضاري الذي يصنعه أولياء الله في كلّ خطواتهم ، لتسير بخطىً حثيثة مع المسيرة البشريّة ، وإن لم توافق تطلّعات الحاكم السياسي في ذلك الوقت؛ لأنّها سوف تصبح عرفاً تتحرّك الأجيال على وفقه ، وهذا بعينه ما فعله أمير المؤمنين عليه السلام في جميع مواقفه ، بل انّ جميع الأنبياء والأوصياء لا يمكن حصر ما قاموا به من أعمال وغيرها بالعامل الزمني ، وإحاطته بالحقبة الزمنيّة التي يعيشون فيها؛ لأنّ ما أرادوه كان ناظراً إلى عمر البشريّة جمعاء بكلّ أجيالها إلى يوم القيامة؛ لأنّ السماء هي التي رسمت تصوّرات الأنبياء والأوصياء ، ومعها لا يمكن رميهم بالتقصير أو الجهل ـ حاشاهم من ذلك ـ في أعمالهم وما يصدر عنهم ، وإن لم يوافق تطلّعات جيل أو جيلين .

إذاً فالحاكم المدني والحضاري هو الذي يرسم المنهج والطريقة التي تتواصل مع البشريّة ـ وإن كان هو الأمر الأصعب ـ لتقوّم المسيرة الإنسانيّة الصحيحة .

وبهذه المنهجيّة والطريقة تعامل الخضر عليه السلام مع ذلك الغلام الذي قتله؛ لأنّ إبقائه يعني قطع نسل سبعين نبيّاً[1] ، ولو أخذنا بعين الاعتبار ما هو الأثر السلبي الذي يمكن أن يحصل مع قطع نسل هؤلاء الأنبياء ، لما لهم من التأثير على البشريّة ، لتغيّر رفضنا ورفض موسى عليه السلام لقتل الغلام إلى الموافقة والقبول ، فالخضر عليه السلام تعامل على وفق العلم اللدني الذي زوّده الله تعالى به ، وهذا يقيناً داخل في ضمن مقامات الحكومة الحضاريّة . هذا كلّه من جانب .

---

(١) راجع الصفحة ٦٥ من هذا الكتاب .

ومن جانب آخر فانّ الحكومة السياسيّة بالإضافة إلى خضوعها للعامل الزمني ، فهي خاضعة أيضاً إلى نزوات الحاكم وشهواته ، وما يحقّقه من منافع له ولأفراد عائلته ، لتضمن لهم المستقبل والحياة السعيدة ، وهذه كلّها سياسات وقتيّة قابلة للزيادة والنقصان .

أمّا الحكومة الحضاريّة التي يقودها الأولياء والصالحون ، فلا يمكن لها أن تتعامل وفقاً لمقتضيات الغريزة والسمعة ، وإن تطلّب ذلك التضحية بالمواقع السياسيّة التي في أيديهم؛ لأنّ هدفهم لم يكن هو تلك المواقع ، بل الهدف هو إقامة الحكومة الحضاريّة ، التي تتّخذ من القيم والمبادئ السامية منهجاً يحكم البشريّة بجميع أجيالها ، وهذا الذي تبنّاه أمير المؤمنين عليه السلام والأئمّة المعصومين في كلّ أفعالهم ومواقفهم ، التي تنبأ بالمسيرة الإصلاحيّة والمنهج القويم ، المستوحى من قيم السماء ، لتكون المحرّك الحقيقي للشعوب في كلّ الأوقات .

إذاً فالحكومة الحقيقيّة للشعوب ـ ليست هي القائمة على دفّة الحكم وزعامة المؤسّسات ـ هي المؤسّسة للقيم والمبادئ العليا في المجتمع ، لتصبح دستوراً واقعيّاً تتعامل على طبقه الناس ، وإن مات أصحابه من زمن بعيد .

ولهذا يمكن القول إنّ الأنبياء جميعهم والأوصياء لو اجتمعوا في مكان واحد وزمان واحد لما اختلفوا؛ لأنّ هدفهم واحد ، وإن تعاقبوا في الأوقات والمجتمعات .

وبهذا يتّضح أنّ أعمال أهل البيت عليهم السلام ومواقفهم ، داخل ضمن مقوّمات الحكومة الحضاريّة والتمدّن .

الإمام الحسين عليه السلام والنداء الحضاري

تقدّم سابقاً أنّ منهج الأنبياء والأوصياء ، هو بناء الحكومة الحضاريّة القائمة على ترسيخ القيم والمبادئ في المجتمع ، لتصبح عرفاً سائداً تتفاعل معه الأجيال ، لتبقى

الحاكميّة الحقيقيّة في الأُمّة بيدي أصحاب المنهج ، وإن فارقوا الدنيا .

لنفهم من خلاله ما أراده الإمام الحسين عليه السلام في رسالته لمحمّد بن الحنفيّة ومن بقي معه من بني هاشم ، التي يقول فيها : « **أمّا بعد ، فإنّ من لحق بي استشهد ، ومن لم يلحق بي لم يدرك الفتح** »[١] ، فقد بيّنت هذه الكلمات القصيرة أمرين مهمّين :

أوّلهما : وهو النتيجة الأوّليّة لنهضته المباركة التي عبّر عنها بالشهادة .

وثانيهما : وهي النتيجة الواقعيّة التي تنتظر الأجيال القادمة والتي أشار إليها بالفتح .

إذاً ما هو الفتح الذي كان ينتظره الإمام الحسين عليه السلام من نهضته المباركة ، والذي استدعى التضحية بنفسه وعياله وأنصاره ؟ ففي الحقيقة أنّ الحسين عليه السلام كان ينظر إلى أنّ هناك منهجاً انحرافيّاً أُريد أن يتأصّل في المجتمع من قِبل بني أُميّة ، ليكون بديلاً عن منهج الأنبياء والأوصياء ؛ لأنّ السلطة الحاكمة أرادت أن يكون دين الناس هو ما يراه الحاكم ويقرّره ، ولذا يقال : « إنّ الناس على دين ملوكهم »[٢] ليصبح هو العرف السائد في المجتمع ـ فنجد أنّ الشامي يصاب بالذهول عندما يسمع أنّ عليّاً كان يصلّي أو أنّ هنالك مَن هو أقرب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله من بني أُميّة ـ فكلّ ذلك انتهى مع أوّل قطرة دم سقت أرض كربلاء ، لتعلن الثورة الحقيقيّة بوجه هذا المنهج ومن أسّسه ، لتبقى مقوّمات المنهج الحضاري هو العرف المتأصّل في المجتمع ، والذي تتفاعل معه الأجيال ، لتدوّي كلمات الإمام عليه السلام آفاق الدنيا ، وتحرّر الإنسان من عبوديّة الطاغوت بسبل الإصلاح الحسيني « **إنّما خرجت لطلب الإصلاح في أُمّة جدّي** »[٣] ، وهذا ما أكّده

---

(١) مختصر بصائر الدرجات : ٦ ، كتاب الحسين عليه السلام لبني هاشم . مناقب آل أبي طالب : ٢٣٠/٣ ، باب إمامة أبي عبدالله الحسين عليه السلام . بحار الأنوار : ٤٥ /٨٧ ، الحديث ٢٣ .

(٢) كشف الخفاء / العجلوني : ٣١١/٢ ، الحديث ٢٧٩٠ حرف النون . تذكرة الموضوعات / الفتني : ١٨٣ ، باب الإمام العادل والظالم .

(٣) راجع الصفحة ٩١ من هذا الكتاب .

سيّد الساجدين عليه السلام في ردّه على مقولة إبراهيم بن طلحة بن عبيدالله عندما قال له: يا عليّ بن الحسين، من غلب؟ وهو يغطّي رأسه، وهو في المحمل، فأجابه الإمام عليه السلام قائلاً: «إذا أردت أن تعلم مَن غلب ودخل وقت الصلاة فأذّن ثمّ أقم»[١]، فالإمام عليه السلام أراد أن يوضّح المقياس الحقيقي للفوز أو الخسارة، ولا يمكن تقويمها بما يحصل في ساحة المعركة، بل هو ببقاء القيم والمبادئ ـ التي من أجلها كانت ثورة الإمام عليه السلام ـ وعدمه.

فالإمام الحسين عليه السلام استطاع بنهضته أن يؤصّل مقوّمات الإسلام الحقيقي في المجتمع، ولم يستطع يزيد أو غيره إزالة هذا المنهج أو إلغاء مقوّماته، ولذا نجد أنّ بطلة كربلاء، وأحد عمالقة النهضة الحسينيّة، التي وقفت بوجه الطاغية يزيد، قد أعلنت فشل المنهج المنحرف، وبقاء القيم الإصلاحيّة والمبادئ العليا، بقولها عليها السلام: **«فَاسْعَ سَعْيَكَ، وَنَاصِبْ جُهْدَكَ، فَوَاللهِ لَا تَمْحُو ذِكْرَنَا، وَلَا تُمِيتُ وَحْيَنَا»**[٢]، ومن ينظر الآن إلى واقع الحسين ويزيد فإنّه سوف يعلم من هو الغالب الحقيقي.

---

(١) أمالي الطوسي ـ المجلس السابع والثلاثين: ٦٧٧، الحديث ١٤٣٢/ ١١. بحار الأنوار: ٤٥/ ١٧٧، الحديث ٢٧.

(٢) بحار الأنوار: ٤٥/ ١٣٥، خطبة زينب في مجلس يزيد. مثير الأحزان / ابن نما الحلّي: ٨١، المقصد الثالث.

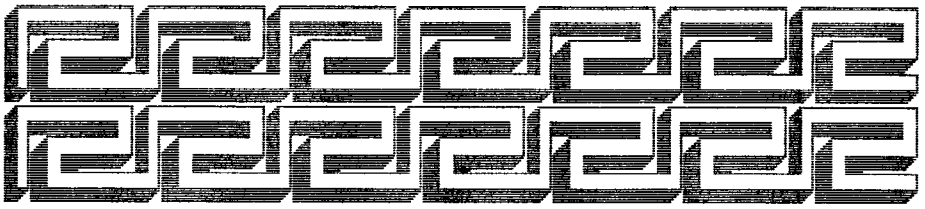

المحاضرة التاسعة

السنن الإلهيّة في الرثاء الحسيني

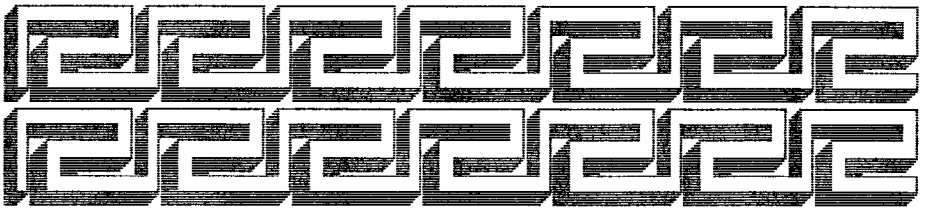

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ الرثاء الحسيني

كثيراً ما يطرح هذا السؤال من قِبل بعض المخالفين ، وهو : ما هي المبرّرات الشرعيّة التي تجيز لكم تجديد الحزن والرثاء في كلّ عام لشهادة السبط في كربلاء ؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال ، لا بدّ أوّلاً من معرفة تاريخ إقامة الرثاء الحسيني على وجه المعمورة ، فإنّ الرثاء الحسيني ينقسم إلى مرحلتين :

الأُولى : وهي المرحلة التي سبقت فترة النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ، حيث إنّ الكتب التاريخيّة والحديثيّة تنقل لنا الأخبار التي تدلّ على أنّ الأنبياء السابقين عليهم السلام كانوا يندبون الحسين في الكثير من المواقف التي تمرُّ بهم[1] ، بل إنّ بعضهم عليهم السلام ممّن تأسّى بالحسين عليه السلام عندما أُصيب بأذى من قومه ، فاختار المواساة لسيّد الشهداء على معاقبة قومه[2] ، وإن دلّ ذلك على شيء فإنّما يدلّ على أنّ الرثاء الحسيني كان يقام في العهود السابقة من قِبل الأنبياء السابقين ، وقبل حصول الفاجعة ، وأنّه من سنن الأنبياء عليهم السلام .

---

(١) راجع كامل الزيارات : ١٤٢ ، الباب ٢١ .

(٢) راجع كامل الزيارات : ١٣٧ ، الباب ١٩ .

الثانية: وهي الفترة التي عاش فيها نبيّنا ﷺ، فإنّ كتب الفريقين قد نقلت لنا الكثير من الأخبار التي تدلّ على أنّ النبيّ الأكرم ﷺ أقام مراسيم العزاء والندبة على ولده سيّد الشهداء، وبشكل متواصل، وفي أزمنة مختلفة، وأماكن متفرّقة، وقد جمع العلّامة الأميني (أعلى الله مقامه) المجالس التي عقدها النبيّ ﷺ في كتابه المسمّى (سيرتنا وسنّتنا وسيرة الرسول ﷺ وسنّته)، وقد أحصاها ـ من مصادر العامّة، ومع حضور أصحاب النبيّ ﷺ من المهاجرين والأنصار ـ فكانت اثنتي عشر مجلساً، وكان أوّلها مجلس عقد في يوم ولادة الإمام الحسين عليه السلام، فرثاه النبيّ ﷺ بطريقة صوّر فيها الحدث بكلّ تفاصيله، ممّا أثارت عواطف الأصحاب، فلم يُرَ منهم إلّا الباكي والنادب، وقد ضجّ المسجد بالبكاء، فكان يوماً عظيماً لم يعلم بمثله من قبل، وكيف لا يكون كذلك والنادب هو سيّد البشر!

الرثاء الحسيني في البيت النبويّ

لم يكتفِ النبيّ الأكرم ﷺ بإقامة مجالس العزاء على ولده الحسين عليه السلام في المسجد النبوي فقط، بل إنّه ﷺ ارتأى أن يقيمها أيضاً في بيوت أزواجه، ليكنّ النادبات والنائحات على ولده الشهيد في طفّ كربلاء، وقد تكرّر هذا الأمر من قِبله ﷺ مرّات عديدة، وإن دلّ ذلك على شيء فإنّما يدلّ على أمرين مهمّين:

الأوّل: إنّ إقامة مثل هذه المجالس تأكيداً لما قاله النبيّ ﷺ مراراً وتكراراً في حقّ الحسين عليه السلام: «**حسين منّي وأنا من حسين**»[1]، فقد حاول النبيّ ﷺ أن يعيش المأساة والشهادة مع ولده الحسين عليه السلام بكلّ تفاصيلها، وقبل استشهاده عليه السلام؛ لأنّ الحسين عليه السلام كان يمثّل الامتداد الحقيقي للرسالة المحمّديّة التي جاءت لإنقاذ الناس من الغواية،

---

(١) كامل الزيارات: ١١٧، الباب ١٤، الحديث ١٢/١٢٧. بحار الأنوار: ٤٥/ ٣١٤، الباب ٤٦، الحديث ١٤. مجمع الزوائد: ١٨١/٩، باب فيما اشترك فيه الحسن والحسين عليهما السلام.

وإخراجهم من الظلمات إلى نور الهداية ، ليصبح دم الحسين عليه السلام مشعلاً ترفعه الأجيال في مختلف العصور ، وشعار تردّده في وهج الثورات ، وهذا ما نراه في العديد من الثورات التي قامت بعد استشهاده عليه السلام ، فكان شعارها الذي ترفعه ـ وإن كان في بعضها زيفاً وتزلّفاً لاستمالة الجماهير ـ (يا لثارات الحسين) ، ليتزوّد الثوّار من كربلاء العزم والإصرار ، والتصميم على النصر .

الثاني : إنّ نفس عقد هذه المجالس من قِبل النبيّ صلى الله عليه وآله لرثاء وندبة الحسين عليه السلام ، سواء كان في المسجد النبوي أو في بيوت أزواجه ، كان غرضه صلى الله عليه وآله منها شدّ الناس لهذه الفاجعة ، وزيادة في حالة الترقّب لها ، وما تلمّ به من مصائب سوف تحلّ بالأُمّة الإسلاميّة ، ولذلك أتحف النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله أُمّ سلمة بقارورة فيها قبضة من تراب الشهادة من أرض كربلاء ، لتكون جرس الإنذار ، وناقوس البداية لمصائب سوف تحلّ بالأُمّة الإسلاميّة ، ومتاهات يقع فيها المجتمع الإسلامي .

إذاً فالنبيّ صلى الله عليه وآله ومن خلال إقامته مجالس العزاء والندبة على ولده الحسين ، أراد أن يبيّن للناس مظلوميّة ولده الشهيد ، ليصبح الرثاء والندبة على الحسين عليه السلام سنّة دأب النبيّ صلى الله عليه وآله على إقامتها ، وربّى المسلمين على تجديدها ، فهي سنّة نبويّة ولم تكن ـ كما يدّعي البعض ـ من اختراعات الشيعة الإماميّة ، وما يقوم به أتباع مذهب الحقّ والفرقة الناجيّة ، من تجديد ذكرى شهادة السبط في كربلاء ما هو إلّا امتثالاً لأمر النبيّ صلى الله عليه وآله ، واتّباعاً لسنّته صلى الله عليه وآله .

السنن الإلهيّة في رثاء الحسين عليه السلام

لم يقتصر رثاء الحسين عليه السلام على كونه سنّة نبويّة دأب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله على إقامتها ، لينحصر الدليل فيها على شعيريّة تجديد الذكرى من قِبل أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام ، بل إنّ رثاء وندبة الحسين عليه السلام والبكاء عليه إنّما هو سنّة إلهيّة حصلت في الدنيا ، قبل قيامها في الآخرة ، وهذا ما سوف يتّضح من خلال البحث .

البكاء على الحسين عليه السلام سنّة إلهيّة تكوينيّة

من الأُمور التي تخبرنا بها كتب الفريقين ، وهي حصول بعض الظواهر في الكون المرافقة لبعض الأحداث ، فهذا ابن عساكر ينقل لنا ، بأسانيد متّصلة الكثير من الروايات التي تدلّ على أنّ السماء بكت دماً عبيطاً ، وتغيير لونها حتّى أصبح أشدُّ حمرة ببكائها على الحسين عليه السلام ، وأنّ جدران المدينة ، وبيوت العراق كانت تصطبغ باللون الأحمر ، وتبقى لشهور تدمي على سيّد الشهداء ، وما رفع حجر في أرض فلسطين إلّا ووجد تحته دماً عبيطاً[1] ، فهذه الظواهر تدلّ بوضوح على أنّ البكاء والندبة على سيّد الشهداء إنّما هو سنّة إلهيّة . وكذلك الطبري في تفسيره في ذيل سورة الدخان عند قوله تعالى : ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾[2].

فقد شاء الله تعالى أن يستمرّ منهج الحسين عليه السلام مع جميع الأجيال ما دامت الدنيا باقية ، ليصبح دمه الشريف من المصاديق التي أرادها الله تعالى لحفظ هذا الدين ، وإبقاءً لشريعة سيّد المرسلين ، ليتجلّى من دمه الطاهر منهجاً يقوّض أركان الانحراف ، ويؤسّس مقوّمات الدفاع عن الذكر الحكيم ، بوجه أمواج التحريف ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾[3] ، فالحسين عليه السلام قرآن ناطق ، يترجم لنا المفاهيم

---

(١) راجع تاريخ دمشق : ١٤ /٢٢٥ وما بعدها ، الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام . وتفسير الطبري في ذيل الآية ٢٩ من سورة الدخان ، بل قد ذكر المؤرّخ البريطاني في كتابه انكلوساكسون = ANGLO SAXON ترجمة « G. N. Garmonsway » ص٣٨ ـ بروفيسور في الكليّة الملكيّة في لندن أنّه في سنة ٦٨٥ الميلاديّة ـ : « أنّ السماء مطرت دماً في بريطانيا ، وأنّ الحليب والزبد أيضاً تحوّلا إلى الدم » ، وهي سنة مقاربة لسنة (٦١هـ) هجريّة سنة استشهاد الإمام الحسين عليه السلام .

(٢) سورة الدخّان : الآية ٢٩.

(٣) سورة الحجر : الآية ٩.

القرآنيّة في واقعها العملي ـ لأنّ العمل من مصاديق الحفظ ـ فنهضته عليه السلام أرهقت الطغاة والجبابرة ، وزلزلت عروشهم من تحت أقدامهم ، انطلاقاً من مسايرة نهج السماء الذي خطّ بأُفق الكمال الحسيني ، وبأبهى صوره ، لينتقل بعدها من خواء الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وكيف لا تبكي عليه السماء والأرض إذا خطّ بدمه الشريف المنهج الإلهي القويم للأجيال القادمة !

ولا يلتفت لقول القائل كيف يصحّ بكاء السماء والأرض على شخص ، لأنّهنّ عديمات الشعور ، وإنّما البكاء يختصّ بمن له هذه الصفة ؟

وكأنّ هذا القائل قد تجاهل الكثير من الآيات القرآنيّة المباركة التي تبيّن لنا أنّ جميع الموجودات تحمل شعوراً خاصّاً بها ، وإن خفي علينا ، فيقول تعالى : ﴿ **وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ** ﴾[١] ، فلا يصحّ وصفها بالتسبيح إذا لم تكن تحمل شعوراً معيّناً ، فالمقتضي إذاً موجود ولكن المانع موجود أيضاً ـ وهو عدم القدرة البشريّة للاطّلاع على هذا التسبيح ـ وهذا ما تؤكّده الروايات الواردة عن بيت العصمة والطهارة ، فعن الإمام الصادق عليه السلام يقول : « **إنّ الأرض تضجُّ إلى الله من بول الأغلف** »[٢] ، فإذا لم يكن لها شعور فكيف يصحّ ضجيجها .

وأضف إلى ذلك ما ورد في سورة الدخّان من إمكان حصول البكاء من السماء والأرض كما في قوله تعالى : ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ** ﴾[٣] ، فلو لم يكن البكاء من شأنهما ، لا يصحّ نفيه عنهما؛ لأنّ ذلك يعدُّ لغواً ، فمن غير الصحيح أن تصف الجدار بعدم البصر ، أو الحجر بعدم الزواج ، لأنّهما

---

(١) سورة الإسراء : الآية ٤٤ .

(٢) الكافي : ٣٥/٦ ، باب التطهير ، الحديث ٣. الفقيه : ٣١١/٣ ، باب العقيقة والتحنيك ... ، الحديث ١٧ .

(٣) سورة الدخّان : الآية ٢٩ .

غير قابلين للاتّصاف بهما ، إذاً فقوله تعالى : ﴿ **فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ** ﴾ دليل على أنّ السماء والأرض لهما القابليّة على البكاء؛ لأنّ من شأنهما ذلك ، ويؤيّده ما رواه الفريقان من قول النبيّ صلى الله عليه وآله لأبي ذرّ الغفاري : « **إنّ الأرض لتبكي على المؤمن إذا مات أربعين صباحاً** »[١] ، فإذا كان بكاؤها على المؤمن فكيف لا تبكي على سيّد الشهداء ، وإمام المجاهدين الحسين السبط عليه السلام ؟ !

وبهذا يتّضح ممّا تقدّم ، وما نقله ابن عساكر من أنّ البكاء على الإمام الحسين عليه السلام إنّما هو سنّة إلهيّة تكوينيّة .

الرثاء الحسيني سنّة إلهيّة تشريعيّة

لا شكّ أنّ مودّة أهل البيت عليهم السلام إنّما هي فريضة قرآنيّة ، أوجبها الله تعالى بكتابه الكريم ، فقال تعالى : ﴿ **قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ** ﴾[٢] ، وقد عظّمها الباري جلّ وعلا ، وجعلها من مصاف أُصول الدين ، كما سيتّضح ذلك من خلال البحث .

إنّ الآية المباركة قد بيّنت أنّ الأجر الذي طلبه النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله إنّما هو مودّة أهل البيت عليهم السلام ، ولكن على ما اذا استحقّ النبيّ صلى الله عليه وآله هذا الأجر ؟ أي انّ الضمير في ﴿ **عَلَيْهِ** ﴾ هل يعود إلى الدين ، أو إلى المشقّة التي تحمّلها النبيّ صلى الله عليه وآله في تبليغ الرسالة وما ناله من الأذى في سبيلها ، فإن كان الضمير راجعاً إلى الأوّل ـ الدين ـ فلا شكّ أنّ مودّة ذوي القربى تكون من مصاف أُصول الدين ، وأمّا إذا كان الضمير

---

(١) أمالي الطوسي ـ المجلس التاسع عشر : ٥٣٥ ، الحديث ١/١١٦٢ . مكارم الأخلاق : ٤٥٥ ، الفصل الخامس : في وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي ذرّ الغفاري رضي الله عنه . الدرّ المنثور : ٣٠/٦ ، تفسير الآية . فتح القدير : ٥٧٧/٤ ، تفسير الآية .

(٢) سورة الشورى : الآية ٢٣ .

راجعاً إلى الثاني ـ التعب والمشقّة والألم ـ فلا يمكن جعل المودّة في مصاف الأُصول، ولكن نقول: إنّ الأمر الثاني أيضاً مرجعه إلى الأمر الأوّل؛ لأنّ النبيّ ﷺ إنّما تحمّل جميع صنوف الألم والتعب والمشقّة لأجل الدين نفسه، فإنّ كلّ عمل مرهون بنتيجته، فتقييم العمل وتثمينه راجع إلى ما تحصّل من نتيجة، فما أراد به النبيّ ﷺ من جميع ذلك إنّما هو لغرض تحصيل الدين، وبذلك يكون الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ راجع إلى الدين على كلا الاحتمالين.

وعليه، فالأجر الذي يريده النبيّ ﷺ في مقابل الدين هو مودّة ذوي القربى، فيكون القرآن قد جعل الدين في كفّة ومودّة أهل البيت عليهم السلام في كفّة أُخرى، وبمقتضى الأجر والمؤاجرة ـ وهي المعاوضة ـ يكون أحدهما عوض للآخر، ولا بدّ أن توجد موازنة ومعادلة بين الدين وبين مودّة أهل البيت عليهم السلام، وأهمّ ما في الدين أُصوله الاعتقاديّة وأركانه، فتكون المودّة في مصاف أُصول الدين، بل هي أصل اعتقادي، ومن الفرائض الإلهيّة التي شرّعها في محكم كتابه، وليس كما يدّعيه البعض بأنّها من غلوّ الشيعة؛ لأنّ القرآن صريح في ذلك، وهو معصوم من التحريف والخطأ بنصّ قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1].

أحكام المودّة

إنّ مودّة أهل البيت عليهم السلام لم تكن مقتصرة على دعوى العلاقة التي يمكن لأي إنسان أن يدّعيها، بل إنّ المودّة قائمة على أُسس وأحكام ذكرها الله تعالى في محكم كتابه الكريم، فهنالك الكثير من الآيات التي تخبرنا بجملة من الأحكام المترتّبة على المودّة، ومن خلالها يمكن التمييز بين مجرّد ادّعاء المودّة وبين الصدق لتلك الدعوى، فإنّنا نلاحظ أنّ الكثير من الناس ـ حتّى المخالفين لهم ـ ممّن يدّعي المودّة

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

لأهل البيت عليهم السلام ، ولكن ما هو المائز لصدق هذه الدعوى وزيفها ؟ ومن هنا كان علينا ذكر الأحكام التي تلازم المودّة ، والواردة في الآيات المباركة .

الأوّل : الاتّباع

إنّ أوّل أحكام المودّة لأهل البيت عليهم السلام هي اتّباعهم ، والاقتداء بهم ، فهنالك ملازمة بين دعوى المحبّة والمودّة وبين الاتّباع ، وهو ما ورد في قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ** ﴾[١] ، فإنّ هذه الآية وإن كانت في صدد بيان المحبّة ، إلّا إنّه وكما تعلمون أنّ المحبّة جنسها المودّة ، فما يثبت للمحبّة فهو ثابت للمودّة من باب أوْلى ، فيكون الاتّباع أيضاً من لوازم المودّة ، وحكم من أحكامها .

الثاني : التطابق بين حالات التابع والمتبوع

وهذا هو الحكم الثاني من أحكام المودّة ، وهو التطابق بين حالات أهل البيت عليهم السلام وبين من يودّونهم ، فإنّ القرآن الكريم ينقل لنا حالات الخلاف بين ما يقع على النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته وبين أولئك المنافقين ، فيقول تعالى : ﴿ **إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ** ﴾[٢] ، فإنّ الأعداء والمبغضين للنبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام تراهم مسودّة وجوههم ، وتسوء أحوالهم إذا أصاب النبيّ فرح ، بينما يفرحون لحزن النبيّ وآله الأطهار ، وبمقتضى مفهوم الآية المباركة يكون هناك تطابق بين حالات النبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته ، وبين مَن يودّونهم فيفرحون لفرحهم عليهم السلام ويحزنون لحزنهم عليهم السلام ، وهو ما أكّده قول الإمام الصادق عليه السلام : « **واختار لنا شيعة ينصرونا ، ويفرحون لفرحنا ، ويحزنون لحزننا** »[٣] ،

---

(١) سورة آل عمران : الآية ٣١ .

(٢) سورة التوبة : الآية ٥٠ .

(٣) الخصال : ٦٣٥/٢ ، الحديث ١٠ ، علم أمير المؤمنين عليه السلام أصحابه في مجلس واحد ⇦

فتكون حالات الذين يودّون أهل البيت عليهم السلام موافقة لحالاتهم عليهم السلام .

وهنالك أحكام أُخرى للمودّة أعرضنا عن ذكرها لاقتصارنا على قدر الحاجة .

خلاصة القول

تبيّن ممّا تقدّم أنّ المبرّر الشرعي لتجديد ذكرى سيّد الشهداء ، وإقامة المآتم للرثاء والندبة في كلّ عام ، إنّما هو مستمدّ من الوجوه التالية :

الأوّل : إنّ تجديد ذكرى سيّد الشهداء ، وتجديد الحزن والندبة ، إنّما هو سنّة نبويّة قد سنّها الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من خلال إقامته لمآتم العزاء على ولده الشهيد ، سواء كان في المسجد النبويّ أم في بيت أزواجه .

الثاني : إنّ ما تناقلته كتب الفريقين من ذكر بكاء السماء والأرض دماً على سيّد الشهداء ، وما رفع حجر إلّا ووجد تحته دماً عبيطاً ، هو عبارة عن كون البكاء على الحسين عليه السلام إنّما هو سنّة إلهيّة تكوينيّة .

الثالث : من خلال الاستشهاد بالآيات الكريمة ، اتّضح لنا إنّ من أحكام المودّة هو الاتّباع ، والتطابق بين حالات التابع والمتبوع ، من الحزن والفرح ، فيكون الحزن على سيّد الشهداء والبكاء والتفجّع على مصابه سنّة إلهيّة تشريعيّة ، قد فرضها الله في كتابه الكريم .

وهناك وجه رابع يمكن أن يضاف إلى الوجوه المتقدّمة ، وهو أنّ الرثاء والندبة على سيّد الشهداء ، إنّما هو سنّة قرآنيّة ، قد امتدحها القرآن الكريم في الكثير من الآيات المباركة ، فإنّ القرآن في تعرّضه للأحداث التي حصلت في الأُمم السابقة ، نجده

⇦ أربعمائة باب . بحار الأنوار : ١١٤/١٠ ، باب ٧ : ما علّمه صلى الله عليه وآله من أربعمائة باب ما يصلح للمسلم في دينه ودنياه ، الحديث ١ .

يصوّرها لنا بنحو يكون مهيّجاً للمشاعر والأحاسيس ، فينقل في تصويره بين تفاصيل الحدث ، وجامعاً لمقدّماته ، فيذكر تارة النتيجة النهائيّة للحدث ، وأُخرى يوضّح فيها ساحة المعركة ، وأداة الجريمة ، حيث إنّه يرسمها لنا بصورتها الواقعيّة التي تكون أكثر تأثيراً لدى السامع ، لغرض ربطه بالمبادئ والأهداف التي يضعها النادب ، وهذا هو أرقى أنواع الأدب القرآني ، ولكنّنا نتأسّف لإغفال المفسّرين الذين تعرّضوا لهذه الآيات ، من التطرّق لهذا الأدب القرآني البديع ، فهم بذلك يتجاهلون علماً من العلوم القرآنيّة ، وهو أدب الرثاء القرآني .

أدب الرثاء في القرآن الكريم

من الابداعات التي يرفدنا بها القرآن الكريم ، هي تصويره للأحداث التي حصلت في الأُمم السابقة خير تصوير ، ملتزم بأرقى أساليب الرثاء والندبة ، فها هي سورة البروج ، وما تبديه من تقييم لأحداث الصراع الذي حصل بين جماعة الحقّ وهم ثلّة من المؤمنين ، وأُولئك الكفّار وعبدة الهوى ، الذين تسلّطوا على رقاب النّاس بالقوّة والقهر ، فترسم لنا صورة الظلم الذي تعرّض له أصحاب الأُخدود ، فهي في واقعها عاشوراء مصغّرة ، ارتسمت في سماء التاريخ بأرقى المعاني ، لتضع اللمسات الإلهيّة في حنايا صبر المؤمنين ، وتبيّن معالم الظلم الذي وقع على البشريّة في تلك الفترة العصيبة ، فتأكيداً لواقعيّة الحدث وصدقه ابتدأت السورة بأيمان ثلاثة ، فقالت : ﴿ **وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ * وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ * وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ** ﴾[١] ، ثمّ تتوالى في ذكر الحدث موضّحة نتيجته النهائيّة ، ووصف ساحة الحدث في قوله تعالى : ﴿ **قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ * النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ** ﴾[٢] ، فإنّ بيان هذه التفاصيل مع ذكر أداة

---

(١) سورة البروج : الآيات ١ ـ ٣.

(٢) السورة المتقدّمة : الآيتان ٤ و ٥ .

الجريمة لهو أرقى أنواع أدب الرثاء ، خصوصاً مع كون الحدث من البشاعة ما لا يمكن وصفه ، فإنّ فيه تهييج للمشاعر وتحريك للعواطف ، فهو تصوير حيّ للجريمة بأكملها ، وبهذا البيان وصف شاعر أهل البيت عليهم السلام فاجعة كربلاء :

أفاطمُ لَو خلتِ الحسينَ مُجدّلاً وقد ماتَ عَطشاناً بشطِّ فُراتِ[1]

فالتصوير القرآني لأدب الرثاء والندبة الذي ذكر في سورة البروج خير دليل على أنّ الندبة والرثاء هو سنّة قرآنيّة راجحة ، أضف إلى ذلك كلّه ، فإنّ أساتذة التجويد ـ الجدد ـ قد وضعوا أُسلوباً خاصّاً لقراءة آيات الأحداث ، بحيث تُهيّج عواطف السامعين .

وأصدق مورداً لما ذكرناه ، هو قراءة سورة يوسف ، فإنّها أكثر السور تأثيراً في المستمع ، لأنّها تحمل معالم المأساة الحقيقيّة التي تعرّض لها أحد أنبياء الله ـ وهو النبيّ يوسف عليه السلام ـ ومن أقرب الناس إليه ـ وهم إخوته ـ فتصوّر لنا تسلسل الأحداث بجميع مقدّماتها ، وبأُسلوب شجيّ ، فيُفتَتح ملفّ الجريمة مبتدءً من قوله تعالى : ﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ** ﴾[2] ، ثمّ في بيان رائع يتدرّج بذكر خطوات الجريمة متوالياً ، فيقول : ﴿ **إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ** ﴾[3] .

وما عرضه القرآن إلى الآن إنّما هو مخطّط الجريمة النظري ، ولكن يبقى تصويره لخطوات التنفيذ ، والذي ينمّ عن إحاطة دقيقة بجميع تفاصيلها ، فيقول تعالى واصفاً

---

(١) بحار الأنوار : ٤٥ /٢٥٧ ، قصّة دعبل ودخوله على مولانا الإمام الرضا عليه السلام .

(٢) سورة يوسف : الآية ٧.

(٣) السورة المتقدّمة : الآيتان ٨ و ٩.

بدايات التنفيذ: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ * أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[١]؛ لأنّ إخراجه بعيداً عن نظر والده يعدّ الخطوة الأهمّ في الجريمة، وتبقى الخطوات الأُخرى هي الأسهل في التنفيذ.

ثمّ يتدرّج القرآن في بيان موقع الجريمة فيقول تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ﴾[٢]، وهذا في حقيقته هو الموقف الأصعب؛ لأنّ المجني عليه -وهو نبيّ الله يوسف عليه السلام- كان يعلم بما سوف يحصل له، ويتقبّلها ويصبر عليها؛ لأنّ العناية الإلهيّة كانت تصاحب ذلك الصغير في بدنه، والكبير في حقيقته، فينبّأهم بفعلهم هذا من خلال أروع تصوير في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[٣]، وإنّ صبر يوسف عليه السلام لما يراه من إخوته إنّما هو لأمر أهمّ، ومنزلة عظيمة لا يمكنه عليه السلام أن يصل إليها، إلّا من خلال هذا الابتلاء والافتراق عن الأحبّة -وهذا شبيه بقول الرسول صلى الله عليه وآله لولده الحسين عليه السلام في الرؤيا: **«وإنّ لك في الجنّة درجات لا تنالها إلّا بالشهادة»**[٤]..

ثمّ ينتقل بنا إلى حزن الأحبّة بفراق يوسف واصفاً إيّاهم بقوله تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾[٥]، فهذا الأب والنبيّ الذي تأثّر بفراق ولده، وحبيب قلبه، أخذ يندبه ويبكي عليه، حتّى فقد بصره من شدّة الحزن، بينما نجد مرتكبي هذه الجريمة لم يُرق لهم هذا الحزن من الوالد على ولده، فاعترضوا عليه بقولهم الذي يحكيه الربّ الجليل بقوله تعالى:

---

(١) سورة يوسف: الآيتان ١١ و ١٢.

(٢) و (٣) السورة المتقدّمة: الآية ١٥.

(٤) أمالي الصدوق -المجلس الثلاثون: ٢١٧، الحديث ١/٢٣٩. بحار الأنوار: ٤٤/ ٣١٣، كتاب عتبة إلى يزيد وكتابه إليه في أمر الحسين عليه السلام.

(٥) سورة يوسف: الآية ٨٤.

﴿ تَاللهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴾[١] ـ وهو في قوّة من اعترض على بكاء الزهراء عليها السلام ، لفقد والدها النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ، فقالوا لها: «قد آذيتنا بكثرة بكائك»[٢] ـ فيأتي جواب يعقوب عليه السلام على المعترضين ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللهِ ﴾[٣] ، وليس هذا من باب الاعتراض على قضاء الله تعالى وقدره ـ كما يتصوّره البعض ـ بل هو تسليم بهما؛ لأنّ هناك فرق بين شكاية الله تعالى والشكوى إلى الله ، والاعتراض والتنديد بالظالمين ، فالأوّل اعتراض عليه تعالى ، بخلاف الثاني ، فإنّه تسليم وإقرار بما قدّره الله وقضاه ، ومقارعة وإدانة للظالمين وتظاهرة احتجاجيّة عليهم ، وهو ما تصوّره لنا بطلة كربلاء العقيلة زينب عليها السلام عندما خاطبها عبيدالله بن زياد بقوله: كيف رأيت صنع الله بأهلك بيتك ، فقالت: ما رأيت إلّا جميلاً»[٤] ، وهو أرقى مراتب التسليم بقضاء الله وقدره.

إذاً فالقرآن الكريم ومن خلال تصويره الرائع لأحداث الماضي وندبته الأولياء والصالحين ، يكشف لنا عن حقيقة الرثاء والندبة ، وأنّها تضامن مع المظلومين وتنديد وإدانة واستنكار للظالمين ، وأنّ هناك حثّ عليها من قِبله ، وتأكيد وإصرار في إقامة مجالس الرثاء والندبة في كلّ قراءة وختمة للآيات والسور والقرآنيّة ، وبهذا يتّضح لنا أنّ ندبة الحسين عليه السلام إنما هو سنّة قرآنيّة حثّ عليها القرآن وأبدع في تصويرها.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

وصلى الله على محمّد وآله الطيبيّن الطاهرين

---

(١) سورة يوسف: الآية ٨٥.

(٢) أمالي الصدوق ـ المجلس التاسع والعشرون: ٢٠٤ ، الحديث ٥/٢٢١. وسائل الشيعة: ٢٨١/٣ ، باب جواز البكاء على الميّت ، الحديث ٣٦٥٥ /٧.

(٣) سورة يوسف: الآية ٨٦.

(٤) بحار الأنوار: ٤٥ /١١٦. مثير الأحزان /ابن نما الحلّي: ٧٠ ، المقصد الثالث.

العولمة .. أسبابها ومقوماتها

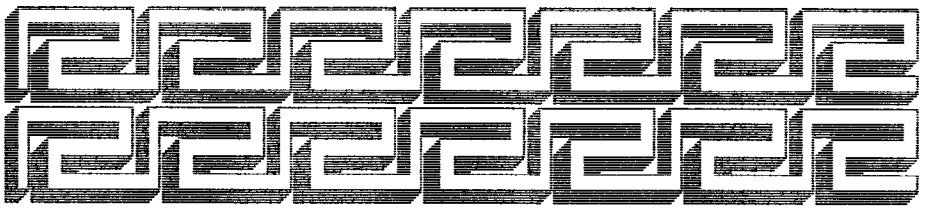

المحاضرة الأُولى

الموقف من أحداث التاريخ وشخصيّاته

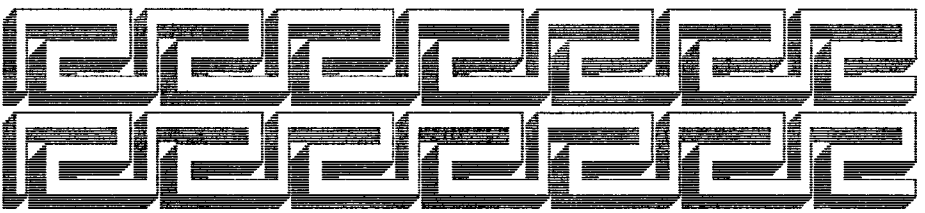

بسم الله الرحمن الرحيم

التاريخ في نطاق المحاكمة

من الأُمور التي تثير الآخرين ويكثرون التساؤل عنها هي أنّ أتباع أهل البيت عليهم السلام يصرّون على التنقيب في التاريخ وعلى القضاء التاريخي ، أي يتّخذون مواقف قضائيّة تجاه الأحداث التاريخيّة التي عصفت بالأُمّة والأخطاء الفادحة التي حملها التاريخ وتبيّن المواقف منها ، فاستذكارها يعني إعادة فتح الملفّات القديمة التي أُسدل الستار عليها بلا رجعة ، وكلّ ذلك لأنّ الشيعة هم كبش الفداء في تلك الأزمنة ، ولهذا فهم يعترضون على الشيعة بحجّة أنّ ذلك يوجب الشحناء والبغضاء في صفوف الأُمّة الإسلاميّة ، وإثارة النعرات الطائفيّة في وقت نحن أحوج ما نكون فيه إلى تأليف القلوب وتوحيد الصفوف أمام التحدّيات الراهنة .

سوف نبحث هذا الموضوع خلال الآيات القرآنيّة الشريفة والسنّة المطهّرة والأدلّة المتّفق عليها بين الفريقين والدليل العقلي والقانون البشري ، لأنّ كلّ هذه الأُمور تحثّ الإنسان على نبش التاريخ والتنقيب عنه ، واتّخاذ مواقف من ما حدث في التاريخ .

سنّة الرثاء في القرآن الكريم

قد تكلّمت في المحاضرات السابقة عن سنّة قرآنيّة عظيمة ولم أقف على من ذكر هذه

السنّة القرآنيّة ـ في حدود استقصائي ـ لم أقف على من أثار هذه الدلالة القرآنيّة من علمائنا، فضلاً عن علماء المذاهب الأُخرى، ألا وهي استعراض القرآن الكريم للظلامات التاريخيّة ابتداءً من قصّة هابيل وقابيل مروراً بأصحاب الأُخدود وقتل الأنبياء، ومظلوميّة النبيّ يوسف عليه السلام وأصحاب الكهف الذين وحّدوا الله بفطرتهم، ولم يكونوا ينتسبون إلى دين من الأديان (كما هو في أحد الآراء التفسيريّة)، وللأسف لم أسمع أحداً من الأُدباء من أتباع الإماميّة من طرق هذا الباب، وهذا السبق سبق وكنز أدبي، وسبق وكنز قرآني، بل سبق وكنز تربوي، واجتماعي، وأيضاً وسبق ومنبع اعتقادي، وهو وجود أدب الرثاء والندبة والعزاء في القرآن الكريم، وللأسف لم يثر مفسّرو الإماميّة هذا الباب، وهو باب أدب الرثاء مع أنّ القرآن الكريم يحمل الأُسلوب الرثائي بطريقة عاطفيّة جيّاشة، وهذا الباب ـ أدب الرثاء ـ يقف إلى جانب أدب الحكم والمواعظ والأمثال والوعيد والبشارة.

والرثاء في القرآن الكريم بأُسلوب عاطفي جيّاش يهدف إلى إيصال المستمع عن طريق القرآن إلى التضامن مع المظلوم والتنديد بالظلم والظالمين، ولو حلّلنا سورة البروج في موضوع أصحاب الأُخدود، وحلّلنا قصّة هابيل وقابيل لرأينا أنّ الآيات المباركة في استعراضها تلك القصص كانت في منتهى الإثارة العاطفيّة للقارئ، وهذا ليس أدب رثاء فقط، بل هو استذكار للماضي، وكلّ ختمة نختمها من القرآن الكريم تنطوي على العديد من المراثي والندب لسلسلة الظلامات والمظلومين في أعماق التاريخ البشري والأديان والذي يعيدنا إلى الآلام والمحن التي مرّت بها الأُمم السابقة، وكلّ ذلك لأجل فتح الملفات التاريخيّة، ومن الملفّات التي فتحها القرآن الكريم الملفّات التاريخيّة المتعلّقة بالأحداث في عصر النبيّ صلى الله عليه وآله وأحوال الصحابة، فنرى أنّ القرآن الكريم يفتح هذه الملفات ويصنّف المحيطين بالنبيّ صلى الله عليه وآله، ويصفهم بأوصاف إيجابيّة وسلبيّة بدرجات مختلفة، فيصف بعضهم بالمنافقين والمرجفين في المدينة والمعوّقين والمبطئين والمتخلّفين، ويصف البعض الآخر بأوصاف

إيجابيّة بأنّهم أشداء على الكفّار رحماء ربينهم ، تراهم ركّعاً سجّداً يبتغون فضلاً من ربّهم.

البدريّون في نظر القرآن الكريم

في هذا العام زرت مكان معركة بدر الكبرى ، والذي يبعد ١٥٠ كم عن المدينة المنوّرة ببركات النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله وأئمّة البقيع والبضعة الطاهرة فاطمة الزهراء سلام الله عليها ، وهناك رأينا أحد المشايخ وقال لي: هل جئتم هنا إلى زيارة القبور ؟ فقلت: له: لا وإنّما أتيت هنا لأرى مسرح المعركة التي انتصر فيها المسلمون وكان لعليّ عليه السلام دوراً أساسيّاً ومحورياً في هذا النصر ، ونحن هناك فتحنا القرآن وحاولنا معرفة مكان العدوة الدنيا والعدوة القصوى ، ومكان الركب الموصوف في الآية بـ﴿ **أَسْفَلَ مِنكُمْ** ﴾[١] ، حيث كان الإمام الصادق عليه السلام يوصي معاوية بن عمّار ويقول: « **لا تدع إتيان المشاهد كلّها ، مسجد قبا...** »[٢] ، وفي بعض الروايات[٣]: « **فصلي فيه ركعتين** » ، هناك ونحن ننظر إلى ساحة المعركة فتحنا القرآن وإذا بسورة الأنفال ، وقرأنا هذه الآية أمام الشيخ الذي أنكر علينا زيارة القبور ﴿ **إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَـٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾[٤].

وبيّنت لنا الآية الكريمة أنّ هنالك فئتان يذمّهما القرآن من بين البدريّين أنفسهم ، فضلاً عن جميع الصحابة ، وهاتان الفئتان هما: المنافقون ، والذين في قلوبهم مرض ، وعندما واجهنا ذلك الشيخ بهذه الآية قال: « إنّ بدر لم تكن مدينة مسكونة » ،

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٤٢ .

(٢) الوسائل ١٤ : ٣٥٣ ، الباب ١٢ من أبواب المزار ، الحديث ١/٩٣٧٣ .

(٣) الوسائل ١٤ : ٣٥٥ ، الباب المتقدّم ، الحديث ٥/٩٣٧٧.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٤٩ .

فقلت له: «إنّ القرآن لا يتكلّم عن سكّان بدر، وإنّما يتكلّم عن بعض الصحابة الذين كانوا مع النبيّ يحاربون ولكنّهم كانوا منافقين».

وعندها قال الشيخ: «إنّي مرتبط بعمل وأُريد الانصراف».

فقلنا له: «انصرف».

ومن الواضح أنّ المراد بالمنافقين في البدريّين هم الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، أمّا الذين في قلوبهم مرض فهم أيضاً ممّن يظهر الإسلام ويبطن المرض، وقد أشار إليهم القرآن في رابع سورة نزلت على الرسول صلى الله عليه وآله في أوائل البعثة في سورة المدّثّر، وتابعهم القرآن الكريم في عدّة مواضع متابعة دقيقة، حيث أنّ السور ترسم خطّة حركتهم للتسلّط على مقاليد الأُمور بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وأنّ مرضهم هو الضغينة والعداوة للنبيّ صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، وسبب قول هاتان الفئتان ـ بأنّ المؤمنين مع النبيّ في غرور ـ هو عدم توفّر الإيمان في قلوبهم، والحال أنّ الأسباب الظاهريّة هي في كفّة قريش المشركة.

فالقرآن الكريم يندّد ببعض البدريّين كما هو واضح وصريح في الآية المذكورة، ومع ذلك نرى بعض المسلمين يعتقدون أنّ كلّ أهل بدر مغفور لهم حتّى لو ارتكبوا ما ارتكبوا، ويروون وينسبون إليه صلى الله عليه وآله أنّه قال: الله نظر نظرة إلى أهل بدر وقال: اعملوا ما شئتم، فإنّي قد عفوت عنكم لعظمة موقف بدر، والسيّد الطباطبائي قد عقد بحثاً في الردّ على هذه الرواية لأنّها تخالف صريح القرآن الذي ندّد ببعض البدريّين وغيرها من الآيات.

مفهوم اللعن في القرآن الكريم

نحن نركّز على القرآن فضلاً عن كتب التاريخ والسِّير والمراجع التي يعتمد عليها الفريقان، فالقرآن يعلّمنا أنّ نبش التاريخ ومحاكمة الشخصيّات التاريخيّة واتّخاذ

المواقف منها له فوائد كثيرة ، وهو بهذا يصرّح علانيّة شرعيّة اللعن المتمثّل بالبراءة من الظالم والوقوف مع المظلوم ، واللعن ليس مفهوماً شيعيّاً عصبيّاً خرافياً أسطوريّاً ناشئاً من العقد النفسيّة كما يصفه البعض ، وإنّما هو مفهوم قرآني إسلامي أصيل ، وحتّى في العرف القانوني الحديث نجد أنّ اللعن قد سُمّي بتسميات أُخرى ، مثل الاستنكار والشجب والإدانة والمقاطعة والتحريم والمنع والنفرة والإبعاد ، وفي مقابلها التضامن والمساندة والتأييد والدعم ، وهذا هو التبرّي والتولّي ولكن بمصطلحات حديثة في القانون الدولية الحديث ليس إلّا .

ولو رجعنا إلى القرآن الكريم نجده لا يدعو إلى نصرة المظلومين والمصلحين الشرفاء فحسب ، بل يدعو أيضاً إلى شجب وإدانة واستنكار ولعن الظالمين الذين لوّثوا التاريخ البشري وتعدّوا على حقّ البشريّة حتّى لو صاروا رفاتاً وتراباً ، والاستنكار من صميم الوجدان البشري ومن فطرة الإنسان .

والبعض حتّى من المثقّفين يستوحشون من اللعن ، والمشكلة لا تكمن في حروف اللعن (ل ع ن) ، وإنّما في مضمون اللعن ومستحقّيه واتّخاذ الموقف المضادّ للظالمين ، ولهذا فاللعن الوارد في زيارة عاشوراء ينطلق من هذا المنطلق ، وهو منطق القرآن الكريم .

الأحداث التاريخيّة بين المحاكمة والتحليل

ذكرنا سابقاً من أنّ القرآن هو كتاب رثاء وندبة ، وأُضيف إليه أيضاً أنّ القرآن الكريم يدعو إلى اتّخاذ المواقف ومحاكمة الأحداث التاريخيّة وشخصيّاتها ، ونضيف وجهاً ثانياً : أنّه من الضرورات الفقهيّة المتسالم عليها بين الفريقين هي إنكار المنكر ، ويشمل مفهوم إنكار المنكر إنكار المنكر التاريخي الذي مرّ عليه زمان طويل ، ومن المعروف أنّ مراتب إنكار المنكر تتحقّق في ثلاث هي : القلب ثمّ اللسان ثمّ اليد ، وحيث أنّنا لا نتمكّن من إنكار المنكر التاريخي باليد واللسان ، إلّا أنّ ذلك لا يمنع

من إنكاره بالقلب، بل باليد واللسان بلحاظ الكتابة والأقوال والحديث عنه ومقاومة نشره في أبناء الجيل المعاصر، وإذا رجعنا إلى الأحداث التاريخيّة وما جرى فيها نرى أنّ لها موضوعاً قائماً، وعلى كلّ التقادير، فيجب إنكاره إنكاراً قلبيّاً، نحن نقول: يجب، ولا نقول: يجوز؛ لأنّ اتّخاذ المواقف من المنكر التاريخي ممكن بالقلب، بل اللسان واليد بلحاظ بيان الصورة الحقيقيّة على واقعها ليتربّى الجيل الناشئ على الصراط القويم، وهذا هو الوجه الثالث.

وإذا أمعنا النظر في الآيات المباركة نجد وجهاً رابعاً: أنّ القرآن الكريم يعاتب ويؤنّب ويندّد باليهود المعاصرين للنبيّ محمّد ﷺ بما فعله أجدادهم قبل قرون عديدة؛ كما نبّه أهل البيت عليهم السلام إلى هذه السنّة القرآنيّة في رواياتهم، ولا عجب في ذلك؛ لأنّ الذي يرضى بعمل قوم يُشرك فيه حتّى وإن مرّت عليه السنون؛ لأنّهم متعاطفون مع أجدادهم، والقرآن الكريم لا يخاطبهم مخاطبة المتعاطف مع الظالم، وإنّما يخاطبهم مخاطبة الظالم والمرتكب للجريمة، وله شواهد عديدة منها قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[1]، فمع ملاحظة هذه الآية الكريمة نجد أنّها تصف اليهود بأنّهم قتلة الأنبياء، مع أنّ اليهود المعاصرين للنبيّ ﷺ لم يقتلوا رسل الله ولكنّ الله خاطبهم بهذا الخطاب؛ لأنّ هؤلاء من الذين رضوا بفعلهم ولم ينكروا عليهم.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ**﴾[2]، وهذه الآية أيضاً تصفهم بعبدة العجل، مع أنّ اليهود المعاصرين للنبيّ ﷺ ليسوا هم الذين عبدوا العجل.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٨٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٥١.

وممّا تقدّم يتبيّن أنّه لا إشكال في ما ورد في أخبار تؤكّد محاربة الإمام المهدي (عج) أتباع بني أُميّة باعتبار أنّهم رضوا بقتل الحسين عليه السلام ، وهذا ما فعله القرآن الكريم مع بني إسرائيل المعاصرين للنبيّ صلى الله عليه وآله وحمّلهم مسؤوليّة ما فعله أسلافهم.

وهناك قاعدة مستخلصة من الحديث النبوي الذي رواه الفريقان: «من أحبّ قوماً حشر معهم»[1] ، فإنّ الذي يحبّ أُولئك الظلمة فإنّه سوف يُحشر معهم ، فهل نرضى نحن أن نُحشر مع الظالمين من أمثال قابيل وقارون وفرعون وغيرهم ؟!

بل إنّ هناك وجهاً خامساً ، وهو الدليل العقلي متسالم عليه ، والذي تحكم به الفطرة أيضاً ، وهو أن يحسّن الحسن ويقبّح القبيح ، فكيف نحارب فطرتنا ونطمسها ؟

الأحداث التاريخيّة بين القبول والرفض

قد سجّل لنا التاريخ الكثير من علامات الاستفهام التي توجب التوقّف ، سواء كان في الماضي أو في الحاضر ، فمثلاً في مطلع هذا العام الميلادي زار الرئيس الياباني قبور الجنرالات اليابانيّين الذين شاركوا في الحرب العالميّة ، فثارت ثائرة الصين وكوريا الجنوبيّة ، وكان اعتراضهم أنّ ذلك سوف يسترجع الذكريات المؤلمة التي عصفت بالعالم ، وأزهقت فيها أرواح الأبرياء ، وكلّ هذا يؤدّي إلى نبش التاريخ من جديد ، وإعادة تلك الظلامات ؛ ولذلك فإنّ الصين تقول: إنّ هؤلاء الجنرالات قد قاموا بجرائم في حقّ الإنسانيّة ، ويجب اتّخاذ موقف سلبي منهم ، والبراءة منهم ، ومن غير المناسب زيارة قبورهم ، بل طالب الصينيّون والكوريّون من الرئيس الياباني الاعتذار من هذا الفعل الذي يعدّ مساندة للمجرمين الذين تطاولوا على حقّ الإنسانيّة ، وأنّ هذا

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٠٨/١٢ ، باب تحريم الرضا بالظلم والمعونة للظالم ، الحديث ٢/ ١٣٦٤٨.

الفعل له مردودات سلبيّة ، فقد يربّي الشعب الياباني على الإجرام ، ويرسّخ التجاوزات التي يقوم بها المجرمون في الأجيال القادمة ، بل أنّه يهدّد أمن إقليم شرق آسيا.

إذن ، فمراجعة التاريخ سوف يؤثّر في النفوس ويصهرها في القالب الثقافي الذي يطبعه فيها؛ لأنّ التاريخ هو عبارة عن مجموعة من العلوم التي يمكن تطبيقها في الواقع ، بل إنّ التاريخ أبلغ تأثيراً في صياغة الأفكار والعواطف للمجتمع البشري من غيره.

وإذا تساوى عند الإنسان الظلم والعدل ، ولم يتّخذ المواقف المناسبة منهما ، فإنّ ذلك سيؤدّي إلى ظهور الظلم فيه بصورة تلقائيّة ، وبالتالي سيتحوّل فاعله إلى ظالم من حيث لا يشعر ، ولذلك يرفض الفكر البشري المعاصر النازيّين والفاشيّين وتُرفض الإشادة بهتلر وموسيليني؛ لأنّهم من النماذج التي جلبت الدمار للعالم ، والتضامن مع مثل هذه النماذج السيّئة يسبّب أزمة في المجتمع البشري بتربية الجيل الحاضر على تلك المناهج الهدّامة المدمّرة الموجبة لتفشّي الفساد والعدوان.

ولهذا يركّز القرآن على الأحداث والسنن التاريخيّة؛ لأنّ باستذكارها تحصل الاستفادة منها في الكثير من المجالات ،كالتاريخ وعلم السيرة وتراجم الشخصيّات ، ولا يمكن القول إنّ هذا تاريخ قد مضى؛ لأنّه حيّ ينبض في قلب وفكر وثقافة وهويّة المجتمع ، وهو عقيدة وعبرة وعظة وقراءة دينيّة ، وعدم الاعتبار من التاريخ يسبّب تكرار الخطأ الذي قام به الأوّلون؛ لأنّ هويّة أي مجتمع هي حصيلة تراكمات معجونة من مراحله التاريخيّة السابقة ، إذن الإنسان الحضاري هو الذي يعتبر من التاريخ ويستفيد منه ، في جوّ هادئ ، وفي جوّ الحوار العلمي الموضوعي ، ومن الجهل والحماقة إغماض العينين عمّا جرى في التاريخ ، الذي ينتج عنه تكرار الأخطاء ، وتكرار الأخطاء قد يعطي انطباعاً عند البعض أنّها ليست أخطاء؛ لأنّ النّاس يتفاعلون معها بشكل طبيعي ويعتادون عليها ولا ينظرون إلى الجانب السلبي منها.

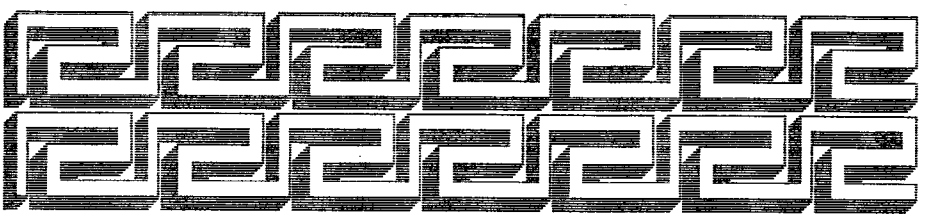

المحاضرة الثانية

إشكالات حول الشعائر الحسينيّة

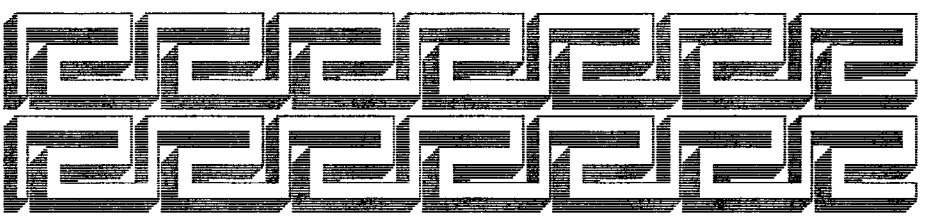

بسم الله الرحمن الرحيم

إشكالات حول إحياء الشعائر الحسينيّة

الإشكال الأوّل:

إذا كانت الشعائر الحسينيّة عادات وتقاليداً وتمثّل موروثاً بشرياً، ومن المعروف أنّ العادات والتقاليد قد تتغيّر أو تلغى بحسب ما يمليه التطوّر البشري؛ لأنّ العادات والتقاليد تتأثّر بالبيئة وبالحضارات الأخرى، والذين يطرحون هذه الإشكالات يطرحون بعض الشعائر الحسينيّة ويربطونها ببعض الطقوس التي كانت تمارسها الأُمم الأُخرى والحضارات الدينيّة السابقة أو الحضارات التي لا ترتبط بدين.

الإشكال الثاني:

البعض يرى أنّ الشعائر الحسينيّة تعتبر مجموعات أُسطوريّة ترسمها وتشكّلها وتنتجها وتخلقها المخيّلة الإنسانيّة المثاليّة أو النزعة في الإنسان التي تنزع نحو حبّ البطل المثالي أو الشخصيّة النموذجيّة المثاليّة التي تجذب الجمهور إليها.

وهم عندما يطرحون هذا الإشكال لا يطرحونه باعتباره أمراً سلبيّاً محضاً، وإنّما يطرحونه باعتباره يحمل بعض الإيجابيات التي يتربّى من خلالها الجمهور على سلوكيّات مستمدّة من سلوكيات هذه الشخصيّة المثاليّة الأُسطوريّة ويتعلّم منها النبل

والشجاعة والإيثار... الخ.

الإشكال الثالث:

ومن الإشكالات التي تطرحها مدارس علم النفس الحديث، هي ظاهرة الحزن والبكاء واللطم وبقية المظاهر في الشعائر الحسينيّة، حيث تقول إنّ هذه الشعائر ظاهرة سلبيّة على المستوى الفكري والنفسي والاجتماعي؛ لأنها تكبت المجتمع، وتسبّب العقد النفسيّة، وتشلّ حيوية ونشاط النفس، وتقتل روح الأمل، وتشيع حالة اليأس والقنوط والإحباط في المجتمع، ولها آثار سلبية على مستوى الروح ومستوى العقل.

الإشكال الرابع:

نحن لدينا رسالة مقدّسة وهي نشر الإسلام ونشر مذهب ومعارف أهل البيت عليهم السلام، فإذا كان الخطاب الحسيني يستخدم لغة المنابر، فإنّ هذه اللغة لغة غير موصلة لمعارف أهل البيت عليهم السلام، بل هي لغة مشوّهة وغير مقبولة ولا يمكن أن يتفاعل معها الآخرون، بل وأكثر من ذلك إنّهم ينفرون منها ويستوحشون، فينبغي البحث عن وسائل ناجحة لنشر الإسلام ومعارف أهل البيت عليهم السلام، وإجراء إصلاحات في الخطاب الديني وخطاب مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

الإشكال الخامس:

هذه الطقوس تعتبر نوع من العقوبة التي يوقعها الإنسان على نفسه ـ على نحو التكفير عن الذنب ـ لأنّ أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام يشعرون بالتقصير في نصرة الحسين عليه السلام وتخاذلهم في الوقوف معه؛ ولذلك فهم يوقعون بأنفسهم العقوبات البدنيّة والنفسيّة المتمثّلة في إحياء الشعائر الحسينيّة، ويستشهدون على ذلك بثورة التوابّين بقيادة سليمان بن صرد الخزاعي.

الإشكال السادس:

إنّ الشعائر الحسينيّة لا تواكب الزمان ولا تناسب العصر، ولماذا لا يتمّ تجديد الطقوس، ونبذ الأساليب القديمة ودفنها في مقابر التاريخ، وقد يطرح بعض أبنائنا هذا الإشكال.

وهناك إشكالات أُخرى، ولكنّنا سنقتصر على هذا المقدار خوفاً من الإطالة.

وإذا دقّقنا في هذه الإشكالات والتساؤلات نجد أنّها ليست مطروحة على الشعائر الحسينيّة فحسب، بل هي مطروحة على عموم الشعائر الدينيّة، والآن يناقشها المفكّرون في إطار حوار الحضارات، وفي قضايا العولمة، ولذلك اخترت هذه الإشكالات لتوطئة بحث العولمة، والكلام ليس في العادات والتقاليد؛ لأنّ العادات والتقاليد آليات، ولكن المهمّ هو الفكرة التي تتضمّنها العادات والتقاليد.

العولمة وتباين الثقافات

من أهمّ ما يعترض مسألة العولمة هي قضية اختلاف العادات والتقاليد، والهويات القوميّة، واختلاف اللغة اللسانيّة، واللغة غير اللسانية المتمثّلة بالأفعال التي تحمل معانٍ معيّنة؛ لأنّ الإنسان يحمل العديد من اللغات، وكلّ تصرّف يعمله يعتبر لغةً توصل مفهوماً معيّناً. فمثلاً: القيام للشخص الآخر يدل على الاحترام، مع أنّ القيام فعل وليس كلاماً، واختلاف الأعراف في المجتمعات المختلفة قد يصل الى حدّ النقيض، فيكون الفعل حسناً عند أُمّة، بينما يكون هذا الفعل نفسه قبيحاً عند أُمّة أُخرى، ولا يمكن تذويب اللغات المختلفة في لغة واحدة، وتذويب الآداب المختلفة في أدب واحد، وحمل الهويات المختلفة على هوية واحدة، وقد واجه هذا الطرح العديد من الاعتراضات من قِبل الأُمم التي تخشى على هويّتها وعلى عاداتها وتقاليدها.

ولذلك فإنّ طرح العولمة بمفهومها المتعارف يهدّد هويّتنا الوطنيّة والقوميّة والدينيّة والمذهبيّة والفكريّة والروحيّة؛ ولأنّ لكلّ أُمّة عاداتها وتقاليدها، بغض النظر عن إيجابيّة هذه العادات والتقاليد أو سلبيّتها، إلّا أنّها موجودة عند كلّ أُمّة من الأُمم، وتعتبر جزءاً من هويّتها، ومن المستحيل أن تعيش أُمّة من دون عادات وتقاليد، ولا توجد أُمّة من الأُمم لم تتأثّر بأُمم أُخرى.

التقليد بين السلب والإيجاب

إذا أردنا التدقيق في مسألة التقليد فمن غير الصحيح أن نحكم عليه بأنّه أمر سلبي في كلّ الأحوال، فكما يكون سلبيّاً في بعض الأحوال، فهو أيضاً إيجابيّاً في بعضها الآخر، بل قد يكون ضروريّاً ولازماً في أحوالٍ أُخرى، كما في تقليد أهل التخصّص؛ لأنّه لا بدّ من توزيع التخصّصات والمهمّات وفق رؤية علميّة صحيحة بحيث يستطيع الإنسان أن يركن إليها؛ وذلك لأنّ الكائن البشري لا يستطيع أن يكون خبيراً في كلّ شيء.

وكلامنا هذا لا يقتصر على التقليد الفقهي، وإنّما يعمّ جميع التخصّصات؛ لأنّ التقليد منهج علمي شريطة أن يخضع لرؤية علميّة سليمة وموازين صحيحة تعتمد على كفاءة المقلَّد في تخصّصه، وأن لا تدخل المحسوبيات في تقييم الشخصيات المقلَّدة.

والذي يرفض التقليد بشكل تامّ لا يمكن لنا أن نؤيّده؛ لأنّ ذلك سيؤدّي إلى سدّ الطريق أمام العلم لكي لا يتّخذ مجراه بشكل صحيح، والقرآن إنّما ذمّ التقليد الذي لا يكون مبنيّاً على العلم، فقال تعالى: ﴿ **وَكَذٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِن نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُقْتَدُونَ** ﴾[1].

---

(١) سورة الزخرف: الآية ٢٢.

والنزوع إلى التقليد أمر فطري ، ولهذا نجد أنّ الإنسان يقلّد مئات المرّات يومياً ، سواء في أُموره الحياتيّة أو غيرها ، ولا يوجب ذلك أن نستنكر التقليد.

وأخذ الشيعة لبعض الآليات والأساليب من الأُمم الأُخرى للتعبير عن حزنهم على سيّد الشهداء وأهل البيت عليهم السلام ، لا يعدُّ عيباً مادامت تلك الآليّة صحيحة وسليمة ، وهذا يقع في سياق التبادل الثقافي والحضاري بين الأُمم.

إذن ليست المشكلة في أنّ هذه الأساليب الحسينيّة مأخوذة من أُمم أُخرى أم أنّها مبتكرة من أبناء الطائفة ، وإنما المناط هو صحّة الأُسلوب وعدم صحّته ، فكون هذا الطقس مأخوذ من الأتراك ، أو من الهنود ، أو من غيرهم ، لا يوجب الطعن فيه ؛ ولأنّ الأُمم تتأثّر بالأُمم الأُخرى في أساليبها ، ولكنّ المهم هو أن تبقى المعاني والمثل والقيم والمبادئ وإن اختلفت الأساليب.

فلسفة البكاء والحزن

أمّا الإشكال القائل بأنّ الحزن ظاهرة هدّامة للمجتمع ، وتفقده الحيوية والنشاط والهمم ، وتسبّب له الكبت والتراجع النفسي والفكري والاجتماعي ، إضافة إلى أنّها تعتبر عقدة تكفير الذنب.

فإنّ الجواب عنه ، خصوصاً إذا كان هذا الإشكال يطرحه بعض أبناء المسلمين من المذاهب الأُخرى فإنّنا نقول لهم كما قلنا في المحاضرات السابقة : إنّ ظاهرة الحزن والبكاء ظاهرة قرآنيّة يحثّ عليها القرآن ، كما بيّنا في سورة البروج ، وسورة يوسف ، وفي قصة قابيل وهابيل ، بل إن القرآن الكريم يحثّ على البكاء ، ويمتدح النفس اللوّامة كما في سورة القيامة المباركة ، ويذمّ الفرح ، حتّى اعتقد البعض أنّ الفرح مذموم بصورة مطلقة ، وإن كان هذا غير صحيح ؛ لأنّ القرآن يرفض الفرح في بعض الحالات كتلك التي تؤدّي إلى بطر الإنسان ونسيانه للآخرة ، فالفرح مذموم ولكن بهذه الصورة وليس بصورة مطلقة ، وكذلك قد ذكرنا سابقاً من أنّ للبكاء دوراً كبيراً في

تهذيب النفوس وإصلاحها ، وبالتالي تؤدّي إلى تكامل المجتمع وبنائه بناءاً صحيحاً ، إضافة إلى أنّ وجود المجتمع المتديّن يحدّ من الجريمة نتيجة وجود الحساب الداخلي والرقابة الذاتية وتهذيب شراسة الشهوات والغرائز ، وهذا الأمر يعتمد على التوازن بين الخوف والرجاء في النفس الإنسانيّة.

إذن من الخطأ رفض ظاهرة الحزن بشكل مطلق ، بل إنّنا في أمسّ الحاجة لها بالمقدار المطلوب وبشكل متوازن ، ومن المعروف أنّ الطائفة الشيعيّة الإثنى عشريّة لديها محطّات أفراح تتمثّل في إحياء مواليد الأئمّة ، ونحن نفرح في هذه المحطّات ، ويتمّ تعليق الزينة ، ونشر مظاهر السرور في مقابل الأحزان المتمثّلة بالبكاء والحزن في أيّام شهاداتهم عليهم السلام.

ولا يخفى على السامع من أنّ الشعائر الدينية إنّما تمثّل الإعلام الديني ، وهناك فرق بين الإعلام الديني وغير الديني ؛ لأنّ الإعلام الديني هو إعلام مبدئي.

وإنّني أدعو أبناءنا للتخصّص في المجال الإعلامي؛ لأنّه يشهد افتقاراً كبيراً من حيث الطاقة البشريّة ، سواء في مجال الصحافة أو الأدب أو القصة أو الرواية أو المسرح وغيرها ، ولا يخفى عليكم أنّ الإعلام هو السلطة الرابعة ، بل قد يكون هو السلطة الأُولى ، التي تقرّر الحرب والسلم في كثير من الأحيان.

وإذا أردنا أن نلاحظ ما حدث في العراق في ذكرى الأربعين السابقة ـ بتوفيق من الله ، وببركات الأئمّة ـ في التجمع المليوني الكبير الذي أقلّ ما يقال عنه أنّه يضمّ ثلاثة إلى خمسة ملايين شخص جاءوا لزيارة سيّد الشهداء عليه السلام ، وقد اجتمعت فيه كلّ سبل النجاح بالرغم من غياب السلطة ، والدولة ، والشرطة ، والكهرباء ، والخدمات المدنيّة ، وقد مرّت هذه المناسبة ـ بحمد الله وفضله ـ بدون حادث يُذكر ، أي حوادث قتل ، أو سرقة ، أو تدافع ، وقد تعجّبت المحطات الفضائيّة من التنظيم العجيب لزوّار سيّد الشهداء عليه السلام ، وإلى أنّه مع هذا الحشد المليوني ومن دون قوّات أمن لغياب الدولة

بعد سقوط طاغية العراق ، ومن دون جهات تموين غذائي حكوميّة ولا غيرها من المرافق ، مع كلّ ذلك لم تضبط أيّة حادثة ولم ترصد أي إرباك يعكّر صفو أجواء هذه المراسم الدينيّة العظيمة رغم أنّ العديد من الفضائيّات الأجنبيّة ، بل العربيّة ، كانت تتعمّد المراقبة بمسح شامل للوقوف على حادثة تشين من معالم هذه المراسم ليطلبوا ويهوّلوا من حجمها ، ولكن يأسوا من ذلك ، رغم تغطية زيارة سيّد الشهداء والاجتماع في المدينة الفاضلة التي يحلم البشر في مشاهدتها ، فمن هذا الذي يضبط هذا العدد الحاشد من البشر من دون أيّة حادثة تذكر ، هل انقلب هؤلاء البشر الزوّار إلى ملائكة .

إنّ الكهرباء تنطفئ في بعض المدن الأمريكيّة أو المدن الأُوربيّة الغربيّة لفترات قصيرة يسجّل خلالها آلاف السرقات والحوادث ، فكيف في كربلاء ثلاثة إلى أربعة أيّام لم تسجّل أيّة حادثة ، ومن دون مرافق حكوميّة تنظّم المرور والحركة وغيرها من الشؤون الخدميّة البلديّة. هذا الطابع المثالي لمراسم الأربعين حقّاً سطّر أُمثولة للبشريّة عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام .

وهذا هو أحد السبل التي يتمّ من خلالها نشر الإسلام عن طريق نشر مبادئ وأهداف ثورة سيّد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام .

إذاً لا بدّ من التركيز على بناء وسائل الإعلام وتقويتها ، أي أن يكون لنا إعلام قوي نستطيع من خلاله إيصال أفكارنا ، وكذلك الردّ على إشكالات المخالفين بصورة ناجحة ومؤثّرة .

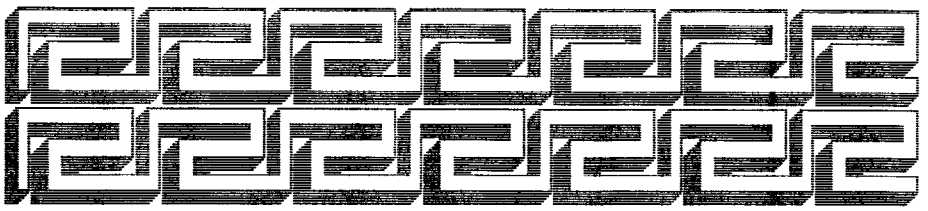

المحاضرة الثالثة

الحسين عليه السلام والخطاب العولمي

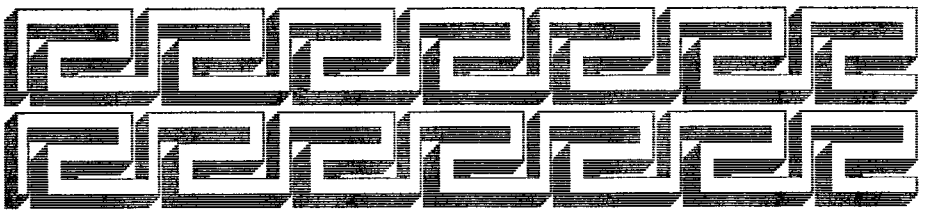

بسم الله الرحمن الرحيم

الشعائر الحسينيّة في دائرة العولمة

إذا أردنا أن ندرس الشعائر الحسينيّة دراسة شاملة لا بدّ أن ندرسها في إطار بحث العولمة؛ وذلك بسبب وجود حالة الانفتاح والحوار بين الأمم، ويمكننا أن ندرس الخطاب الحسيني في إطار العولمة باعتبار أنّ الإمام الحسين عليه السلام إمام معصوم، وهو القرآن الناطق.

وإذا أردنا أن نستخلص خطاباً حسينياً عولمياً يعطي حلولاً للبشريّة ككلّ في شتّى المجالات، فلا بدّ من جعل الكلمات الحسينيّة والخطب الحسينيّة خطابات عالميّة تتضمّن الصفة العولميّة، والتي تضع الحلول لجميع المشاكل التي يمرّ بها العالم.

أهداف الشعائر الحسينيّة

واستكمالاً للحديث السابق في الردّ على الإشكال الذي يقول: إنّ الشعائر الحسينيّة شعائر تتضمّن عقدة الذنب، وإيقاع العقوبة على النفس من أجل التكفير عن الذنب، وأنّها نتيجة الفشل واليأس والتقهقر والانتكاس الذي يعيشه الشيعة، ومرّ علينا أنّه لا بدّ أن ندرس الشعائر الحسينيّة من حيث المضامين التي تنطوي عليها هذه الشعائر من الفداء والتضحية والإباء والتغيير الإيجابي ورفض الظلم، وتحشيد الطاقات من أجل

النهوض بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد وعدم الركون للدنيا وزخرفها وزبرجها والثبات والصمود والاستبسال.

إضافة لما للإعلام الحسيني من دور كبير في توضيح معالم الدين، فالبرغم من أنّه ينطوي على الحزن والجزع إلّا أنّه يضخّ في وجدان الأُمّة وفكرها وروحها أرقى حالات الاستعداد والتفاعل، بل إنّه يعمل على تعبئة النفوس بمفاهيم التضحية والفداء، وهذا ما لا يتناسب مع الكسل والخمول والفشل والتراجع واليأس والتقهقر كما يطرحه هذا الإشكال، وحالة تعبئة الأُمّة بالحماس، وبحبّ الوطن حالة متعارفة عند إرادة المقاومة والصمود.

زيارة الحسين عليه السلام وتحدّي الطغاة

لا شكّ في أنّ زيارة الحسين عليه السلام من المستحبّات المؤكّدة التي ورد الحثّ عليها، ولذلك فإنّنا نلاحظ أنّ الحسينيّين ـ على مر التاريخ ـ يتميّزون بالتفاني، واسترخاص النفس، وبذل الغالي والنفيس من أجل زيارة سيّد الشهداء عليه السلام، بل إنّ هناك العديد من الفقهاء الذين يفتون بجواز زيارة الحسين عليه السلام حتّى مع وجود المخاطر والظروف الأمنيّة الصعبة، إضافة إلى وجود روايات مستفيضة تحثّ على زيارة الحسين عليه السلام، وهنالك العديد من شواهد التاريخ أيضاً على ذلك، ففي رواية يسأل فيها الإمام الصادق عليه السلام أحد أصحابه: «**أتزور الحسين؟**».

فقال: إني أخاف من عيون السلطان؟

فقال الصادق عليه السلام: «**ما أجفاكم بالحسين عليه السلام**»[1].

وغيرها من الروايات الكثيرة التي تؤدّي هذا المضمون، فمن أراد الرجوع إلى

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٠/٣٠٧، باب استحباب التسليم على الحسين عليه السلام، والصلاة عليه، الحديث ٦٤ ١٢٠/٣، مع اختلاف يسير.

معرفتها يجدها في كتاب الوسائل في نهاية كتاب الحجّ[١] ، كذلك الحثّ الشديد على زيارة سيّد الشهداء من قِبل الائمّة عليهم السلام في ظلّ تشديد الدولة آنذاك على الأئمة عليهم السلام ، حتّى أنّ الإمام الهادي والإمام العسكري قد سجنا في سجن عسكري ، ومن المعروف أنّ السجن العسكري خاضع لمراقبة أكثر صرامة من السجن المدني ؛ لأنّ سامرّاء تعتبر قاعدة عسكريّة للجيش ، ولو دقّقنا في الأمر لوجدنا أنّ الإمامين العسكريّين بالرغم من سجنهما العسكري في سامراء ، إلّا أنّهما لم يتركا حثّ الأصحاب على زيارة الحسين عليه السلام وكذلك الإمام موسى الكاظم عليه السلام بالرغم من أنّه قد سجن في سجون مدنيّة ، مع أنّها كانت رديئة ومعاملتهم معه سيّئة ، إلّا أنّ السجن العسكري للإمامين العسكريّين يدلّ على توتّر الأجواء الأمنيّة ، واستنفار الدولة العباسيّة ، وإلّا لما سجن هذان الإمامان في أكبر قاعدة عسكرية لأكبر دولة عظمى آنذاك ، وهذا يدلّ على ترقّب الدولة العباسيّة لظهور الإمام المهدي عليه السلام .

ولم يكتفِ الأئمّة عليهم السلام بذلك ، بل إنّهم حثّوا أصحابهم على زيارة الحسين عليه السلام بالرغم من صعوبة الموقف ، ولهذا فإنّ التاريخ يحدّثنا عن مرض الإمام الهادي في سامراء ، ولم تكن سامراء مدينة كما نراها الآن ، بل كانت قاعدة عسكريّة مدجّجة بالسلاح والجنود ، وقد انتدب الإمام الهادي عليه السلام داود (أبا هاشم الجعفري) ، وهو من كبار تلامذة الإمام ، وفقيه من الفقهاء الكبار ، والذي كان من نسل جعفر الطيّار ، وكان من تلامذة الإمام الرضا والإمام الجواد والإمام الهادي عليهم السلام أيضاً ، وهذا الشخص بالرغم من مقامه العالي عند الأئمّة عليهم السلام وكونه شخصاً عزيزاً لا يفرّط به مع ذلك انتدبه الإمام الهادي عليه السلام للدعاء له تحت قبّة الحسين عليه السلام ، وكان ذلك في زمن المتوكّل المعروف ببغضه للحسين وأهل البيت عليهم السلام ، وفتكه بشيعتهم ، حتّى أنّه كان يقطع أيدي زوّار الحسين عليه السلام .

---

(١) وسائل الشيعة : ١٤ /٤٢٨ ، باب كراهة ترك زيارة الحسين عليه السلام ، فراجع .

فإرسال الإمام الهادي عليه السلام لأبي هاشم الجعفري في هذا الجوّ الخطر، رغم مقامه العلمي الشامخ، يدلّ على اهتمام الإمام البالغ بزيارة الإمام الحسين عليه السلام، وعندما استغرب أبوهاشم الجعفري من هذا الطلب من الإمام المعصوم المستجاب الدعوة قال له الإمام الهادي عليه السلام: «**إن لله تبارك وتعالى بقاعاً يحبّ أن يُدعى فيها**»[1]، ويعني بذلك قبر الحسين عليه السلام.

العولمة في نهج الأنبياء عليهم السلام

إذا نظرنا إلى العولمة بمفهومها العامّ نجدها تنطوي على معنى التوحيد في الرؤية، والتجارة، والقانون، والاتّصال، والسياسة، والأمن، والحاكمية، والثقافة، والفكر، وهي مضادّ للتفرقة والاختلاف والتمييز.

وقد مرّت البشريّة في الأزمنة السابقة بأدوار عديدة مع وجود الرسل الذين كانوا يتميّزون بوحدة الهدف، ويحملون نفس المشروع الإصلاحي الإلهي على الأرض الذي وجد لخدمة النّاس وهدايتهم، فكان هذا المشروع بين الرفض والقبول، وقد تكبّدت البشريّة التي رفضت هذه الرسالات السماويّة خسائر فادحة نتيجة عدم الاستجابة للأنبياء، فعانت من التفرقة والتمييز والعنصريّة، فما ترفع شعاره الدول اليوم ـ وإن كانت بنوايا مخالفة لتلك الشعارات ـ لنشر مشروع العولمة في أرجاء المعمورة قد سبقهم الأنبياء في ذلك، وإن اختلف في مضمون المشروع.

---

(١) مستدرك الوسائل: ١٠/٣٤٧، باب استحباب الإكثار من الدعاء وطلب الحوائج عند قبر الحسين عليه السلام، الحديث ١٢١٥١/٣. تحف العقول: ٣٥٦، ما روي عن الإمام أبي الحسن عليّ بن محمّد عليهما السلام ـ قصار المعاني، بتفاوت يسير. بحار الأنوار: ٩٨/١١٤، باب ٢٣ ـ الحاير، وفضله، ومقدار ما يؤخذ من التربة، الحديث ٣٤ و: ٩٩/٢٥٧، باب ١١ ـ الزيارة بالنيابة عن الأئمّة عليهم السلام، الحديث ٤، ولكن ورد: «**إنّ لله مواطن يحبّ أن يدعى فيها فيجيب**».

إذن الأنبياء يحملون مشروع العولمة الإلـهيّة لجميع البشر فيضمن لهـم السـعادة والنظام والعدل.

نزعة البشريّة نحو التفرقة والاجتماع

لو نظرنا إلى الإنسان نظرة تفحّص وتدقيق نجد أنّ له نـزعتان: إحـداهـما للـوحدة، والأخرى للاختلاف والتكتّل والتحزّب والتفرّق، ومن مظاهر النزوع للاختلاف نظام الحكم الملكي، والنظام السلطاني، ونظام القبائل، ونظام التمييز العرقي المنتشر في افريقيا، وكذلك في الحضارات الغربية فنسمع عن النازية فـي ألمـانيا ـعـلى سـبيل المثال ـ ودورها في توظيف العالم لخدمتهم، وكذلك النظام القـومي الذي بـرز فـي تـركيا، ودور أتـاتورك فـيها، وإيـران والقـومية الفـارسيّة، ودور شـاه ايـران فـيها، والقوميّون العرب وهناك النظام الوطني، فكلّ هذه أنظمة وإن كانت تضمن التوحّد في الإطار الضيق المتمثّل في الوطن والعرق والقومية، ولكنّها تمثّل تفرّقاً على مستوى المجموع البشري والعالم، فهي توحّد من جانب، وتفرّق من جانب آخر. وكـذلك نرى هذه التفرقة على مستوى الطرح الرأسمالي التي تتجلّى فيه التفرقة بـين طـبقات المجتمع بصورة واضحة.

لو ألقينا نظرة على الأُمم المتّحدة التي بدأت بعد الحرب العالميّة الثانية، نـجدها أحد مصاديق الوحدة التي تنشدها المجتمعات الحرّة، ولم تكن هذه تعمل في ضمن محور واحد، بل كانت تعمل على عدّة محاور، منها: محور الثقافة والتعليم المتمثّل في اليونيسكو، وعلى محور القضاء المتمثّل بمحكمة لاهاي الدوليّة، وعلى المحور الاقتصادي المتمثّل في البنك الدولي، وكذلك الوحدة في الأمن المتمثّل في مجلس الأمن والوحدة في القانون مثل الجمعيّة العـموميّة وقـوانـين الأُمـم المـتّحدة العـامّة وقانون الفيتو.

ولو عدنا إلى ما قبل تأسيس الأُمم المتّحدة أو عصبة الأُمم نجد أنّ هنالك تحالفات

سياسيّة وعسكريّة كانت تمثّل حالة التوحّد النسبي ، أي إنّها توحّد من جهة ضيّقة ، وتفرّق من جهة أُخرى ، وهي الجهة التي تمثّل التوحّد العالمي .

وقد ترقّت مظاهر الوحدة هذه إلى أن تجسّدت في الأُمم المتّحدة مع أنّها تعترف بأنّ لكلّ دولة قانونها الخاصّ بها .

فالنزوع الى الوحدة في البشريّة مطلب بشري عامّ يعدّ نزوع بشري فطري نحو المهدويّة وإرهاصات الظهور ، وسوف يتحقّق هذا المطلب في حكومة عالميّة يقودها الإمام المهدي المنتظر الذي سيقيم حكومة عالمية ـ باتّفاق المسلمين ، بغضّ النظر عن بعض الفروقات الجانبيّة ـ تكون في توحّدها أرقى من نظام الأُمم المتّحدة الذي يتعرّض إلى الكثير من الانتقادات من هذه الجهة أو تلك؛ وذلك لما تتمتّع به حكومة الإمام المهدي عليه السلام بقيادة معصومة تستمدّ نهجها من الخط الإلهي والنظرة الإلهيّة للكون والإنسان .

مجالات العولمة

لم يقتصر تطبيق نظام العولمة على مجال خاصّ محدّد ، بل إنّ تطبيقها عامّ وشامل لكلّ المجالات ، فمثلاً : يمكن تطبيقها في النظام العالمي الواحد المتمثّل في النظام السياسي الذي يحكم العالم ، وكذلك النظام العقائدي الذي يوحّد العالم في عقيدته ، والبحث عن القواسم المشتركة بين المذاهب يصبّ في هذا المجال ، باعتبار أنّ الحوار بين المذاهب مقدّمة للحوار بين الأديان ، وأيضاً يمكن تطبيقه على الوحدة التجاريّة والاقتصاديّة والماليّة ، بل أنّ هناك عولمة جغرافيّة وعولمة لغويّة تجعل اللغات لغة واحدة تسود جميع البشر باعتبارها اللغة الأقوى ، وكذلك العولمة في الإعلام ووحدة مشهد الحدث ، حيث ينظر الجميع إلى مشهد واحد من خلال وسائل الإعلام ، بل وحتّى وحدة الأزياء والملابس والعادات والتقاليد ، إلّا أنّ المستكبرين قد وضعوا جلّ جهدهم لأجل عولمة الثقافة والسيطرة على كلّ وسائلها ، وخصوصاً

الجانب الإعلامي؛ لما يتمتّع هذا الجانب بالأهمّية القصوى، حيث من خلاله يمكن السيطرة على الجوانب والمجالات الأُخرى التي تساعدهم في فرض السيطرة على العالم؛ لأنّ الإعلام له دور كبير حتّى في إشعال فتيل الحروب، بل أنّ له دور في إحراز الهيمنة العسكريّة، لا يقل أهميّة عن الجوانب الأُخرى، وكذلك في كسب الأطراف المؤيّدة، وفي بيان أحقيّة الفئة التي تستخدم هذه الوسائل الإعلاميّة في صالحها؛ لأنّ الإعلام يعتمد على الفكر، والفكر هو الذي يؤثّر في صنع الرأي العام، بل وفي اتّخاذ الموقف العسكري المناسب.

وكذلك للإعلام دور في السعي لحاكميّة النظام العالمي الموحّد، وتذويب الأنظمة الصغيرة وجعلها خاضعة إلى النظام العالمي الكبير.

العولمة في العصور السابقة

لم تقتصر العولمة على الأزمنة الحاضرة فقط، بل إنّها قد طبّقت في الأزمنة السابقة، فعلى الصعيد الإسلامي نرى أنّ نهضة سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله وتبليغه لرسالة الإسلام نوع من أنواع العولمة أو عالميّة الإسلام.

وقد عاشت البشريّة عدّة نماذج للعولمة منها دولة الاسكندر أو ذي القرنين، كما يعبّر عنه القرآن الكريم، وقد سمّي ذو القرنين لأنّه حكم المشرق والمغرب، وقد اختلف المفسّرون في أن الاسكندر هو ذو القرنين أم غيره، وقد أسّس ذو القرنين عولمة في جميع المجالات، وعلى مساحة واسعة من بقاع الأرض، وكذلك فإنّ النبيّ سليمان عليه السلام قد مارس نظام العولمة في العصور السابقة، حيث ورد في الروايات عن أهل البيت عليهم السلام أنّه لم يملك الدنيا إلّا أربعة[1]، وعدّ منهم النبيّ سليمان الذي ورد

(١) الخصال: ٢٥٥، باب الأربعة، ملك الأرض كلّها أربعة: مؤمنان وكافران، الحديث ١٣٠. بحار الأنوار: ٥٦/١١، باب معنى النبوّة وعلّة بعثة الأنبياء، الحديث ٥٧.

في القرآن الكريم:

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾(١).

﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾(٢).

وإذا عدنا إلى الأُمم المتّحدة التي تمثّل أحد مصاديق العولمة في الوقت الحاضر، كما ذكرنا ذلك سابقاً، فإنّنا نجدها قد أغفلت العولمة التي حدثت في العصور السابقة؛ لأنّهم يعتمدون على العلوم الحديثة فقط ممّا يجعل طرحهم ناقصاً.

ونحن نعتقد أنّ الجانب الوحيد من جوانب العولمة الذي يكون قادراً على التوحيد الكامل هو ما كان على الصعيد العقائدي.

الأُمم المتّحدة ومفهوم العولمة

بدأت المحافل الدوليّة في تناول مفهوم العولمة في جلساتها بشكل واضح وظاهر للعيان وذلك عندما أُقرّ بأنّ هذا النظام هو الأفضل على صعيد الأنظمة القائمة في الوقت الحاضر، حيث أخذت تلك المحافل بوضع تعريف للعولمة، فعلى صعيد المنظّمة الدولية ـ مثلاً ـ حيث أخذت بتداول هذا المفهوم، ووضعت له تعريفاً خاصّاً وذلك في عام ١٩٩٥م، وهو: «مزج الاقتصاد والسياسة ونظم الاجتماع والثقافة والسلوك بإلغاء الحدود الجغرافيّة والإجراءات الحكوميّة)، ولكن يبقى الكلام في موافقتنا كمسلمين على هذا التعريف، وما هو ردّ فعل مدرسة أهل البيت وكلمات سيّد الشهداء من هذا التعريف، هذا ما سنتعرّض له لاحقاً إن شاء الله.

---

(١) سورة ص: الآية ٢٠.

(٢) سورة ص: الآية ٣٥.

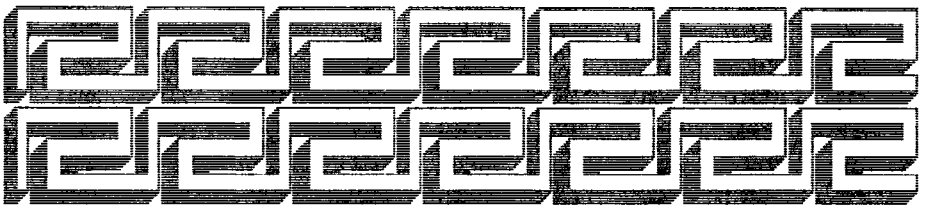

المحاضرة الرابعة

الوحدة الثقافيّة أوّلاً

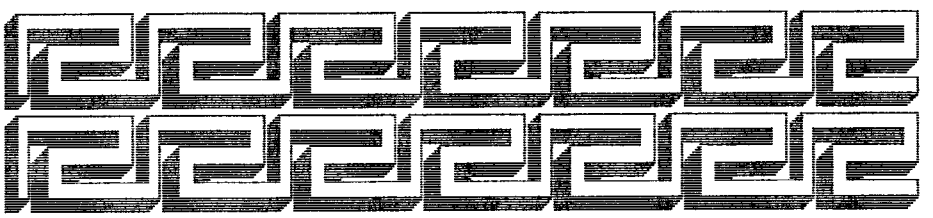

بسم الله الرحمن الرحيم

آلية تطبيق العولمة

ذكرنا أنّ تعريف الأُمم المتّحدة للعولمة هو: «مزج الاقتصاد والسياسة ونظم الاجتماع والثقافة والسلوك».

ولغرض تطبيق هذا التعريف على أرض الواقع فإنّه يحتاج إلى آلية لذلك، وقد ذكروا إنّ الآلية التي تؤدّي إلى تطبيق هذه العولمة هي (إلغاء الحدود، وتفكيك الحلقات الوطنيّة)، والمقصود بالحلقات: الحلقة الأمنيّة، والحلقة الثقافيّة، والحلقة السياسيّة، والحلقة الاقتصاديّة. إذن العولمة تزيل الحدود، وتذيب الحاجز القائم بين قوميات الأُمم المختلفة.

العولمة في الغرب بين النظريّة والتطبيق

إذا أردنا دراسة العولمة فتارة تكون على صعيد النظرية، وأُخرى على صعيد التطبيق. فأمّا على صعيد النظرية: فإنّ التنظير للعولمة قائم على قدم وساق بمطارحات متجاذبة ومتدافعة، ولكن يبقى الإشكال في مجال التطبيق لهذا التنظير، وقد ضرب المفكّرون الغربيّون مثالاً على مسألة تطبيق العولمة على أرض الواقع، وهو الاتّحاد الفيدرالي القائم في الولايات المتّحدة، الذي يضمّ ما يقارب من خمسين ولاية، قائم على

وحدة سياسيّة وأمنيّة ، وكذلك الاتّحاد الأُوروبي الذي يشكّل وحدة قائمة على الوحدة الاقتصاديّة ، وإن كان البعض يرى أنّ الوحدة القائمة في أُوروبا ليست قائمة على أساس اقتصادي ، وإنّما على أساس ديني مسيحي ، ولذلك رفض الاتّحاد انضمام تركيا إلى الاتحاد الأُوروبي باعتبار أنّها بلد مسلم.

ولو دقّقنا أكثر في هذا الموضوع نجد أنّ العولمة في مجال التطبيق عند الأوربيّين لم تصل إلى حالة التكامل الواقعي ، ولهذا ذهب البعض من منظّري العولمة عند الغربيّين إلى القول بإمكان تأسيس وحدة متكاملة قائمة على أساس أمني أو اقتصادي ، وإن كانت الأُمم المتّحدة قد تشكّل البذرّة الأُولى في تكوين الوحدة في النظام السياسي والأمني ، إلّا أنّ ذلك لا يمنع من إقامة نظام أكثر تكاملاً وأوسع شمولاً ، ولذا فقد حاول البعض إقامة نظام عالمي موحّد باعتبار أنّ الأُمم المتّحدة لا تمثّل نظاماً عالمياً موحّداً ، وكذلك الإشكالات التي ترد على هذه المنظّمة الدوليّة.

أمّا الوحدة الاقتصاديّة ، حيث تمثّل منظمة الجات الاقتصاديّة نموذجاً لهذه الوحدة ، والبعض يرى أنّ الوحدة الأساس في كلّ شيء إنّما هي الوحدة الثقافية ؛ إذ لا يمكن لجميع الوحدات أن تتحقّق إلّا إذا تحقّقت الوحدة الثقافيّة ؛ وذلك لأنّ التوحّد يحتاج إلى قانون ، والقانون يندرج تحت مظلّة الثقافة.

إذا نظرنا إلى السلطات في الدولة الحديثة نجدها تتكوّن من : السلطة القضائيّة ، والسلطة التشريعيّة ، والسلطة التنفيذية ، وهذه جميعها داخلة سواء في بناء القانون أو تنفيذه ، والقانون ملف ثقافي وليس ملفاً اقتصادياً ولا سياسياً ، ولهذا فإنّ الفكر هو الذي يتحكّم في شؤون الإنسان وفي غرائزه وميوله ، وهذا ما ينطبق على المجتمع حيث يستطيع الفكر أن يوحّده أو يجعل الفرقة هي السائدة فيه ، ولذلك يرى المفكّرون أنّ الوحدة الموجودة عند المجتمع الإسلامي رغم كلّ المعوّقات والمصاعب ورغم التمزّق السياسي والأمني والاقتصادي إنّما هي وحدة ثقافيّة ،

حيث أنّ هذه الوحدة تعتبر وحدة قوية جدّاً تستطيع أن تجمع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها لأنّها قائمة على أساس فكري.

ولذا فإنّ فلسفة القانون، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والبحث العقلي الفلسفي جميعها تؤكّد أنّ الوحدة الثقافيّة ـ بالمعنى الشامل للثقافة، الذي يضمّ العقائد والأخلاق والآداب والقانون ـ هي الوحدة التي تؤثّر على الجانب السياسي والأمني والعسكري والاقتصادي باعتبار أنّ كلّ هذه الجوانب تتأثّر بالثقافة، لا سيّما بالجانب القانوني من الثقافة.

بل إنّ هذه الجوانب لا يمكن لها أن تتحقّق إلّا بتحقّق الجانب الثقافي، وإذا تحقّقت بالقوّة والضغط فإنّها سرعان ما تتبدّل وتزول، ولذلك نرى ـ مثلاً ـ الإرهاب العسكري قد يقهر الجانب الضعيف، إلّا أنّه لا يبقى بل يزول بمجرّد زوال القوّة العسكريّة، وكذلك في الجانب الاقتصادي وما يعصف بالمجتمعات من الأزمات الماليّة وغيرها، حيث تفرض بعض الدول الدائنة شروطاً تعجيزيّة على هذه الدول، وهذا ما نراه متمثّلاً في الشروط التي يمليها صندوق النقد الدولي، حيث نرى أنّ الدول التي تمرّ بهذه الأزمات قد تستجيب إلى هذه الضغوط طمعاً في المال أو خوفاً من الأزمات الماليّة، ولكن هذه الأُمور لا تتحرّك في دائرة قناعة تلك الدولة بل تتحرّك بتلك الشروط التي أملاها صندوق النقد الدولي.

مفهوم الطاعة عند أهل البيت عليهم السلام

إذا أردنا معرفة مفهوم الطاعة فلا بدّ من الرجوع إلى تراث أهل البيت عليهم السلام، حيث نرى أنّ الطاعة لها عدّة أنحاء، فتارة قد تكون ناتجة عن الحبّ، وأُخرى عن الطمع، وثالثة عن الخوف، والطاعة التي تبنى على الحبّ والاقتناع هي الطاعة المثاليّة والعليا، أمّا الطاعة التي تنتج عن الطمع فهي غير مضمونة، شأنها شأن الطاعة المبنيّة على الخوف.

وما ذكرناه يمكن تطبيقه على تعامل العبد مع باقي الناس ولكن إذا أردنا أن نتكلّم عن طاعة العبد لربّه فالكلام مختلف؛ لأنّه يتحدّث عن علاقة الحبيب مع حبيبه، حيث يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**ما عَبَدْتُكَ خَوْفاً مِنْ عِقابِكَ، وَلَا طَمَعاً فِي ثَوَابِكَ، وَلَكِنْ وَجَدْتُكَ أَهْلاً لِلْعِبادَةِ فَعَبَدْتُكَ**»[1]، وعبارة: «وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك» تدلّ على الحبّ والاقتناع المبني على الفكر والعلم والوجدان.

وهذا ما نراه في دعاء كميل: «**صَبَرْتُ عَلىٰ عَذابِكَ، فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَلىٰ فِراقِكَ؟ وَهَبْنِي صَبَرْتُ عَلىٰ حَرِّ نارِكَ، فَكَيْفَ أَصْبِرُ عَنِ النَّظَرِ إِلىٰ كَرامَتِكَ؟ أَمْ كَيْفَ أَسْكُنُ فِي النّارِ وَرَجائي عَفْوُكَ؟**»[2]، فالخوف من انقطاع العلاقة مع الله أشدّ عندهم: من نار جهنّم.

وهذا ما يرسمه لنا الإمام زين العابدين عند خروجه في منتصف الليالي فيسأله البعض عن سبب خروجه في مثل هذا الوقت المتأخّر، فقيل له: إلى أين يا بن رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال: «**إلى مسجد جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله أخطب الحور العين إلى الله عزّ وجلّ**»[3]. وكان يعني بذلك التهجّد وطاعة الله.

وأهل البيت عليهم السلام عند بيانهم للطاعة المبنيّة على الحبّ ليسوا بصدد نكران الطاعة

---

(١) بحار الأنوار: ١٨٦/٦٧، الباب ٥٣ ـ النيّة وشرائطها ومراتبها وكمالها، الحديث ١، و: ٢٣٤، الباب ٥٤ ـ الإخلاص ومعنى قربه تعالى، الحديث ٦. عوالي اللآلي: ٤٠٤/١، الباب الأوّل ـ المسلك الثالث: في أحاديث رواها الشيخ محمّد بن مكّي في بعض مصنّفاته، بتفاوت يسير، الحديث ٦٣.

(٢) مصباح المتهجّد / الطوسي: ٨٤٧، ٢٥/٩١٠، دعاء آخر وهو دعاء الخضر عليه السلام، دعاء أمير المؤمنين عليه السلام في ليلة النصف من شعبان.

(٣) راجع الكافي: ٥٣٠/٦، باب الغالية، الحديث ٣. وسائل الشيعة: ٢٢٨/٥، باب استحباب التطيّب ولبس الثياب الفاخرة عند التوجّه إلى المسجد، الحديث ١/٦٤٠٧. بحار الأنوار: ٥٩/٤٦، ٥ ـ باب مكارم أخلاقه وعلمه عليه السلام، الحديث ١٣.

المبنيّة على الخوف من الله أو التقليل من شأن الاشتياق إلى الجنة ، وإنّما كانوا بصدد بيان درجات الطاعة ، وأنّ جميع هذه الأنواع من العبادات هي عبادات منجية ، وأنّه لا بدّ للنفس البشريّة أن تحفّز على جاذبية الجنّة ونورانيّتها ولطافتها الأثيريّة المتلألئة وبهجتها وبهائها وسنائها ونعيمها ، كما لا بدّ من الخوف من النار وعقاربها وزفيرها وشهيقها أن يكون له نصيبه .

إذن فجهة الحبّ ، وجهة الخوف ، وجهة الطمع كلّ هذه الجهات مطلوبة للإنسان في هذا الأمر ، وإن كان بينها تفاوت ؛ لأنّ الإنسان له ثلاثة أبعاد ، فالفكر يسبح في عالم المعاني ، ولا يناسبه جمال البدن كما لا يناسبه لسع النار ، فلا بدّ أن يكون الداعي للفكر في عبادته هو الحبّ الإلٰهي وجماله ، وأمّا البعد السبعي الغضبي في الإنسان ، فهذا لا يناسبه إلّا التخويف من النار لكي نستطيع ترويض هذا الجانب ، وأمّا غريزة حبّ التملّك وجانب الشهوة الموجود عند الإنسان ، فلا يناسبها إلّا التشويق بالجنة .

وعلى هذا فإنّ تعبير أهل البيت عن الذين يعبدون الله خوفاً بأنّها عبادة العبيد إنّما يريدون بها أن لا يقتصر الإنسان في عبادته لله على دافع الخوف ويترك جانب الطمع والحبّ ؛ لأنّ هذه أدنى مراتب العبادة ، إذن فأهل البيت ليسوا في مقام ذمّ العبادة خوفاً من النار ، وإنّما كانوا بصدد بيان أنّ هناك مرتبة تفوق هذه المراتب ، ولذلك نرى الكثير من النصوص الشرعيّة ومن آيات القرآن الكريم وفي أدعية أهل البيت عليهم السلام تحتوي على كلمات مؤثّرة في التخويف من النار .

فأهل البيت عليهم السلام في بيانهم لمراتب الطاعة إنّما أرادوا فتح الأُفق أمام الإنسان لكي يطّلع على أنواع العبادة الراقية ويطبّقها جميعاً في حياته ، وما قلناه في عبادة العبيد خوفاً من النار ينطبق أيضاً على عبادة التّجار والطمع في الجنة ، ولكن الأعلى مرتبة هو الذي لا تكون عبادته شوقاً إلى الجنة ولا خوفاً من النار وإنّما للوله والحبّ الإلٰهي الذي يمثّل عبادة الأحرار ، فتتكامل عبادته في جوانبها الثلاثة .

المعرفة والاقتناع ودورهما في الطاعة والاتّباع

ذكرنا سابقاً إنّ النظام العالمي الموحّد لا يستطيع أن يفرض نفسه بالقوّة العسكريّة والأساطيل والجيوش، ولا يستطيع أن يفرض نفسه عن طريق الضغط بالقوّة الاقتصاديّة وبشروط بنك النقد الدولي؛ لأنّ الطرف المقابل مهما وصلت به الحالة من الخضوع والخنوع إلّا أنّ فيه قوّة الحياة والحريّة، ولهذا فإنّه سيتمرّد بمجرّد انتهاء هذه القوّة؛ لأنّه لا ينطلق مع تلك الضغوط من قناعات، وإنّما انطلاقه كان بسبب الظروف التي مرّت به.

وكشاهد على ما نقول فإنّ الرئيس الأمريكي ـ ولعله بوش الأب ـ عندما انتهت الحرب البعثيّة ضدّ الجمهوريّة الإسلامية الإيرانيّة، والتي دامت ثمان سنوات ـ قال حينها: «لقد أخطأنا في حربنا هذه؛ لأنّه بالعمل العسكري زاد عدوّنا قوّة، وأنفقنا الكثير، واستهلكت طاقاتنا، ولم نصل إلى النتائج المرجوّة»، وكان يطرح في خطابه السنوي بديلاً عن الحرب فقال: «سوف ندخل لهم عن طريق الثقافة، وتغيير الفكر الثقافي، وهي وسيلة أقل تكلفة، وأسلم وأنجع وأنفع وأجدى وأكثر تأثيراً».

وهذا ما يؤكّد أنّ الثقافة هي المقدّمة على الجوانب العسكريّة والأمنيّة والاقتصاديّة والماليّة. إذن فالجانب الثقافي هو أهمّ الجوانب قاطبة؛ لأنّه مرتبط بالفكر، فالفكر هو الذي يؤسّس ويغيّر، ونحن نمتلك الفكر، إلّا أنّنا نفتقد وسائل الإعلام التي تنشر هذا الفكر، أمّا أعدائنا فيمتلكون الإعلام ويفتقدون الفكر القوّي.

ومن هنا نحن نؤكّد على الإعلام الذي هو أداة فتّاكة حيث نفتقدها ويتمتّع بها عدوّنا، وهو أهمّ وسيلة آلية في العولمة، هو آلية تطبيقية تنجز الوحدة الثقافيّة، ولهذا يمكن أن يقال إنّ السلاح الثقافي اليوم هو الإعلام.

فالمفكّرون الغربيّون رغم أنّهم يمتلكون آلة إعلاميّة فتّاكة إلّا أنّ فكرهم معرّض للاختراق، ولا يستطيع الصمود أمام الفكر الإسلامي، وفي المقابل فإنّ الفكر

الإسلامي رغم أنّه يفتقد الوسائل الإعلاميّة المناسبة لمقابلة العدوّ إلّا أنّه يتمتّع بقوّة وقدرة على معالجة المشاكل الاجتماعيّة والثقافيّة والفكريّة والاقتصاديّة ، والخوض في شتّى الجوانب والمجالات .

الثقافة بين الغزو والحوار

إذا نظرنا إلى الجانب التطبيقي للعولمة في المجال الثقافي ، فإنّنا لا نرى أنّ هنالك حوار بين الأُمم في هذا الجانب ، بل الموجود هو الغزو الثقافي ، والإمام الحسين عليه السلام حينما حاول فتح حوار مع أعداءه أراد أن يبيّن أنّ الحوار هو أفضل وسيلة لحلّ المشاكل ، إلّا أنّ أعدائه كانوا يغلقون هذا الباب ويفتحون باب الحرب والسهام والسيوف ؛ لأنّهم يعرفون أنّهم لن يصمدوا أمام حوار الحسين عليه السلام ، وكما قال الشاعر في هذا الموقف :

لم أنسه إذ قام فيهم خاطباً ... فإذا همُ لا يملكون خطابا
يدعو ألستُ أنا ابن بنت نبيكم ... وملاذكم إن صرف دهرٍ نابا
هل جئتُ في دين النبي ببدعةٍ ... أم كنت في أحكامهِ مرتابا
فغدوا حيارى لا يرونَ لوعظهِ ... إلّا الأسنةَ والسهام جوابا

وهذا هو ديدن الأئمّة ، فالإمام عليّ في صفّين وفي باقي حروبه لم يبدأ بالحرب ، بل إنّ الحرب بدأها الطرف المعادي له عليه السلام ، وكان يقول عليه السلام : « **لَا يَبْدَأَنَّ أَحَد مِنْكُمْ بِقتالٍ حَتّى آمُرَكُمْ** »[1] ، وكانت جميع الحروب في زمانه عليه السلام حروب مفروضة عليه ؛

---

(١) بحار الأنوار : ١٨٦/٣٢ ، الباب الثالث : باب ورود البصرة ووقعة الجمل ، وما وقع فيها من الاحتجاج ، الحديث ١٣٦ .

وقوله عليه السلام لمالك الأشتر : « **إيّاكَ أَنْ تَبْدَأَ الْقَوْمَ بِقتالٍ إلّا أَنْ يَبْدَؤُكَ** » ـ بحار الأنوار : ٤١٤/٣٢ ، الباب الثاني : باب جمل ما وقع في صفّين ، الحديث ٣٧٤ . تاريخ الطبري : ⇦

لأنّ الطرف المعادي لا يمتلك قوّة الحوار والاقناع العلمي.

إنّ ما يوجد الآن ليس حواراً، بل هو صراع ونزاع؛ لأنّ الحوار يعتمد على طرح الآراء من الطرفين بالتساوي والتوازي والإنصاف، لا أن يفرض الطرف الآخر رأيه عليك يهرج ويشوّه الحقائق ويزيّف الواقعيّة باعتبار أنّه الطرف القويّ وأنت الطرف الضعيف، وهذا يسمّى الغزو الثقافي باعتبار أن الإسلاميّين، الذين يمثّلون الجانب الضعيف في هذه المعادلة، لا يمتلكون الآليات الإعلاميّة الكافية لبيان آراءهم.

وهناك اعتراض على طرح العولمة الذي يسمح لأمريكا أن تفرض آراءها على الآخرين حتّى من قِبل الدول الأُوروبية التي تخشى الغزو الثقافي الأمريكي؛ وذلك لعدم وجود قناعات وآليات متساوية بين الأطراف، وكذلك تفتقد هذه العولمة إلى العدالة والمساواة بين الأطراف.

ومن المعروف أنّ اليهود يمتلكون الكثير من النفوذ في أمريكا، ولهم اليد الطولى في قضية العولمة، ولهم أهداف ومآرب.

ومن آثار هذه العولمة هو نشر جنون الجنس وجنون الإثارة والهستيريا الجنسيّة وليس الجنس هو السلاح الوحيد الذي يمتلكونه، بل أنّ هناك وسائل وأسلحة أُخرى يقومون باستخدامها، خصوصاً ضدّ المجتمعات الإسلاميّة، ولهذا فإنّ الآباء والأُمّهات والإخوان والأخوات مدعوّون لمواجهة هذه الهجمة الشرسة في ظلّ غياب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

⇦ ٢٧١/٤، ما أمر به عليّ بن أبي طالب من عمل الجسر على الفرات.

ووردت أيضاً: «**أَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَهُمْ بِالْقِتالِ**» من الإمام الحسين عليه السلام في طفّ كربلاء - راجع مستدرك الوسائل: ٨٠/١١، باب استحباب إمساك أهل الحقّ عن الحرب حتّى يبدأهم به أهل البغي، الحديث ١٢٤٧١/١.

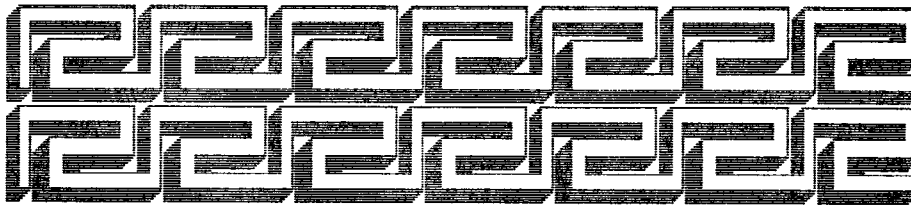

المحاضرة الخامسة

نعترف بالشعوب ولا نجعلها أساساً للمفاضلة

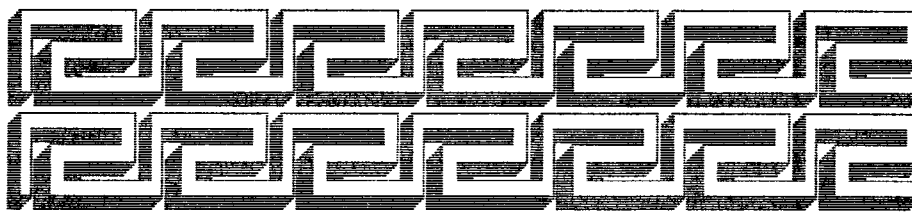

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام الحسين عليه السلام وخطاب العولمة

من ضمن خطابات سيّد الشهداء عليه السلام، والتي سندرسها في ظلّ خطاب العولمة قوله عليه السلام: **«فلعمري ما الإمام إلّا العامل بالكتاب والآخذ بالقسط ، والدائن بالحقّ ، والحابس نفسه على ذات الله»**[1]، والإمام هو تعبير عن رئاسة البشريّة المنصبّة من قِبل الله تعالى.

وقال عليه السلام: **«وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنّة نبيّه ، فإنّ السنّة قد أُميتت ، وإنّ البدعة قد أُحييت»**[2].

وقال عليه السلام: **«إنّا أهل بيت النبوّة ، ومعدن الرسالة ، ومختلف الملائكة ، بنا فتح الله ، وبنا ختم الله ، ويزيد رجل فاسق ، شارب الخمر ، قاتل النفس المحرمة ، معلن بالفسق ، ومثلي لا يبايع مثله»**[3].

---

(١) تاريخ الطبري: ٥٦١/٤ ، ذكر الخبر عن مراسلة الكوفيّين الحسين عليه السلام. مثير الأحزان / ابن نما الحلّي: ١٦ ، المقصد الأوّل.

(٢) تاريخ الطبري: ٥٦٤/٤ ، يزيد يضمّ المصرين إلى ابن زياد. البداية والنهاية / ابن الأثير: ١٧٠/٨ ، قصّة الحسين بن عليّ ، وسبب خروجه من مكّة في طلب الإمارة ، وكيفيّة مقتله.

(٣) بحار الأنوار: ٣٢٥/٤ ، الباب ٣٧ ـ باب ما جرى عليه بعد بيعة النّاس ليزيد إلى شهادته ، الحديث ٢. اللهوف في قتلى الطفوف: ١٧ ، أخذ بيعة الحسين عليه السلام ليزيد.

فالإمام الحسين عليه السلام يؤسّس محاور النظام الاجتماعي والسياسي للمسلمين وللبشريّة، حيث يقوم هذا النظام على كتاب الله وسنّة نبيّه صلى الله عليه وآله والعدل والقسط و...، وهو متمسك بهذه المبادئ في صراعه مع بني أُميّة. وسنرى أنّ هذه الأُسس لا بدّ منها في إرساء الوحدة البشريّة والسلم والأمن المنشود.

منابع الوحدة والتفرقة عند الإنسان

لا شكّ أنّ غريزة التفرقة عند الإنسان إنّما تتمثّل بالقوّة الغضبيّة، والقوة الشهويّة، وحبّ التملّك، والانتماء إلى العائلة والقبيلة والقوميات والأعراق، وهذا الانتماء يحثّ الإنسان على التفرقة والنظر بعين مختلفة إلى الآخر، وهناك أيضاً منابع لغريزة الوحدة والتوحّد مع الآخرين عند الإنسان المتمثّلة بروح الإنسان، فلا يمكن تمييز روح عن روح، ولا يمكن وصف الروح بأنّها في ذاتها روح عربيّة أو أعجميّة، سوداء أو بيضاء، شرقيّة أو غربيّة، شماليّة أو جنوبيّة، روح أفريقيّة أو آسيوية، وهذه الوحدة الروحيّة تشمل الذكر والأُنثى، فكلّها روح إنسان.

إذن التفرقة من الأرض، ومن الطين، ومن الجغرافيا، ومن الإنسان نفسه الذي يكبّل نفسه بأنواع من القيود والتفرّقات، وأمّا النزوع نحو التوحّد والوحدة فهو كامن في أصل خلق الروح الواحدة التي خلقها الله تعالى في النوع البشري.

نزعات الإنسان في القرآن الكريم

قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدىً فَمَن تَبِعَ هُدَايَ

(١) سورة البقرة: الآية ٣٦.

﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١).

فالقرآن الكريم يشير إلى أنّ الإنسان في داخله يحمل نزعتين: النزعة الأُولى تتمثّل في نزعة العداوة المصاحبة للهبوط إلى الأرض، وقال المفسّرون: إنّ العداوة مترتّبة على التعب والنصب والكدح التي تحتاج إليها الحياة الدنيا، فيحتاج الإنسان إلى القوّة الغضبيّة لكي يحمي نفسه، ويحتاج إلى القوّة الشهويّة لكي يأكل ويشرب وينكح ويتكاثر.

وهذه القوى عندما تنظّم تخدم الإنسان، ولكن عندما تنفلت فإنّها تسبّب الكوارث، والحروب، والاعتداءات، وانتهاك الأعراض، وسفك الدماء، والفساد في الأرض، وغصب الأموال، ونشر الظلم.

والنزعة الثانية هي قابليّة الإنسان للرقي والتكامل، والتنزّه عن الانحطاط، وتقبّل الهداية الإلهيّة، ولهذا فالآية الكريمة تشير إلى أنّ هدى الله هو الضمان وصمام الآمان للإنسان لكي يحافظ على السلام والحبّ والعدل وخدمة البشر، والاستقرار النفسي والروحي والسيطرة على الغرائز والشهوات.

فالدين الإسلامي لا يتنكّر لنزعات التفرقة، ولا يدعو إلى هدمها، بل يعتبرها من حكمة الله، ولكنّه يحاول ترشيدها وتهذيبها ويحذر من الإفراط فيها، أو التمادي؛ لأنّه قد يسبّب الحروب والكوارث والظلم، وهذا ما جعل الملائكة في مقام الاعتراض على استخلاف الإنسان، فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾(٢).

---

(١) سورة البقرة: الآية ٣٨.

(٢) سورة البقرة: الآية ٣٠.

الوطنيّة والقوميّة في نظر الإسلام

قد يطرح سؤال في البين هو: هل أنّ الإسلام يعترف بالقوميّة والوطنيّة والعنصر والهوية أم أنّه ينفيها تماماً؟

فآيات القرآن الكريم، وكذلك الأحاديث الشريفة، نجدها لا تنكر ولا تنفي ولا تدعو إلى إزالة الهويات والانتماء إلى الوطن أو العرق أو القوم.

ونحن نعتقد بخطأ الرأي القائل: إنّ الإسلام لا يعترف بالمواطنة والقوميّة والهوية التي يتّصف بها الإنسان، بل أنّه لا بدّ من بحث المسألة بين جانبي الإفراط والتفريط.

فذهب البعض إلى الإفراط في هذه المسألة، بينما ذهب البعض الآخر إلى التفريط فيها، إذن فالإسلام موقفه واضح وتبيّنه آيات سورة البقرة التي توازن بين الإفراط والتفريط في هذه المسألة. فالإسلام يعترف بالمواطنة والهوية القوميّة والعرقيّة، ولكنه يوازنها مع الوحدة المتمثّل في الجانب الروحي الذي يتحرّك في أجواء الهداية التي تطرحها الآيات المذكورة، والتقوى التي هي أساس التفاضل. وأمّا القوميات والوطنيات والعنصريات والأعراق المختلفة إنّما هي آليات للمعيشة وليست أُسساً للتقييم، فلا يمكن تقييم الإنسان وتفضيله بموطنه أو قوميّته أو عنصره أو عرقه.

التمايز القبلي في القرآن وحكمته

لا شكّ أنّ القرآن الكريم يعترف بالتمايز القبلي بين النّاس، حيث أنّ التصريح في آياته بهذا التمايز يدلّ على عدم رفضه، كما في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾[1].

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

ولبيان الأمر جليّاً نرى أنّ في هذه الآية عدّة ملاحظات :

الملاحظة الأُولى : هي أنّها خاطبت الناس جميعاً .

والملاحظة الثانية : أنّها ساوت بين جميع البشر من خلال رجوعهم جميعاً إلى آدم وحواء ، فالمصدر واحد ولا تفاضل بين هذا وذاك .

والملاحظة الثالثة : أن الآية قالت : ﴿ **شُعُوباً** ﴾ وهي جمع شعب ، إذن الآية تعترف بتعدّد الشعوب ، وكذلك ﴿ **قَبَائِلَ** ﴾ فهو اعتراف واضح بتعدّد القبائل ، بل أنّ هناك آيات أُخرى تؤكّد تعدّد الأوطان ، وتعدّد في الأنساب ، كما في قوله تعالى : ﴿ **ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللهِ** ﴾[1] .

وبعد أن اعترفت الآية بكلّ هذه النزعات التي تميّز البشر ذكرت أنّ الحكمة من خلق الإنسان في مجموعات تمثّلها الشعوب والقبائل ، هو : ﴿ **لِتَعَارَفُوا** ﴾ ، حيث ذهب بعض المفسّرين إلى بيان معنى التعارف ، وهو المعرفة الشخصيّة ، أي يعرف كلّ منّا صاحبه ، فلو كان كلّ البشر بنفس اللون ونفس القالب ونفس الشكل فسيستحيل معه النظام الاجتماعي ، ويزول الأمن البشري ، ويختلّ النظام الاجتماعي فلا تعرف حينها مع من تعاملت ، وإلى مَن أحسنت ، وإلى من أسئت ، وممّن تزوّجت ، وممّن اشتريت ، وممّن بعت ... الخ .

وذهب البعض الآخر من المفسّرين إلى أنّ التعارف بمعنى التبادل ، أي يتبادل بعضكم بعضاً الخبرات والتجارب ، وهذه هي العولمة ، فالقرآن الكريم بحث موضوع العولمة المبنيّة على الحوار وتبادل الاستفادة بين جميع الشعوب والقبائل .

وللأسف الكبير فإنّ الكثير من الشباب الجامعيّين والمثقّفين يسمعون بأبحاث الغرب الجديدة واكتشافاتهم ، ويدّعون أنّ الدين لم يصل إلى هذه المرحلة من التطوّر

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٥ .

ـ نظراً لعدم اطّلاعهم الكافي ـ فيصيبهم الإحباط والتراجع عن الفكر الديني والانبهار بالغرب وما يطرحه من أفكار.

ولكن على هؤلاء الشباب أن يعرفوا المصطلحات اللغويّة الحديثة وما يرادفها من مصطلحات في القرآن وألفاظ الشريعة، حيث نجد أنّ الكثير من المصطلحات الحديثة كانت موجودة في القرآن الكريم ولكن بألفاظ مرادفة لها، والشواهد على ذلك كثيرة.

إذن فهناك جوانب ثابتة وجوانب متغيّرة في الإنسان، فالبيئة والوطن والعرق جوانب متغيّرة، أمّا جانب الروح وكمالات الروح والأُمور التي تصلح الروح وتفسدها والقيم الأخلاقية هذه أُمور ثابتة وليست متغيّرة.

فغريزة الأكل والشرب والغضب والشهوة والعقل كلّ هذه الأُمور ثابتة في كلّ زمان ومكان. نعم، قد تتغيّر المصطلحات والألفاظ ولكن المعاني هي هي لم تتغيّر، ولهذا فهناك معالجات عديدة يطرحها القرآن الكريم ولكن بلغته وبمصطلحاته.

كما ذكرنا في المحاضرات السابقة ـ على سبيل المثال ـ مصطلح اللعن ومرادفاته الحديثة المتمثّلة في الشجب والاستنكار والرفض والبراءة من الطرف الظالم.

دعوة أهل الاختصاص لخدمة الدين

في بداية الأمر نوجّه عتبنا على النخب المتخصّصة؛ لأنّه بإمكانهم المساهمة في خدمة الدين من خلال تخصّصاتهم المختلفة، فالأطباء مدعوّون لبحث الطبّ الديني، وكذلك علماء النفس، فهم مدعوّون إلى الاطّلاع على التراث الديني وأحاديث أهل البيت عليهم السلام في معالجة المشاكل النفسيّة، والاقتصاديّون مدعوّون إلى الاطّلاع على توصيات الدين في الجانب الاقتصادي؛ لأنّهم بذلك يستطيعون خدمة الفقهاء في مجال تخصّصهم، وهكذا بالنسبة للسياسيّين والإداريّين مدعوّون لدراسة عهد الإمام

عليّ عليه السلام لمالك الأشتر ، إذ نلاحظ أنّ كوفي عنّان الأمين العام للأُمم المتّحدة ، ذلك المسيحي الذي لا صلة له بعليّ عليه السلام لا في اللغة ولا في القوم ولا في الدين ، قد طالب بأن تكون مقولة الإمام عليّ عليه السلام لمالك الأشتر : «**الناس إمّا أخٌ لك في الدين ، وإمّا نظير لك في الخلق**»[1] شعار لجميع المنظمات الحقوقيّة في العالم ، وطالب أن تصوّت دول العالم على أن يكون عهد عليّ عليه السلام لمالك الأشتر مصدراً من مصادر الأُمم المتّحدة ، وفعلاً صوّتوا على ذلك ، فأين نحن من هذا التراث وماذا قدّمنا له ؟ وقد ذكرت بعض التقارير الصادرة من بعض مكاتب منظّمة الأُمم المتّحدة أنّ المنظّمة تعتمد على تراث الإمام عليّ عليه السلام في بعض تشريعاتها ، ونحن مطالبون بإقامة مؤتمر أو حفل لتعظيم هذا الحدث الذي يعدّ بيعة غدير عالميّة جديدة .

ولذا فنحن نرجو من الاخوة الأعزّاء من الأساتذة والمثقّفين أن يسعوا إلى تحقيق أعلى مراتب العلم والوصول إلى النجوميّة العلميّة في كلّ المجالات لكي نرسم صورة مشرّفة لديننا ومذهبنا ووطننا .

المناط الحقيقي لتقييم الإنسان

لو نظرنا إلى مكوّنات الإنسان نجد أنّه يتكوّن من البدن الذي يمثّل الجانب المادي ، والروح التى تمثّل الجانب المجرّد ، وبطبيعة الحال فإنّ المجرّد أشرف من المادي ، ولا يمكن تقييم الإنسان ببدنه وعنصره المادي ؛ لأنّ جوهر الإنسان هو في روحه ، فيكون تقييم الإنسان بما تحصل عليه الروح من الكمالات والرقيّ ، وكذلك قيمة الإنسان في تقواه ، كما أشارت الآية الكريمة المتقدّمة من سورة الحجرات ، فالقرآن الكريم بخطاباته يهذّب وجود التعدّد ويطالب بعولمة الهداية والتقوى واعتبارها

---

(١) نهج البلاغة : ٤٢٦ ـ رسائل أمير المؤمنين عليه السلام ، الرسالة ٥٣ ، كتاب له عليه السلام كتبه للأشتر النخعي لمّا ولّاه مصر وأعمالها . تحف العقول : ٩٠ ، عهده إلى الأشتر حين ولّاه مصر وأعمالها .

أساساً للتفاضل؛ لأنّها تمثّل الجانب الأرقى والأشرف؛ ولأنّ موضوعها يكون الروح والعقل. ولهذا نجد أنّ القرآن يطلق كلمة (القرى) على المدن التي لا تتمتّع بالعناية الروحيّة، بينما يطلق كلمة (المدينة) على القرية التي تعتني بالروح وتهذّب النفس كما في سورة يس؛ لأنّ القرآن الكريم ينظر إلى المدنيّة الروحيّة ويعطيها الجانب المتقدّم على المدنيّة الماديّة.

فكلّ ما يحصل من حضارة للبدن أو الصناعة وإن كانت مطلوبة، ولكنّها لا تستطيع أن تسمو بالإنسان إلى الدرجات العالية والقرب من الله، بل إنّ كلّ هذا يحصل بالتكامل الروحي، ولذلك فإنّ التخلّف قد يكون تخلّفاً روحياً، وقد يكون تخلّفاً مادياً، وهناك عدّة شواهد على أنّ الحضارة الغربيّة رغم ما توصّلت إليه من مستوىً راقٍ في الجانب المادي إلّا أنّها تعيش في صحراء روحيّة قاتلة.

ومن الشواهد التي ينقلها لنا التأريخ، والتي تؤيّد ما ذكرناه من أنّ التقييم إنّما يتمّ بالروح وليس بالبدن والشكل هو ما حصل مع لقمان الحكيم، حيث كان حبشياً أسوداً، وكان من أقبح الناس وجهاً، وقد خيّره الله بين النبوّة والحكمة، فاختار الحكمة، ومع ذلك كان النبيّ داود عليه السلام يستأنس به مع أنّ النبيّ داود عليه السلام كان بهي المظهر، وله السؤدد على بني إسرائيل والملك العظيم، كان يأنس بلقمان ويجالسه ويستمع الحكمة منه.

إذن فالمظهر ليس كلّ شيء، بل هو لا يمثّل شيء إذا لم يستند إلى الجمال الروحي، ولذلك فالآيات السابقة على الآية التي ذكرناها في سورة الحجرات قالت: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِن نِسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ** ﴾[1].

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١١.

فالآية المباركة في مقام النهي عن الاستهزاء والسخرية؛ ذلك لأنّ المظهر قد يكون مظهراً بسيطاً، بينما نجد الجوهر عظيماً، ولذلك نهت الروايات عن الاستهزاء بشخص ما، فقد يكون هذا الشخص عبداً مقرّباً من الله ووليّاً من أوليائه فيغضب الله له.

فالقرآن الكريم يشير إلى نظرية بالغة الأهمية في الحضارة والثقافة، وهي نظريّة التكافؤ الخلقي بين النّاس، ونحن نعيش تحدياتها في الوقت الحاضر، بل وفقدانها، وقد أشار القرآن الكريم إلى أنّ الأُمم أو الأقوام أو الدول تعيش حالة التحقير، والاستنقاص، والسخرية، والاستهزاء، والتوهين، والإهانة، والتناكر، والتهكّم، والتنفر، والتقبيح، والطعن، والتذّمر، والنبز، والغمز، واللمز، وفاقدة لمقابله من: التحسين، والمعاضدة، والتعارف، والاحترام، والتجميل، والاستصلاح، والانجذاب، والمعاضدة، والتوقير، والتبجيل، والميل.

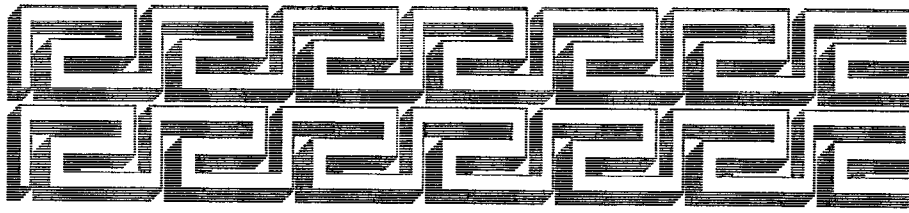

المحاضرة السادسة

نتائج اهتمام المجتمع بقيمه ونتائج إهمالها

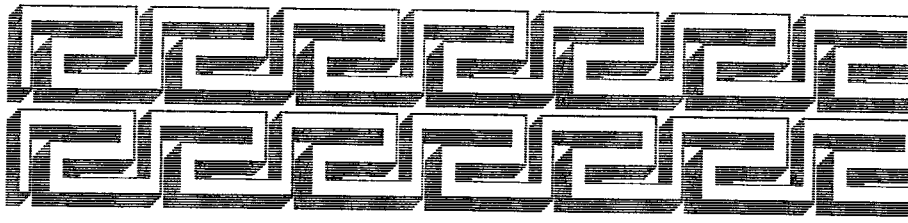

بسم الله الرحمن الرحيم

شعر منسوب إلى الحسين عليه السلام

من الأشعار التي تؤثر عن سيّد الشهداء ظهر عاشوراء قوله عليه السلام :

أنا ابن علي الخير من آل هاشم ... كفاني بهذا مفخراً حين أفخر
وجدّي رسول الله أكرم خلقه ... ونحن سراج الله في الأرض يزهر
وفاطم أمّي من سلالة أحمد ... وعمّي يدعى ذا الجناحين جعفر
ونحن ولاة الحوض نسقي وليّنا ... بكأس رسول الله ما ليس ينكر
وشيعتنا في النّاس أكرم شيعة ... ومبغضنا يوم القيامة يخسر[1]

فلا يعتبر الفخر من الإمام عليه السلام نوع من أنواع التعصّب للحسب والنسب ؟ بل هو فخر بالدين والقرب من ربّ العالمين ومن رسول الله صلى الله عليه وآله ، وما أعطاه الله لأهل البيت يوم القيامة .

وقد قلنا : إنّ الدين لا يلغي النسب والقبيلة والانتماء إلى الوطن ، ولكنّه يرفض أن

---

(١) راجع مناقب آل أبي طالب : ٤/٨٨ ، باب في إمامة أبي عبدالله الحسين عليه السلام ، فصل في تواريخه وألقابه . بحار الأنوار : ٤٥ /٤٩ ، بقيّة الباب ٣٧ ـ سائر ما جرى عليه بعد بيعة النّاس ليزيد بن معاوية إلى شهادته ، بتفاوت يسير .

تكون هي مناط التفاضل ، بل يجعل التقوى هي المناط في التفاضل بين البشر .

القيم الاجتماعيّة بين القبول والرفض

هناك العديد من الأفعال التي يمارسها البشر ، سواء كانت الصالحة منها أو الطالحة ، تتفشّى من خلالها القيم الاجتماعيّة الصحيحة أو القيم الخاطئة ، ولتوضيح المطلب جيّداً نذكر بعض الأفعال الطالحة وما يقابلها من صالح الأعمال : فالتنافر ويقابله التعارف ، والتحسين ويقابله التقبيح ، والاستنقاص ويقابله الامتداح ، والسخرية والاستهزاء والتهكّم ويقابلها الاحترام والتوقير والتبجيل ، واللمز والغمز والطعن ويقابله الفخر والتعريف والتجميل ، النبز ويقابله الاستصلاح ، التذمّر والتنفّر ويقابله الانجذاب والميل ، التوهين والإهانة ويقابله المعاضدة والمساندة .

فإنّ هذه الأفعال ، سواء كانت الصالحة منها أو الطالحة ، عندما يمارسها المجتمع فهي تشير إلى تقبّل المجتمع لها ، وبالتالي تؤدّي إلى تفشّي القيم الصحيحة أو الخاطئة فيه ، ولكن عندما يقبّح المجتمع فعلاً معيّناً فإنّه دليل على أنّ هذا الفعل قد سلب منه ، إذن القيم قد توجد في هذا المجتمع وقد تلغى منه ، سواءً كانت هذه القيم قيماً سامية تمثّل الفضيلة ، أم قيماً هابطةً تمثّل الرذيلة .

فالآية المذكورة في سورة الحجرات التي تتكلّم عن السخرية والاستهزاء ، إنّما أرادت أن تبيّن أنّ المظاهر الخارجيّة ليست عنواناً لتقييم الإنسان ، بل إنّ الجواهر والذاتيّات للنّاس هي عنوان المفاضلة ، وكذلك أرادت أن تبيّن أنّ هناك قيماً عالية لا بدّ من نشرها في المجتمعات ؛ لأنّه كلّما كانت هذه القيمة قيمةً حسنةً فإنّها تكون عاملاً أساسيّاً في تكامل المجتمع ، وبالتالي على المجتمع أن يقوم بتثبيتها من خلال احترامها وتبجيلها ومساندتها ؛ لأنّ ذلك بحدّ ذاته أمر حسن وممدوح ويرضي الله تعالى ، أمّا إذا كانت القيم التي احترمها ذلك المجتمع قيمة هابطة ورذيلة ، فإنّ هذا الأمر يبعث على غضب الله وفساد الفرد والمجتمع ، وستتبدل هوية المجتمع من مجتمع صالح إلى

مجتمع فاسد. وهذا الأمر نفسه كان سبباً رئيسياً في ثورة سيّد الشهداء عليه السلام، حيث يقول: «**أَلَا تَرَوْنَ أَنَّ الْحَقَّ لَا يُعْمَلُ بِهِ، وَأَنَّ الْبَاطِلَ لَا يُتَنَاهىٰ عَنْهُ**»(١).

ولو نظرنا إلى الآية المباركة في قوله تعالى: ﴿**لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِن نِسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ**﴾(٢)، ليتسنّى طرح هذا السؤال التالي: ما هو معيار الخيريّة والشرّيّة، ومعيار الحسن والقبح، وهل هو الفطرة والعقل الجماعي أم غيرهما؟

قراءة النصوص على ضوء الفطرة والعقل

فقد ذهبت المدارس المنطقيّة المختلفة التي تعتمد في تصويب الأمر أو تخطّئته ـ في أي علم من العلوم، حتّى في العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة ـ على الجانب الفكري فقط، إلى أنّ ذلك يتمّ من خلال المعرفة الفكريّة لهذه الأمور، بينما ذهبت مدرسة المنطق التي تنتمي إلى فكر الإسلام وأهل البيت عليهم السلام إلى أنّ النفس الإنسانيّة ليست جانباً فكرياً تجريبياً فقط، بل إنّ النفس الإنسانيّة تؤثّر فيها مجموعة قواها، كما ورد في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «**حبّك للشيء يُعمي ويصمّ**»(٣)، فإنّ حبّ

---

(١) تحف العقول: ١٧٤، ما روي عن الإمام السبط الشهيد عليه السلام، قصار هذه المعاني. مناقب آل أبي طالب / ابن شهرآشوب: ٧٦/٤، فصل في مكارم أخلاقه عليه السلام. بحار الأنوار: ١٩٢/٤٤، الباب ٢٦ ـ باب مكارم أخلاقه عليه السلام، الحديث ٤.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١١.

(٣) الفقيه: ٢٥٧/٤، باب النوادر ـ من ألفاظ رسول الله صلى الله عليه وآله الموجزة، الحديث ٥٧. عوالي اللآلي: ١٢٤/١، الفصل السابع: في أحاديث تتضمّن مثل هذا...، الحديث ٥٧.

وقد ورد أيضاً: «عين المحبّ عمية عن معايب المحبوب، وأُذنه صمّاء عن قبح مساويه» ـ غرر الحكم: ٤٨١، الحديث ١١٠٦١، القسم السادس: الاجتماعي وما فيه، الباب السادس: في المواعظ الاجتماعيّة.

الشيء يعمي الإنسان عن تقبّل الحقائق.

ولا يقتصر الأمر على الحبّ، بل أنّ بغض الشيء أيضاً يعمي ويصمّ، وكذلك تربية الإنسان فإنّها تؤثّر في تفكيره وإدراكه لما هو حسن وما هو قبيح، ولا يمكن أن نطمئنّ لاستنتاجاتنا إذا كانت نفوسنا ليست طاهرة؛ لأنّ البديهيات والفطرة الإنسانيّة أيضاً قد تكون محجوبة أو ممسوخة ومقلوبة، وحتّى العقل الجماعي في المجتمع غير المؤمن يكون عقلاً مقلوبا منكوساً، فحينها تتبدّل الأعراف والسير الإنسانيّة، ألا ترى إلى قوم لوط وعاد وثمود وأصحاب الأيكة وغيرهم ممّن حلّ عليهم الغضب الإلهي، فإنّ غالب وجلّ تلك المجتمعات استحسنت القبائح واستقبحت المحاسن، فانتكست، وعليه فلا يمكن لنا أن نتقبّل القول الذي يقول: «إنّه يجب قراءة النصّ على وفق العقل الجماعي»؛ لأنّه كيف نستطيع التعامل مع عقل منكوس ومقلوب وممسوخ ونغيّر النصّ إلى فكر منحرف، وحيث أنّ المجتمع قد احترم القيم الهابطة فإنّه أصبح مجتمعاً هابطاً فاسداً، فلا بدّ أن يكون تقييمه وعقله وقضاءه وآراءه فاسدة، وحينها تكون قراءة النصّ وفق نظرة المجتمع المنحرف انحرافاً، ولا يجدي التبرير بأنّ الدين يجب أن يواكب العصر والأعراف المختلفة والتغيّرات الاجتماعيّة؛ لأنّ الدين يواكب المتغيّرات إذا لم تصطدم مع ثوابته، ولا يمكنه أن يواكب قيم الانحراف والهبوط الفكري والأخلاقي والرذيلة؛ لأنّه ينهى عن فعلها ويأمر النّاس بتركها لترتّب الآثار السيّئة عليها كما في الحديث: «**لتأمرن بالمعروف، ولتنهنّ عن المنكر، أو ليسلطنّ الله عليكم شراركم، ثمّ تدعون فلا يستجاب لكم**»[1]، بل إنّ الفطرة قد تتأثّر أيضاً بالبيئة والتربية الفاسدة كما في الحديث: «**كلّ مولود يولد على الفطرة، وإنّما**

---

(١) الكافي: ٥/٥٢، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الحديث ٣، باختلاف يسير. مجمع الزوائد /الهيثمي: ٧/٥٢٦، كتاب الفتن ـ باب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وفيمن لا تأخذه في الله لومة لائم، الحديث ١٢١٣٤.

أبواه ينصّرانه أو يهوّدانه أو يمجّسانه»[١]، إذن فالفطرة قد تتلوّث فتصبح فطرة منكوسة، ولا يمكنها بعد ذلك من القيام بما يلزمها ولا تستطيع أن تعكس الحقائق بوضوح؛ لأنّها تصبح كالمرآة التي يغطّيها التراب، فلا يمكنها العمل بالصورة الصحيحة، وبالتالي لا تكون الفطرة مجالاً من مجالات قراءة النصوص، وهكذا بالنسبة للعقل الجماعي.

من أبعاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

لا يقتصر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على الجانب النظري فقط، بل لا بدّ أن يكون الجانب العملي له دوره الكبير في ذلك؛ لأنّ من أبعاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن نقبّح القبيح عملاً، وأن لا نستحسنه أو نحترمه أو نجمّله، حيث أنّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا يقتصر على كلمة نطلقها هنا أو هناك، بل هو تقبيح القبيح والاستهزاء به ونبذه ورفضه ونكرانه والتهكّم به والسخرية به وطعنه ولمزه وغمزه ـ ولكن يبقى ضمن الحدود الشرعية ـ.

فالأمر بالمعروف يعني أنّه هناك مجموعة من القيم السامية الإلـهيّة يكون المجتمع مسؤول عنها وعن الحفاظ عليها وعن تسليمها للأجيال القادمة بنقائها وصفائها، وأن نفتخر بالمعروف ونعزّزه في المجتمع وندعو إليه.

وأمّا الإستهزاء بالمنكر ورفضه ونبذه فهذا يشكّل مصداقاً من مصاديق النهي عن المنكر، وإذا افتقد المجتمع هذه الحالة فإنّه يمرّ في حالة خطيرة جداً تهدّد علاقته بالله

---

(١) بحار الأنوار: ١٨٧/٥٨، باب ٤٤ ـ حقيقة الرؤيا وتعبيرها، الحديث ٥٢، باختلاف يسير. صحيح البخاري: ٤٥٧/١، باب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات، الحديث ١٣٥٨ و ١٣٥٩، باختلاف يسير. صحيح مسلم: ٤٢٥/١٦، كتاب القدر، الحديث ٦٧٠٠ ـ ٤/٢٣ و: ٦٧٠٢ ـ ٦/٢٤، باب كلّ مولود يولد على الفطرة.

تعالى وبمبادئ الدين وقيمه. وهذا يؤدّي إلى الانحطاط والتسافل في المجتمع، وبالتالي لا يقوم المجتمع في إيصال رسالته العظيمة.

دعوة القرآن الكريم للإصلاح المبني على العدل

ذكرنا سابقاً أنّ العولمة لا تقتصر على مجال معيّن، بل أنّها ممكنة التطبيق في جميع المجالات؛ لصلاحيّة ذلك المجال لتطبيقها، وقد حاول القرآن الكريم، وخصوصاً في الآيات ٦ ـ ١٣ من سورة الحجرات[1] أن يعالج موضوع العولمة من جهات مختلفة، ويوازن بين جهات الوفاق وجهات الاختلاف.

وكذلك توجد آيات قد تناولت بحث العولمة من جهات أُخرى وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ

---

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ * وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَٰكِنَّ اللهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ * فَضْلاً مِنَ اللهِ وَنِعْمَةً وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِن نِسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾.

﴿اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[١]، فلو دقّقنا النظر في هذه الآيات نجد أنّ القرآن الكريم قد قيّد الإصلاح بين الفئتين المتناحرتين بالعدل ؟ وهو يعني إنهاء القتال والمواجهة العسكريّة والتراضي، ولكن لا عن طريق الضغط العسكري أو الضغط الإعلامي، بل عن طريق الإصلاح بينهما، وكذلك القرآن لم يدعُ إلى الصلح بأي طريقة كانت، وإنّما دعا إلى الصلح القائم على العدل والقسط. وهذا الإصلاح يمكن تطبيقه على جميع بقاع الأرض، بل حتّى بين الأديان والمعتقدات ليصبح عولمة العدل بين النّاس.

العولمة في مرحلة التطبيق الإسلامي

من المهمّ جدّاً قراءة التاريخ قراءة صحيحة، وخصوصاً السيرة النبويّة المشرقة لتتّضح الحقائق بصورة جليّة للعيان، وبالأخصّ ما يتعلّق بموضوع العولمة وبداية نشوئها في المجتمع الإسلامي، فنجد أنّ النبيّ ﷺ في السنة الثالثة من الهجرة قد دعا المقوقس ملك القبط، وهرقل ملك الروم، وكسرى ملك الفرس، والنجاشي ملك الحبشة إلى الإسلام، وكان خطاب النبيّ ﷺ لهم بهذا الشكل[٢]: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ـ مثلاً ـ أسلم تسلم، إني أدعوك إلى عبادة الله بدلاً من عبادة العبيد، وإلى ولاية الله بدلاً من ولاية البشر»، وذكر النبيّ في رسالته إلى هرقل والمقوقس قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾.

فهذه هي العولمة أو العالميّة الإسلاميّة التي خاطب بها النبيّ ﷺ الأمم الأخرى،

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٩.

(٢) بحار الأنوار: ٣٨٦/٢٠، باب ٢١ ـ مراسلاته ﷺ إلى ملوك العجم والروم وغيرهم، الحديث ٨، باختلاف يسير.

العولمة المنطلقة من مفاهيم القرآن الكريم القائمة على المساواة والحوار المنطقي ﴿كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾، شعار رفعه القرآن الكريم في زمان كانت البشرية ترزح تحت نير العبودية والتفرقة العنصرية والتخلّف العلمي والحضاري، إذن الحوار والعولمة التي رفعها الإسلام لا تقوم على فرض الآراء بالقوّة العسكريّة أو الاقتصاديّة وإنّما العولمة المنطلقة من الاقتناع الفكري والعامل الثقافي لا من الترهيب والترغيب.

وإذا أردنا التدقيق في هذه الآية نجدها تشير إلى عدّة أُمور:

أوّلاً: الكلمة السواء.

ثانياً: العبوديّة لله.

ثالثاً: رفض التسلّط من قِبل بعض البشر على بعض الآخر، ووجود الحرية للبشر، وعدم خضوع بعضهم لبعض. فكلّ هذه الأُمور تمثّل مطالب راقية، بل هي من أرقى مقوّمات العولمة الحديثة التي تناشدها الشعوب.

إذن فالقرآن الكريم قد جعل لغة العولمة هي لغة الحوار، وهذا منطق متمدّن راقٍ طرحه القرآن في تلك الأزمنة المتخلفة على صعيد النظرية وعلى صعيد التطبيق، فكان النبيّ صلى الله عليه وآله يساوي بين بلال الحبشي وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وبين غيره من العرب، بل إنّه قد فضل سلمان الفارسي في الكثير من المواطن حيث قال: «**سلمان منّا أهل البيت**»[1]، وهذا التفضيل لا لعنصره وإنما للمستوى الروحي

---

(١) الاختصاص / المفيد: ٣٤١، بعض وصايا لقمان لابنه عليه السلام، فضل سلمان الفارسي رضي الله عنه. بحار الأنوار: ١٠/١٢٣، باب ٨ ـ ما تفضّل (صلوات الله عليه) به على النّاس بقوله: «**سلوني قبل أن تفقدوني**»، الحديث ٢. المستدرك على الصحيحين: ٤/٣٢١، الحديث ٦٦٥٧ و ٦٦٥٩، ذكر سلمان الفارسي رضي الله عنه. مجمع الزوائد: ٦/١٨٩، باب غزوة الخندق وقريضه، الحديث ١٠١٣٧.

الذي ملكه وتميّز به.

أخلاق النبيّ ﷺ وأثرها في العولمة الإسلاميّة

لا شكّ أنّ للأخلاق دوراً كبيراً في استقطاب النّاس، بل وفي تقبّلهم للآراء الأُخرى وميلهم مع صاحب الأخلاق؛ لأنّ للأخلاق تأثير على جانب الروح، وهذا ما أكّده المستشرقون الذين باتوا يعترفون أنّ العامل الأساسي في نشر الإسلام هو أنّ أهالي البلدان المفتوحة كانوا يساعدون المسلمين على فتح بلدانهم؛ لأنّهم كانوا يعانون من أنظمة دكتاتورية ظالمة تضطهدهم وتذيقهم أنواع الذل والظلم، وأنّ سيرة النبيّ الأعظم البسيطة، وتواضعه، ومساواته بين المسلمين كان لها الأثر الأكبر في تقبّل الناس لهذا الدين، وكذلك فإنّ النبيّ لم يلغ القبائل ولم يحلّها، بل أبقى النظام القبلي كآلية للمعيشة، ولكنّه لم يجعل الانتماء لهذه القبيلة أو تلك معياراً للتفاضل والتفاخر والاستعلاء على الآخرين، وكان هذا عنصراً آخر لتقبّل النّاس هذا الدين الجديد، وعلى الرغم من أن المنهج الإسلامي الذي أسّسه النبيّ محمّد ﷺ سرعان ما تعرّض إلى التشويه والانحراف بسبب ممارسة سياسات بعد وفاته ﷺ وبالخصوص من ملوك بني أُميّة وبني العبّاس ـ ولهذا اتّجه أمير المؤمنين عليه السلام لسياسة الإصلاح الداخلي المركّز ـ، إلّا أنّه رغم ذلك استطاع أن يحقّق الكثير من الانجازات، وأن يجذب النفوس، وأن يستقطب قطاعات واسعة من المجتمعات المختلفة، ولكن تبقى الأعمال التي قام بها من جاء بعد النبيّ ﷺ ـ والتي ابتعدت عن المنهج القويم للنبيّ ﷺ ـ لها أثرها الواضح في التأثير السلبي على تقبّل الدين الإسلامي.

ولا يختلف الأمر عمّا كان في الدولة الأمويّة والعبّاسيّة ـ من حيث الظلم والاضطهاد ومحاربة الرأي الآخر وغيرها ـ عنه في الفترة التي حكمها الخلفاء الثلاثة بعد النبيّ ﷺ حيث أنّ سيرتهم كانت تخالف سيرته ﷺ، ونحن نطرح هذه الأُمور من باب البحث العلمي لا من باب التعصّب المذهبي، منها ـ على سبيل المثال

لا الحصر ـ: هو التفرقة في السياسة الماليّة ، حيث فرّق في العطاء بين الموالي والعرب ، وبين قريش وغيرهم ، ومنع الموالي من دخول المدينة ، وأنّ ولاة الأمصار لا يمكن أن يكونوا من الموالي ، حتّى أنّ الشعوب الأُخرى غير العربية صار لديها ردود فعل تجاه العرب ، وظهر تيّار الشعوبيّة المعادي للعرب كردّ فعل على تصرّفات قد صدرت من هؤلاء كانت بعيدة عن منهج النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله . واستمراراً لهذه السياسة فإنّ المهاجرين والأنصار طالبوا علياً عليه السلام بأن يميّزهم بالعطاء ، ولكنّه قال لهم : إنّ نصرتهم للنبي محمّد صلى الله عليه وآله لها أجرها الأُخروي وليس من حقّهم المطالبة بالتميّز على الآخرين في الدنيا ؛ ولذلك فإنّ أمير المؤمنين عليه السلام أوّل ما فعله هو رفع تلك السياسة الفاسدة التي ورثها المجتمع الإسلامي من المتقدّمين ، ولهذا عندما تسلّم دفّة الحكم السياسي لم يشأ أن يتوسّع في رقعة البلاد الإسلاميّة والداخل الإسلامي يعاني من الخواء والفساد ، فتوجّه إلى الإصلاح الداخلي ، وللأسف فقد واجهه أصحاب الجمل ، وواجهته العصبيات القبليّة والعصبيات القرشيّة والأحزاب التي لم يروق لها عدل عليّ عليه السلام ، وجميع الحروب التي أشعلها الخصوم ضدّه والتي خاضها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام كانت دوافعها معروفة .

وحدة المنهج بين النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام الحسين عليه السلام

ذكرنا أنّ منهج الرسول صلى الله عليه وآله قد تغيّر نتيجة للسياسة الخاطئة التي مارسها ممّن كان بعده ولم تتجاوب الأُمّة بنحو فاعل مع أمير المؤمنين والحسن عليهما السلام لتأصيل هذا المنهج وإلغاء الفساد ، وقد ازداد الوضع سوءاً بعد تسلّط معاوية على رقاب النّاس ، ومن ثمّ ابنه يزيد ، حتّى وصل الأمر إلى أنّ منهج الرسول صلى الله عليه وآله كأنّه هو المخالف للشرع ، فأصبحت المهمّة الكبرى في إقامة الدين هو إعادة منهاج وسنّة النبيّ صلى الله عليه وآله إلى المجتمع مرّة أُخرى ، ولذا فإنّ منهج النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله نراه عند سبطه الإمام الحسين في يوم عاشوراء ، الذي أخذ على عاتقه إحياء مبادئ جدّه محمّد المصطفى صلى الله عليه وآله التي تعرّضت

للتشويه والانحراف على أيدي بني أُميّة ، فنرى أنّ الحسين بن عليّ عليه السلام في يوم عاشوراء يضع خدّه تارةً على خدّ جون ذلك العبد ، وأُخرى على خدّ ولده عليّ الأكبر ، وهذا من أعظم أنواع الاحترام عند العرب ، حيث يساوي في هذا الفعل الحسين عليه السلام بين جون ـ العبد الأسود ـ وبين عليّ الأكبر ـ السيّد المطهّر القرشي ـ الذي ينتسب لرسول الله صلى الله عليه وآله . وهذا هو المنهج الذي ورثه أهل البيت عليهم السلام من جدّهم المصطفى صلى الله عليه وآله .

فمبدأ العدل متجذّر في مذهب أهل البيت الذي يرفض مقولة حرمة الخروج على الحاكم والوالي الذي لا يكون خاضعاً للشروط الإلهيّة كما هو في المذاهب الأُخرى ، فالإماميّة تضع شروطاً للإمام أشدّ ممّا تنشده البشرية ، فنحن نعتقد أنّ الإمام لا بدّ أن يكون معصوماً لكي يتوصّل إلى النظام الحقوقي العادل ، والنظام المالي العادل ، والنظام القضائي العادل ، والنظام السياسي العادل ، والسيرة العادلة بدون أي تفرقة بين مؤمن ومؤمن آخر ، وأنّ الحاكم ليس الإمام المعصوم أو الرسول ، بل الحاكم الأول هو الله ، وأنّ الإمام المعصوم لا يشاء إلّا ما يشاء الله ، ولا يفعل ما لا يرضي الله تعالى ، إذن حاكمية الله تتجلّى في فعل المعصومين الذين هم عباد مكرّمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ، وهذا ليس مغالاة ، بل هو التوحيد في الحاكميّة الذي يتميّز به مذهب أهل البيت عليهم السلام .

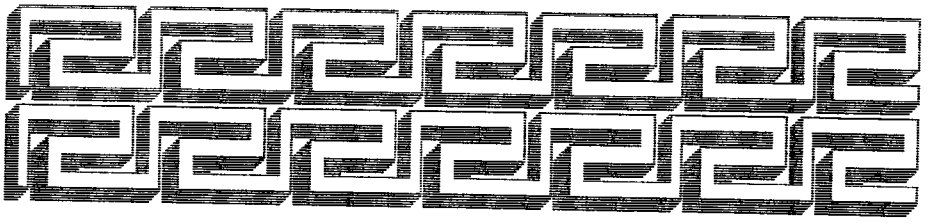

المحاضرة السابعة

الحوار الحقيقي يوازن بين نقاط الاختلاف والاتّفاق

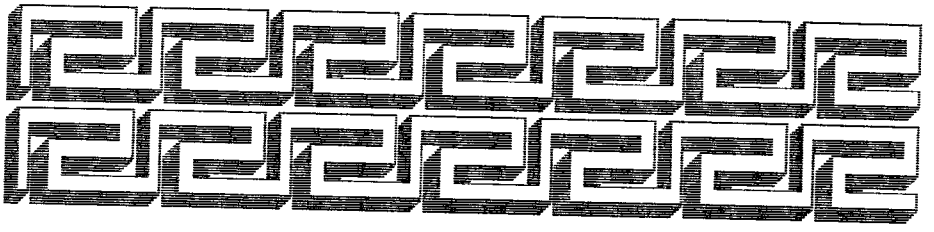

بسم الله الرحمن الرحيم

توازن الحوار بين مبادئ الاتّفاق والاختلاف

الباحث في الأديان قد تنتابه وتعتريه نزعة للوحدة ، وكذلك تنتابه نزعة للخلاف مع هذا الدين أو ذاك . وما يجب أن نؤكّد عليه هو حالة التوازن بين هاتين النزعتين عند الباحث ؛ لأنّه في حالة الميل لنزعة الوحدة فإنّها ستحاول إلغاء معالم هذا الدين أو ذاك بسبب حالة الدمج مع غيره ؛ وبالتالي سوف يحصل التنازل عن الثوابت في الأديان ، وسيؤدّي ذلك إلى إنكار نقاط الخلاف ، إذن الإفراط في نقاط الاتّفاق يعمي عن نقاط الاختلاف ، أمّا إذا حصل الميل لنزعة الفرقة فإنّ آثاره قد تكون أشدّ من الحالة الأولى ؛ لأنّه ربّما اتّهمت الدين الآخر بما ليس فيه من أجل إسقاطه وتوهينه ، ويكون الإفراط في نقاط الاختلاف يعمي عن نقاط الاتّفاق أيضاً .

وما قلناه في الخلاف بين الأديان نقوله في التقريب بين المذاهب . ونحن لسنا بصدد رفض حوار الأديان أو تقريب المذاهب ، ولكن يجب أن يكون هذا الحوار وهذا التقريب مبنياً على حالة التوازن والموضوعيّة بين الثوابت في الدين والمتغيّرات ، فالتعدّد في الآراء والقناعات والمسائل العقليّة والعقائديّة حسن وإن كان من العوامل المفرّقة بين الأديان أو المذاهب ؛ لأنّ في مقابل هذا التعدّد هناك نقاط مشتركة بين المذاهب والأديان على الصعيد العملي والسلوكي ، وكذلك على الصعيد الإنساني .

وأيضاً غياب الحوار له آثار سلبيّة على البشريّة، فعلى سبيل المثال: توتّر العلاقات بين المسلمين والمسيحيّين في أكثر من بلد نتيجة وجود خلافات وغياب حالة الحوار التي تحافظ على أرواح وأموال الناس من هاتين الديانتين.

وكلّ ما يجب أن نفعله هو تفعيل حالة الحوار بين الأديان، وخصوصاً في المشتركات بينها، ولكن علينا أن لا نفتعل نقاط اشتراك وهي غير موجودة، وذلك لخلق حالة الحوار؛ لأنّها ليست واقعيّة وليست حقيقيّة، فيكون الحوار قائماً على أساس هشّ، ومن الصعب الاستمرار على حوار قائم على أساس غير واقعي، ومن الأُمور الصحيحة أن نعترف بنقاط الاختلاف بصورة واقعيّة وجدّية، وأن نركّز على نقاط الاشتراك الواقعيّة والصحيحة لا المختلقة والمصطنعة، ونحن لا ننفي أنّ المجاملة في الحوار لها ثمرة طيّبة، وتعمل على إزالة أجواء التوتّر وإخماد الفتنة، وتخلق جوّاً من الودّ، ولكنّنا ندعو أن يكون الحوار مبنيّاً على أُسس صحيحة.

الحوار وأثره في علاج أسباب الفتن

لا شكّ أنّ الحوار الناجح هو الذي يبحث عن أسباب الاختلاف ويحاول إطفاء الفتن وبؤر التوتّرات، فمثلاً: ما يحدث من مجازر في باكستان ضدّ المسلمين الشيعة، ومن قبلها أفغانستان، وكذلك سفك دماء أتباع مذهب أهل البيت عليهم السلام في العراق، وما يحدث من تقاتل بين المسلمين والمسيحيّين في مصر وغيرها من الدول الأفريقيّة الأُخرى، والكتب التي تكفّر المسلمين وتبيح دماءهم، فكلّ هذه وغيرها تحصل نتيجة للاختلاف في الأفكار والمعتقدات، ولا بدّ من وضع حدّ لهذه التصرّفات. ونحن لا ندعو إلى الاصطدام بهؤلاء وتصفيتهم، وإنّما تركيز الجهود لمنعهم من هذه الأعمال وإيقافهم عند حدّهم، فهؤلاء يغضّون بصرهم عن الفسق والفساد المنتشر في الأسواق والمجمعات والجامعات التي تعجّ وتضجّ بالسلوكيات الهابطة، ويثيرون الفتن حتّى في المناهج الدراسيّة التي تطعن بطائفة مسلمة وتعتبرها طائفة تمارس

البدع ، مع أنّ هذه الطائفة هي الأكثرية في هذا البلد ، وهم الذين ساهموا بشكل فعّال وبفضلهم حقّقت البحرين استقلالها من خلال التصويت على الاستقلال عن إيران في بداية السبعينيات من القرن الماضي الذي أقامته الأُمم المتّحدة ، فكيف تحتوي المناهج الدراسية في هذا البلد على طعن واضح بهذه الطائفة ومعتقداتها ويعتبر التوسّل بالأولياء بدعة ، ولا يتمّ الالتفات إلى هذه المشكلة .

فنلاحظ ـ مثلاً ـ في أفغانستان بعد سقوط حكومة طالبان فإنّ الدستور يعترف بوجود مذهبين في البلاد هما : المذهب الحنفي والمذهب الجعفري ، مع أنّ الجعفريّين يمثّلون الثلث ، والأحناف يمثّلون الثلثين ، ويدرّس المذهب الجعفري هناك إلى جانب المذهب الحنفي ، فكيف بنا ، ونحن في البحرين ، ونمثّل الأكثريّة ، ومع ذلك فإنّ المناهج الدراسية تطعن فينا كشيعة ولا تراعي مذهبنا ، وحتّى لو لم نتكلّم باعتبارنا أكثريّة ، فيجب على وزارة التربية والتعليم أن تحترم مذهبنا كما احترمت باقي المذاهب الإسلاميّة في البلاد ، وأن لا تسمح للأقلام المدسوسة أن تنخر في الوحدة بين السنّة والشيعة في البحرين ، وخصوصاً أنّ البحرين قد احتضنت مؤخّراً مؤتمراً للتقريب بين المذاهب ، فهذا السلوك من وزارة التربية والتعليم لا يناسب هذا التوجّه .

شموليّة الحوار لجميع الطوائف

لغرض إنجاح حالة الحوار والحصول على ثماره ونتائجه الكبيرة لا بدّ أن يكون الحوار شاملاً لجميع الطوائف من دون استثناء ، وما نلاحظه في مؤتمرات التقريب أنّها تستبعد الإسماعيليّين مع أنّ أعدادهم كبيرة جداً ، وكذلك تستبعد طائفة العلويّين وهم يمثّلون ثلاثاً وعشرين مليوناً في تركيا ، بل بعض المؤتمرات استبعدت حتّى الفرقة الزيديّة ، والأكثر من ذلك استبعاد قيادات الفرقة الصوفيّة التي تمثّل عدداً هائلاً جدّاً من إخواننا السنة الذين ينتشرون في مصر وتونس والجزائر والسودان

وأندونيسيا وماليزيا والهند ، فهذا التغييب سبب في زيادة حالة الفرقة بين المسلمين ، فلماذا هذا التغييب لطوائف عديدة من المسلمين ، فهؤلاء المغيّبين يشعرون بأنّهم مستبعدون من الصفّ الإسلامي.

جهات الاتّفاق بين المجتمعات الإنسانيّة

من النقاط المهمّة التي يثيرها القرآن الكريم في آياته المباركة هي بيان حالة الاشتراك بين النّاس جميعاً في الكثير من الجوانب ، فمن هذه الآيات ـ مثلاً ـ قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً** ﴾[١] ، فإنّ تكريم بني آدم وتفضيلهم على الكثير من المخلوقات الأُخرى جهة مشتركة بين جميع النّاس من دون استثناء ، ولهذا نجد أنّ هناك بعض البحوث في الحوزة العلميّة تعتبر أنّ هذه الآية تمثّل أصلاً قانونياً من أُسس التقنين الإسلامي ، وهو أنّ الأصل في الإنسان أن يكون محترماً ، وأن تكون له حرمة إلّا ما أخرجه الدليل ، أي الإنسان الذي يرتكب جريمة أو إثماً يكون قد خالف المقرّرات الشرعيّة وتجاوز الحدود الإلهيّة ، فلا بدّ من وجود رادع له وعقاب يحدّده الشرع.

وكذلك من الآيات التي تبيّن حالة الاشتراك بين النّاس هي آية الفطرة في قوله تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾[٢] ، فالفطرة من الجوانب المشتركة بين جميع النّاس ؛ لأنّها مخلوقة فيهم من قِبل الله على حدٍّ سواء.

نعم هناك تغيير لهذه الفطرة من خلال التربية أو البيئة أو المجتمع وغيرها من

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(٢) سورة الروم: الآية ٣٠.

الوسائل المغيبة لها بحيث لا ترى حقائق الأُمور ، وإن كانت الكثير من التشريعات عند الأُمم الأُخرى تراعي الفطرة الإنسانيّة ، وقد لا تكون في تفاصيلها مطابقة للحكم الإسلامي ولكنّها مع هذه المراعاة يبقى هناك تغيير للفطرة .

الأنبياء بين وحدة الدين واختلاف الشرائع

لو نظرنا إلى القرآن الكريم نجد أنّه يصرّح بوحدة الدين بين جميع البشر ، وأنّ جميع الأنبياء قد جاءوا بدين واحد ، وإنّما الاختلاف قد حصل في الشرائع التي جاء بها بعض الأنبياء فهي المتغيّرة من نبي إلى آخر ، وهذه الشرائع قد بعث بها أُولوا العزم الخمسة وهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمّد ﷺ ، ولهذا فقد وقع بعض الباحثين في إشكال وهو : أنّ النبيّ آدم لم يبعث بشريعة ، أي فلم يبعث بدين ، إذن لم يكن آدم نبيّاً ، والمشكلة تكمن في أنّ هؤلاء لم يفرّقوا بين الدين والشريعة ، ولذلك وقعوا في هذا الإشكال ، والصحيح أنّ الأنبياء قد بعثوا بالشرائع المختلفة ولكن يبقى الدين واحداً لا يتعدّد ، وقد بعث به جميعهم .

وعليه فالدين يمثّل أُصول الاعتقاد وأركان الفروع ، كالصلاة والصوم والحج والزكاة ، فمثلاً : آدم عليه السلام صلّى وزكّى وحجّ وصام . نعم ، قد تختلف تفاصيل الصلاة أو تفاصيل الحجّ أو الصوم ولكنّها في نفسها ثابتة لكلّ الأنبياء ، وكذلك بالنسبة إلى الاعتقادات فهي أيضاً مشتركة بين جميع الشرائع ، حيث تسمّى بالأُصول المشتركة كالتوحيد والنبوّة والمعاد ، فهذه مشتركة بين جميع الشرائع وإن اختلفت في بعض مصاديق هذه الأُصول كالنبوة ـ مثلاً ـ ولا يمكن نسخ الاعتقادات ؛ لأنّها مرتبطة بتوحيد الله والعدل والآخرة ، ولا يمكن أن يبعث نبيّ بصلاة ولا يبعث نبيّ آخر بصلاة ، وهكذا بالنسبة لأُصول المحرمات والمنكرات ، مثل الزنا واللواط والسحاق وتحريم الربا ، ولا يمكن أن يحلها نبيّ ويحرّمها نبيّ آخر ، فكلّ هذه الأُمور أُمور فطريّة ، والفطرة البشريّة ترفض هذه الممارسات التي تحوّل المجتمع الإنساني إلى غابة

للإباحة الجنسيّة التي تهدم الكيان الإنساني، وكلّما ابتعد الإنسان عن فطرته كلّما انتشرت الرذيلة والفواحش، وكلّما انتشر الرعب والخوف سلب الأمن والاستقرار على صعيد الفرد والمجتمع. فهناك الكثير من الآيات المباركة التي تبيّن اشتراك الشرائع في مسائل الدين، وكذلك اختلاف هذه الشرائع من حيث الطريقة والمسلك.

فمن آيات الاشتراك قوله تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُم مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾[١].

وأمّا الآيات التي تبيّن اختلاف الشرائع قوله تعالى: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً**﴾[٢].

إذن فقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ**﴾[٣]، أي أنّ الإسلام هو دين الله من لدن آدم عليه السلام وحتّى خاتم الأنبياء لم يتغيّر، وعليه فإنّ الإسلام ليس دين محمّد صلى الله عليه وآله فقط وإنّما هو دين كلّ الأنبياء، ومن هذا المنطلق يكون التعبير عن شريعة سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله بالشريعة المحمّديّة صلى الله عليه وآله أدقّ من التعبير عنها بالشريعة الإسلامية؛ لأنّ الإسلام ـ كما قلنا ـ هو دين الأنبياء جميعاً ولا يختصّ بسيّد الأنبياء صلى الله عليه وآله.

ولذا نرى إبراهيم الخليل عليه السلام ينادي بالإسلام كما في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ**

---

(١) سورة الشورى: الآية ٣.

(٢) سورة المائدة: الآية ٤٨.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٩.

﴿وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[١].

فهذه الآيات وغيرها من آيات القرآن الكريم تبيّن بوضوح أنّ هؤلاء الأنبياء جميعاً مسلمون ودينهم الإسلام، وهم يتحركّون في خطّ واحد، ويعبدون إلـهاً واحداً، ويؤمنون بنبوّة سيّد الأنبياء. وهذا الدين الذي جُعل لجميع الأنبياء.

وقد رضي الله بالإسلام ديناً بإمامة عليّ عليه السلام في يوم الغدير، فقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾[٢]، ولذلك فإمامة عليّ عليه السلام جزء من الإسلام، أي من الدين، وليس جزافاً أن تكون الإمامة أصل من أُصول الدين حالها حال النبوّة، لا يعني هذا تكفير من لا يقول بـإمامته عليه السلام، بـل الذين لا يقولون بإمامته جميعاً على ظاهر الإسلام، وإنّما هذا يقع في صدق الإيـمان عليهم وعدمه.

إذن ممّا تقدّم تبيّن أنّ جميع الأنبياء عليهم السلام على دين واحد، ذلك الدين الذي ارتضاه الله لجميع البشريّة، ومن أراد التوسّع فـي هـذا المـوضوع فـعليه مـراجـعة مـا تـقدّم سابقاً[٣].

نصرة الأنبياء عليهم السلام للنبيّ محمّد صلى الله عليه وآله

لو نظرنا إلى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ

---

(١) سورة البقرة: الآيات ١٢٧ ـ ١٣٢.

(٢) سورة المائدة: الآية ٣.

(٣) راجع الصفحة ١٥ وما بعدها من مبحث الحداثة في هذا الكتاب.

﴿جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[1] نجد أنّ هذه الآية المباركة تبيّن أنّ الله قد أخذ على النبيّين ميثاقاً الإيمان والنصرة سيّد المرسلين ﷺ، ولهذا فجميع الأنبياء أنصار لمحمّد ﷺ وقد أقرّوا بذلك، أمّا بالنسبة للنبيّ الأكرم ﷺ فجعل مصداقاً وشاهداً على ثبوتهم ولكتبهم، أي يشهد ويوثّق ما معهم، فلم يكن التعبير بأنّه ﷺ يؤمن بنبوّتهم أو مصدق بهم، وذلك لعلوّ مقامه وإشرافه عليهم، وكونه شاهداً عليهم.

ومن هنا نقول: إنّه لا يصحّ أن ننكر ونرفض كلّ ما ورد في التوراة والإنجيل، صحيحٌ أنّهما قد تعرّضا للتحريف ولا يمكن الاعتماد عليهما كمصدر سليم تماماً؛ إلّا أنّ ذلك لا يمنع أن يكون بعض ما فيه صحيح وهو الذي أيّده القرآن الكريم، ولا يصحّ أن نرفضه كلّه تماماً ولا نقبل منه شيء، بل لا بدّ من إخضاعهما للتدقيق والغربلة، وأن نعرضه على الأُصول الصحيحة المسلّمة لنرى الصحيح من السقيم، والحقّ من الباطل، وأن يكون ميزان الحسم في ذلك هو موافقته للقرآن وعدمه.

على سبيل المثال: فهناك الكثير من الأُمور المشتركة بين شريعة النبيّ محمّد ﷺ وما ذكر في القرآن الكريم، وبين شريعتي موسى وعيسى وما ذكر في التوراة والإنجيل.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٨١.

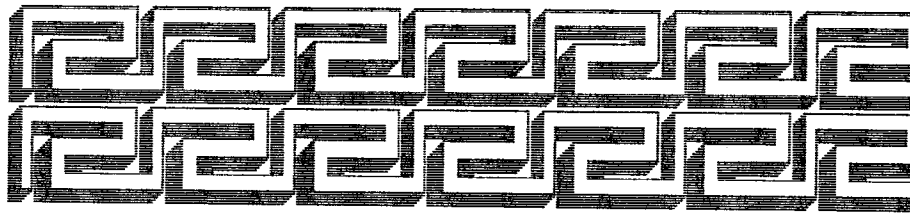

المحاضرة الثامنة

الحفاظ على الوحدة الإسلاميّة

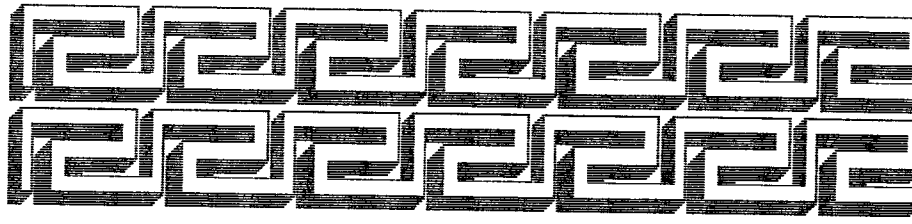

بسم الله الرحمن الرحيم

آراء في الخلاف بين المذاهب الإسلاميّة

من الأُمور التي نودّ الإشارة إليها في اطار التقريب بين المذاهب الإسلاميّة ، هو أنّ البعض يقول: إنّ المذاهب الإسلاميّة قائمة على الاجتهادات المحضة المستندة إلى الأدلّة الظّنيّة التي قد تكون معتبرة عند هذا المجتهد وغير معتبرة عند غيره ، بينما يذهب البعض الآخر إلى القول بأنّ الخلاف بين المذاهب خلاف فقهي وليس عقائدي ، والبعض يقول: إنّ أُصول الدين عند كلّ المسلمين واحدة ولا خلاف فيها بين المذاهب .

ونحن نعتقد أنّ هذه الأُمور لا تخدم مسيرة التقريب التي نتمنّى لها كلّ التوفيق ؛ وذلك لأنّ هذه الأُمور بعيدة عن الواقع والحقيقة ، فكلّ ما يهمّنا هو الوحدة الإسلاميّة وذلك من منطلق أنّ الإمام الحسين عليه السلام قد أعلن أنّ الإصلاح في أُمّة جدّه هو هدف الثورة الحسينيّة ولم يقل الإصلاح في شيعة أبيه ، ممّا يدلّ على اهتمام الحسين عليه السلام بعموم الأُمّة الإسلاميّة .

إذن يجب أن تكون الصراحة والبحث عن الحقيقة وعدم التنكّر لها هي مدار الحوار . والآراء الحقيقيّة لا تتنافى مع البحث عن المشتركات ، ويمكن للحوار أن يشقّ طريقه بصورة صحيحة وعلى أُسس واقعيّة إذا أُخذت هذه الأُمور بعين الاعتبار ،

ولا نريد القفز على الحقيقة لأنّه قد يخلق من الطائفتين المتحاورتين طائفة ثالثة تزيد من حدّة الشقاق والخلاف.

خلاف المذاهب بين الفقه والعقائد

لا يختلف اثنان على أنّ الطوائف الإسلاميّة تعيش حالة الاختلاف فيما بينها، سواء كان ذلك على مستوى الأحكام الشرعيّة أو على مستوى الاعتقادات، وهذا مرجعه إلى أُمور قد ذُكرت في محلّها، ولكن كلّ هذا لا يؤدّي إلى ظهور حالة الخلاف فيما بينهم، وقد ذهب البعض إلى أنّ هذا الاختلاف سوف يؤدّي إلى ظهور حالة الخلاف بين المذاهب الإسلاميّة، وبالتالي فإنّ الطوائف سوف تكفّر بعضها البعض الآخر؛ لأنّها ترى أنّ ما ذهبت إليه من خلال الأدلّة القطعيّة هو الموافق للإسلام الصحيح دون غيرها، فتكون الطوائف الباقية مخالفة للإسلام ممّا يوجب دخولها فيما قابل الإسلام، وبالتالي الحكم بكفرها.

ولأجل التخلّص من هذه العقدة ذهبوا إلى نفي هذه الحالة بين الطوائف الإسلاميّة، وخصوصاً العقائدية منها، ولكنّنا نرى أنّ الاختلاف العقائدي موجود بين الطوائف الإسلاميّة ولكن مع ذلك لا يستلزم تكفير طائفة لأُخرى.

ولغرض توضيح المطلب أكثر نقول: إنّ الدين يتضمّن مرتبتين: مرتبة الظاهر، وهي الإسلام الذي تتضمّن الإقرار بالشهادتين بلسانه، ومرتبة الباطن، وهي الإيمان الذي يكون عبارة عن الاعتقاد بالله والرسول صلى الله عليه وآله والمعاد وبعض ضرورات الدين، كمودّة أهل البيت والصلاة وغيرها من ضرورات الدين، فأمّا المرتبة الأُولى فمن وصل إليها فله ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ويحرم دمه وماله وعرضه، وله حقوق المواطنة الإسلاميّة في الأحوال الشخصيّة والمعاملات، وهذا ليس مجرّد رأي مدرسة أهل البيت عليهم السلام، بل هذا هو رأي المسلمين جميعاً إذا استثنينا التكفيريّين منهم.

ولهذا فإنّ المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر يندرجون تحت اسم المسلمين ، وإن كانت هذه الفئة قد توعّدها الله تعالى بأشدّ العذاب وأنزل فيهم سورة كاملة في القرآن الكريم ، والذين فتحت ملفّاتهم في سورة البراءة التي تتضمّن ثلاثة عشر فرقة تناوي النبيّ صلى الله عليه وآله مع ذلك لم يخرجهم النبيّ صلى الله عليه وآله من ظاهر الإسلام ومن دائرة المسلمين ، وهذا الطرح يسانده القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ **قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَـٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ** ﴾[١] .

فالقرآن الكريم يفرّق بوضوح بين المسلمين والمؤمنين ، وهذه حقائق قرآنيّة لا يمكن معارضتها ، كما لا يوجد أي كتاب كلامي ينكر التفريق بين المسلمين والمؤمنين ، وهذا ممّا أجمعت عليه الأُمّة الإسلاميّة .

وأمّا المرتبة الثانية ، وهي المرتبة الأرقى ، المعبّر عنها بمرتبة الإيمان ، فالإيمان إنّما هو الإسلام الحقيقي الواقعي في الظاهر والباطن ، وهي المرتبة التي تؤهّل الإنسان المؤمن للوصول إلى رضا الله تعالى ودخول الجنة والحصول على ثواب الله تعالى .

الإمامة والعدل من أُصول الدين عند أتباع مذهب أهل البيت

ذهب أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام إلى الاعتقاد بأنّ العدل والإمامة من أُصول الدين ، واستندوا في ذلك إلى أدلّة قطعيّة كما يعتقدون ، فمن الأدلّة التي تثبت أنّ الإمامة أصل هو قوله تعالى : ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً** ﴾[٢] .

فالدين الذي يتضمّن التوحيد والعدل والنبوة والمعاد لم يتمّ إلّا بعد إثبات إمامة عليّ عليه السلام يوم الغدير ، فكيف لا نجعل الإمامة من أُصول الدين ، والدين لم يكن مرضياً

---

(١) سورة الحجرات : الآية ١٤ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٣.

عند الله تعالى إلّا بالإمامة.

وكذلك آية المودّة في قوله تعالى: ﴿ قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾(١).

أي أنّ الدين في كفّة بما يتضمّنه من توحيد وعدل ونبوة ومعاد ومودّة أهل البيت في كفة أُخرى، فمن غير المناسب أن تكون الإمامة ومودّة أهل البيت قد جُعلت من ضمن فروع الدين؛ لأنّ المودّة التي أرادها الله والنبيّ صلى الله عليه وآله إنّما هي أجر الرسالة، وجهد النبيّ صلى الله عليه وآله، وهذه حقائق قرآنيّة وليست من باب المغالاة كما يتّهمنا البعض.

أُصول الدين بين مرتبتي الإيمان والإسلام

ذهبت مدرسة أهل البيت إلى أنّ هناك أُصول الدين في مرتبة الإيمان، وهي تتكوّن من التوحيد والعدل والنبوّة والإمامة والمعاد يوم القيامة، وكذلك أُصول الدين في مرتبة الإسلام فتتضمن التوحيد والنبوّة والمعاد، وهي الأُمور التي إذا أظهرها الإنسان أصبح مسلماً في الظاهر.

فأُصول الدين، سواء في مرتبة الإيمان أو الإسلام، تتضمّن مفهوم التوحيد، فهناك توحيد في الذات وتوحيد في الصفات، والنبوّة إنّما هي توحيد في التشريع، وأمّا الإمامة فهي توحيد في الحاكمية السياسيّة والقضائيّة والتنفيذيّة، ونحن نعتقد أنّ الإمام مرتبط بالله في كلّ شيء ابتداءً من الأُمور الجزئيّة وانتهاءً بالأُمور الكليّة؛ لأن الإمام يمثّل مشيئة الله فهو لا يعصي الله ما أمره ويفعل ما يؤمر.

ولذلك فنحن نرى أنّ الإمامة توصل إلى طاعة الله في الأُمور الدينيّة والشؤون الماليّة والقضايا السياسيّة والعسكريّة والتشريعيّة، وفي كلّ الأُمور، كما يستظهر من قوله تعالى: ﴿ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِن كُلِّ أَمْرٍ * سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ

---

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.

﴿مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾[١]، ففي كلّ سنة يتنزل البرنامج السنوي الذي يتضمّن كلّ أمر من الله على النبيّ صلى الله عليه وآله في حياته ويتنزّل بعد وفاته على الإمام في ليلة القدر.

الإيمان النظري والعملي في سورة الحمد

سورة الحمد التي نقرائها في كلّ صلاة مرّتين لو دقّقنا فيها جيّداً نجد أنّها تتضمّن جزئين من الإيمان: الجزء الأوّل وهو المعروف بالإيمان النظري، ومراتبه التوحيد، سواء في الصفات أو الذات، والمعاد، والنبوّة، كما في قوله تعالى:

﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعالَمِينَ * الرَّحْمـٰنِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[٢].

أمّا الجزء الثاني فيتضمّن الإيمان العملي، ومراتبه الإمامة، كما في قوله تعالى:

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾[٣].

وهذا الصراط الذي تبيّنه سورة الحمد إنّما هو أهل البيت عليهم السلام؛ لأنّهم مطهّرون ومعصومون فهم الصراط المستقيم، ولا ينحصر اعتبار هذا الصراط بسيرة النبيّ صلى الله عليه وآله؛ لأنّ الآية لم تقل: «صراط الذي أنعمت عليه»، وإنّما جاء التعبير بالجمع: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، فهم أهل البيت عليهم السلام المعصومون الذين لا يصحّ وصفهم مطلقا بأنّهم مغضوب عليهم، أو أنّهم ضالّين، أمّا غير المعصوم فقد يغضب الله عليه إذا عصى، وقد يضلّ كما يضلّ الآخرون لأنّه لا يتمتّع بموانع تقيه وتحجبه عن ذلك،

---

(١) سورة القدر: الآية ٤ و ٥.

(٢) سورة الفاتحة: الآيات ١ ـ ٥.

(٣) سورة الفاتحة: الآيتان ٦ و ٧.

وأهل البيت عليهم السلام فهم الذين باهل بهم النبيّ صلى الله عليه وآله نصارى نجران، واختارهم من بين جميع الأُمّة بما فيها من الصحابة وزوجات النبيّ صلى الله عليه وآله، ولو تتبّعنا تاريخ أهل البيت لما رأينا أنّهم ضلّوا في أي جانب من جوانب الحياة، أو أنّهم ظلموا أحداً، أو غضب الله عليهم، أو أنّهم عبدوا وثناً، أو شربوا خمراً، أو عصوا الله، أو أشركوا به طرفة عين أبداً. وقد شهد القرآن بطهارتهم، وأنّهم المطهّرون الذين يمسّون الكتاب المكنون، كما أنعم الله عليهم بالاصطفاء للطهارة، وبولاية الفيء في سورة الحشر، وبولاية الخمس في سورة الأنفال، وأوجب على الأُمّة مودّتهم.

حديث الفرقة الناجية ودلالته على المدّعى

من الأحاديث التي اتّفق عليها المسلمون هو حديث افتراق الأُمّة إلى ثلاث وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية، حيث رووا هذا الحديث في الكثير من كتبهم إن لم يكن كلّها[1]. فنفس هذا الحديث يمكن الاستفادة منه على ما ذكرناه من التفريق بين الإسلام والإيمان، فهو لم يخرج غير الناجين من الإسلام؛ لأنّه اعتبرهم من (أُمّتي)، أي من المسلمين مع كونهم من غير الناجين، ومن غير المعقول أن تكون النجاة التي اعتمدت عليها الفرقة الناجية هي نجاة تعتمد على فرع من الفروع، وليس على أصل من الأُصول.

---

(١) ورد الحديث: «**ستفترق أُمّتي على ثلاث وسبعين فرقة، فرقة منها ناجية، والباقون هالكون**» راجع الوسائل: ٤٩/٢٧، باب عدم جواز القضاء والحكم بالرأي، الحديث ٣٠/٣٣١٨٠. الخصال: ٥٨٤/٢، أبواب السبعين وما فوقه، من روى أنّ الأُمّة تفترق على ثلاث وسبعين فرقة، الحديث ١١، بتفاوت. كمال الدين: ٦٠٠، باب في نوادر الكتاب، الحديث ٣، بتفاوت. سنن ابن ماجة: ١٣٢٢/٢، كتاب الفتن ـ باب افتراق الأُمم، الحديث ٣٩٩٢، بتفاوت. المستدرك على الصحيحين: ٣٣٦/١، كتاب العلم ـ الباب ١٩٣، باب في البدع والأهواء، باب منه، الحديث ٤٥٤ و ٤٥٥، بتفاوت.

فعلى سبيل المثال: نجد أنّ إخواننا أهل سنّة الجماعة يرون أنّ من لا يعتقد بفضائل الخلفاء الثلاثة الذين حكموا بعد النبيّ صلى الله عليه وآله أو فضائل زوجات النبي، بل ومن ينتقدهم وينكر عليهم أفعالهم، فإنّه شخص ليس مؤمناً وإنّما هو مسلم فقط، وإن كانوا يعتقدون بأنّ الخلافة من فروع الدين وليست من أُصوله، كما ذهب إلى هذا الرأي التفتازاني في شرح المقاصد والشريف الجرجاني في شرح المواقف.

إذن فأهل السنة يبنون العقيدة على ما حدث بعد النبيّ صلى الله عليه وآله، وكثير منهم يعتقدون أنّ فضائل الثلاثة الذين حكموا بعد النبيّ صلى الله عليه وآله أدلّتها قطعية، وينفون الإيمان عمّن لا يعتقد بها ولكنّهم لا يقولون بكفره، هذا إذا استثنينا التكفيريّين المتعصّبين.

وكذلك مذهب أهل البيت فإنّه يذهب إلى أنّ أدلّة إمامة الأئمّة عليهم السلام، واعتبار الإمامة من أُصول الدين إنّما تستند إلى أدلّة قطعيّة، وأنّها من لوازم الإيمان، إلّا أنّهم لا يكفّرون من لا يعتقد بها، بل يعتبرونه مسلماً ولكنه ليس بمؤمن.

وقد فصّل في بيان هذا الأمر كلّاً من السيد المرتضى و الشيخ الطوسي والشيخ المفيد حيث قالوا إن النص تارة يكون نصاً جلياً وأُخرى يكون نصاً خفياً، فالمنكر للنص الجليّ يخرج عن ظاهر الإسلام، أمّا المنكر للنص الخفي فلا يخرج عن ظاهر الإسلام، لأنه ربما يعذر لعدم فهمه للنص الخفي والنصّ وإن كان خفياً لكنّه مع ذلك يحمل في طياته دليلاً يقينياً، كما في مسألة الإمامة.

يبقى هنالك شيء لا بدّ من الإشارة إليه، وهو أنّه قد يرد تعبير بالكفر للبعض، فلا يمكن الأخذ بظاهره؛ لأنّه لا بدّ من فهمه جيّداً ثمّ بعد ذلك يحصل الحكم به، ولا يمكن اعتبار ذلك تكفيراً لهم، أو أنّه إخراج من الدين الإسلامي؛ لأنّ الكفر على مراتب، فلا بدّ من معرفة مراتبه جيّداً حتّى يسهل الحكم بعد ذلك؛ لأنّ من مراتبه كفر النعمة ـ على سبيل المثال ـ وقد ورد الكفر في القرآن الكريم على معانٍ كثيرة.

ونحن إذ نشكر روّاد الوحدة الإسلاميّة والتقريب بين المذاهب على جهودهم

المباركة في نزع فتيل الفتنة في الأُمّة الإسلاميّة نلفت نظرهم إلى هذه المسائل المتقدّمة المهمّة ، وأن لا يحكم على طائفة بحكم بمجرّد الأخذ بظواهر الألفاظ ، بل لا بدّ من معرفة معناها جيّداً والمراد منها .

ففقهاء مذهب أهل البيت وكتبهم شاهدة على أنّهم يحترمون المسلمين ويدعون إلى حفظ دمائهم وأموالهم وحقوقهم ، وكذلك كتب فقه علماء أهل السنّة يقولون بهذا الرأي ، ولكن يجب التصدّي لأُولئك المتعصّبين الذين يثيرون الفتن الطائفيّة في باكستان وأفغانستان والعراق وفي باقي بلاد المسلمين .

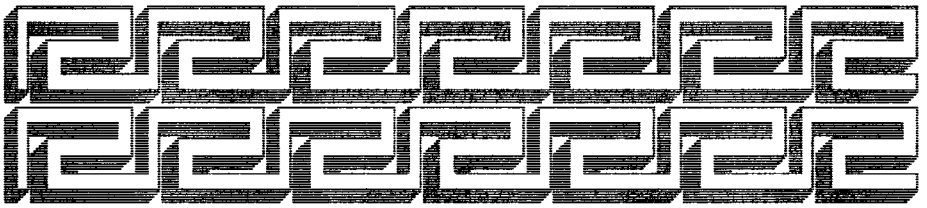

المحاضرة التاسعة

الحسين وتهمة شقّ عصا المسلمين

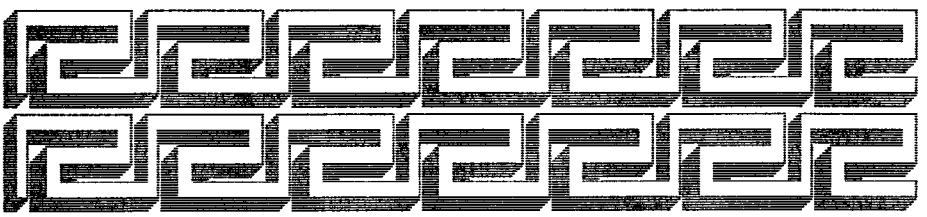

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام الحسين عليه السلام وقرار الخروج

لم يكن خروج الحسين عليه السلام على السلطة الحاكمة مجرّد رغبة قائد أو نزوة ونزعة حبّ وقدرة قائد ، بل هو خروج مبدأ وإنصاف رعيّة وإقامة عدل في مجتمع قد نُخِرَ إسلامه ، وضُيّعت الأحكام ، وسُلبت الحقوق ، فكان الإمام الحسين عليه السلام ينظر تارة إلى ذلك المجتمع الذي ذهب في سبات عميق ، وأُخرى ينظر إلى الأوامر والتوصيات التي سمعها من جدّه المصطفى ، حيث كان يقول فيها :

«مَن رأى منكم سلطاناً جائراً ، مستحلّاً لحرم الله ، ناكثاً لعهد الله ، مخالفاً لسنّة رسول الله ، يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان ، ثمّ لم يغير عليه بقول ولا فعل كان حقيقاً على الله أن يدخله مدخله »[1].

ثمّ قال عليه السلام : **« ألا وإنّ هؤلاء القوم قد لزموا طاعة الشيطان ، وتولّوا عن طاعة الرحمن ، وأظهروا الفساد ، وعطّلوا الحدود ، واستأثروا بالفيء ، وأحلّوا حرام الله ،**

---

(١) بحار الأنوار : ٤٤ / ٣٨١ ، باب ٣٧ ـ ما جرى عليه عليه السلام بعد بيعة النّاس ليزيد بن معاوية . تاريخ الطبري : ٤ / ٦٠٥ ، ثمّ دخلت سنة إحدى وستّين خطبة الحسين في أصحابه وأصحاب الحرّ .

وحرّموا حلاله »[١].

فالإمام الحسين عليه السلام كان يرى أنّ أعمال هؤلاء القوم لم تمتّ بصلة إلى الإسلام في شيء ، فكان يتبرّأ من أعمالهم ، وهذا ما يظهر من قوله عليه السلام لوالي يزيد على مكّة عمرو بن سعيد الذي قال للإمام الحسين عليه السلام حينما خرج الحسين عليه السلام من مكّة فاعترضه رسل عمرو بن سعيد بن العاص ، عليهم يحيى بن سعيد ليردّوه ، فأبى عليهم فتضاربوا بالسياط ، ومضى عليه السلام على وجهه فبادروه ، وقالوا : يا حسين ألا تتّقي الله ، تخرج من الجماعة وتفرّق هذه الأُمّة .

فردّ عليه الإمام الحسين عليه السلام : « **لي عملي ولكم عملكم ، أنتم بريئون ممّا أعمل وأنا بري ممّا تعملون** »[٢] فهذا منطق القرآن الذي عبّر عنه الإمام عليه السلام الذي هو جزء من آية في سورة يونس[٣].

وما يلفت النظر هنا هو قول عمرو للإمام الحسين عليه السلام : « تخرج من الجماعة » ، حيث كان التعبير بالجماعة يشير إلى السلطات الأمويّة الحاكمة واتباعها ، وإلى الخلافة المسيطرة على أُمور المسلمين ، وكذلك نرى أنّ عمرو بن الحجاج ـ الذي كان من أبرز معاوني عمر بن سعد ـ يستنفر جيوش الظلم الأموية ضدّ سيّد الشهداء الحسين بن عليّ عليهما السلام ويقول لهم : « إلزموا طاعتكم وجماعتكم ، ولا ترتابوا في قتل

---

(١) بحار الأنوار : ٤٤ /٣٨٢ ، باب ٣٧ ـ ما جرى عليه عليه السلام بعد بيعة النّاس ليزيد بن معاوية .. تاريخ الطبري : ٤/ ٦٠٥ ، الباب المتقدّم .

(٢) راجع بحار الأنوار : ٤٤ /٣٦٨ ، الباب المتقدّم . مثير الأحزان / ابن نما الحلّي : ٢٨ ، المقصد الأوّل : على سبيل التفصيل للأحوال السابقة لقتال آل الرسول . تاريخ الطبري : ٤/٥٨٩ ، خروج الحسين عليه السلام إلى الكوفة .

(٣) ﴿ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ سورة يونس : الآية ٤١ .

من مرق من الدين ، وخالف الإمام»[١].

فكان الأمويّون يزعمون أنّ السلطات الحاكمة الظالمة هي التي تمثّل (الجماعة) وأنّ الخروج عليها مروق من الدين ، أي أنّ الجماعة هي جماعة بلاط السلطان.

ومن المؤسف أنّ الكثير من المصطلحات والمفاهيم قد حُرّفت وتغيّر معناها لتخدم الظلمة ، وكذلك سُمّي بعض الأشخاص بمسمّيات وهي منهم براء ، كما حصل مع عمران بن حطان الذي كان يسكن في الشام ، وكان ورده سبّ ولعن عليّ بن أبي طالب عليه السلام فقد عَبّر عنه أرباب الجرح والتعديل من أهل سنّة جماعة السلطان بأنّه (شديد صلب في السنة) ، ـ ولا ندري كيف يكون من كان ورده سبّ عليٍّ عليه السلام صلباً في السنة ـ ثمّ إنّه رأى رأي الخوارج ، فأخذ ينكر على السلطان ، وإن لم يعتقد بوجوب الخروج عليه.

فنلاحظ أنّ تعبير سنة الجماعة كان له جذور تمثّل الانتماء والولاء للسلطات الحاكمة والجهات التي تعادي أهل البيت عليهم السلام كما حصل مع عمران بن حطان ، ومن أراد أن يعرف هذا الرجل جيّداً فليراجع كتب رجال الحديث حول ماكتبته عنه[٢].

مصطلح الجماعة المبدّل وبداية نشوئه

لغرض الوقوف جيّداً على مصطلح الجماعة الذي تمّ تبديله في الحديث النبوي

---

(١) بحار الأنوار : ٤٥ / ١٩ ، بقيّة الباب ٣٧ ـ سائر ما جرى عليه عليه السلام بعد بيعة النّاس ليزيد بن معاوية . تاريخ الطبري : ٦٣٣/٤ ، استشهاد برير بن خضير .

(٢) الضعفاء الكبير / العقيلي : ٢٩٧/٣ ، التسلسل : ١٣٠٤ ، ترجمة عمران بن حطان . تهذيب الكمال / المزي : ٤٨٢/٥ ، التسلسل : ٥٠٧٦ . ميزان الاعتدال / الذهبي : ٢٨٥/٣ ، التسلسل : ٦٢٨ . لسان الميزان / ابن حجر : ٤٥٥/٥ ، التسلسل : ٦٦٠٠ ، في ترجمة الفضل بن الحبّاب بن محمّد بن شعيب .

لا بدّ من معرفة بداية تكوّنه ، وكذلك وجه التسمية به ، فإنّ مصطلح (الجماعة) قد بدأ ظهوره في المجتمع الإسلامي بعد وفاة النبيّ ﷺ ، خصوصاً في الحروب التي كانت تسمّى بحروب الردّة في زمن الخليفة الأوّل ، صحيح أنّه كانت الردّة موجودة في فئة قليلة وكان يقودها مسيلمة الكذّاب وغيره ، إلّا أنّ الواقع أنّ معظم من عارض ورفض حكم الخليفة الأوّل لم يكن مرتدّاً ، فقبائل حضرموت وكندة والبحرين وبني يربوع قوم مالك بن نويرة التميمي وغيرهم لم تكن مرتدّة عن الدين ، ولم تتخلّى عن أصل من أُصول الدين أو فروعه ، إلّا أنّها امتنعت من إيصال الزكاة للخليفة الأوّل ، لا لأنّها تنكر وجوب الزكاة ، وإنّما رفضت الطاعة للخليفة الأوّل لأنّها لا تعتقد بأحقّيّته بالخلافة ، وهذه الأُمور مذكورة في مصادر التاريخ ككتاب الفتوح لابن أعثم والمسعودي واليعقوبي[1] وغيرها من المصادر . وهذا مؤشّر تاريخي دامغ أنّ أوّل من استعمل أُسلوب وحربة التكفير واستباحة دماء المسلمين هو الخليفة الأوّل لقمع المعارضة ، وهذا بخلاف نهج أمير المؤمنين عليه السلام ، فإنّه لم يكفّر معارضيه ، كما أنّه لم يستبح دماءهم ، بل هم بدؤه بالقتال في الجمل وصفّين والنهروان .

ومن الأدلّة على أنّهم لم يرتدّوا عن الدين ولم يخرجوا من الإسلام . إنّ جهاز الخلافة لم يقتل أسرى هذه القبائل ، وهذا يؤكّد أنّهم لم يرتدّوا عن الدين ، بل كلّ ما في الأمر أنّهم أبوا طاعة السلطان ، ومن المعروف أنّ حكم المرتدّ هو القتل .

والذي لا يعتقد بأحقّية خليفة معيّن من قِبل النّاس ليس مرتدّاً ، ولا يخرج عن الدين ، وأنّ هؤلاء الذين رفضوا تسليم الحقوق إلى الخليفة ؛ لأنّهم يرون أنّ هذه الحقوق لا بدّ أن تصل إلى الخليفة الحقيقي الذي نصبه الرسول في غدير خم ، ولا ندري كيف يسوّغ أهل سنّة الجماعة أن يحكموا بردّتهم لأنّهم رفضوا حكم الخليفة

---

(١) راجع : مروج الذهب : ٣١٩/٢ ، ذكر خلافة أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه ، المتنبّئون . تاريخ اليعقوبي : ١٣/٢ ، أيّام أبي بكر .

الأوّل ، ومع أنّهم لم يحكموا بالارتداد على من خرج على حكم الإمام عليّ عليه السلام في الجمل وصفّين والنهروان ، ولماذا الباء هناك تجر وهنا لا تجر ؟!

ومن المعروف أنّ أهل السنّة لا يعتقدون ـ حسب زعمهم في ظاهر كلامهم ـ أنّ الخلافة من أُصول الدين فلماذا يحكمون على من لا يعتقد بحكم خليفة ما بأنّه مرتدّ. ومن هذا الوقت بدأت التسمية بـ(الجماعة) ، وأنّ الخارج عن جماعة السلطان مارق من الجماعة.

وأمّا معنى الجماعة فإنّه يطلق على السلطات الحاكمة والجهات المناوئة لأهل البيت عليهم السلام ـ كما رأينا في مقالة عمرو بن سعيد وفي ترجمة عمران بن حطان ـ وكلّ من وافق السلطة الحاكمة وسار على نهجها ، فهو داخل تحت هذا الاسم.

ومن هنا فقد استنكر البعض خروج الحسين عليه السلام على حكم يزيد بن معاوية ، وكانوا قد أنكروا من قبل على عليّ بن أبي طالب عليه السلام في حربه مع معاوية بن أبي سفيان وأصحاب الجمل ، وقالوا لِمَ لمْ يساوم الإمام عليّ عليه السلام معاوية ويبقيه في الحكم ـ كما هي سنّة الثاني والثالث ، حيث نصبا معاوية على الشام وعلى مركز منابع الأموال ، بل سنّة الأوّل ، كذلك حيث نصب يزيد بن أبي سفيان أخي معاوية على ولاية الشام ـ ، ويخضع لأطماع الطامعين ، ويتنازل عن مبادئه ولا يطبّقها بهذه الحدّة والشدّة لكي يوحّد الأُمّة ويحفظ دماءها ؟

النبيّ صلى الله عليه وآله في مواجهة قريش

لو نظرنا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله عندما بدء بحركته التبليغيّة في مكّة فإنّه كان يواجه قريش التي كانت تتمتّع بخصائص عديدة ، فبالرغم من أنّها كانت تعبد الأصنام إلّا أنّ أهلها كانوا ينتسبون إلى ملّة إبراهيم (الحنيفيّة) ، ومن نسل إبراهيم وإسماعيل ، وهم أهل الكعبة ، ولهم حرمة خاصة ، فالنبيّ كان يواجه معادلة صعبة في فرض الإسلام على

هؤلاء بحيث يتحوّلون من متبوعين إلى تابعين ، ومن آمرين إلى مأمورين ، وكان هذا في نظرهم استهانة عظيمة ؛ لأنّهم هم الزعماء وقيادة قريش للعرب ، بل أنّ بعض المسلمين كانوا يتخوّفون من مواجهة فكريّة أو مواجهة عسكريّة مع قريش لما تتمتّع به من المواصفات والخصائص التي ذكرناها ، حتى قال بعضهم ـ حينما سألهم النبيّ عن رأيهم قبل واقعة بدر في حرب قريش ـ : « إنّها قريش وخيلاءها لم تهزم قطّ ، وإنّها ما ذلّت مذ عزّت »[1].

ولهذا فإنّ أباسفيان كان يعتبر أنّ النبيّ ﷺ جاء بهذا الدين الجديد لكي يخرّب الدين الذي تتمسّك به قريش ، ذلك الدين الذي لا يحمي الضعيف ، ويسوده قانون الغاب ، وتعمّه التصرّفات الفاسدة ـ ولا نقصد من هذا الدين هو دين إبراهيم الخليل الصحيح الذي جاء به ، بل ما يتمسّك به هؤلاء زعماً منهم على أنّه دين إبراهيم ـ .

وقد واجهت النبيّ ﷺ كلّ هذه الصعوبات وغيرها ممّا كان من خارج مكّة ، فشكّلت جميعها نظم قوميّة وإقليميّة ؛ لأنّ مكّة كانت مهدّدة من الحبشة كما دلّت على هذا سورة الفيل وقصة أبرهة الحبشي ، وكذلك تهديدات كسرى الفرس ، ومن قيصر الروم ، في الوقت الذي بقت فيه قريش على دين إبراهيم الحنيف ، إذن كان النبيّ يواجه تهديدات قبليّة من قِبل قريش ، وإقليميّة من قِبل دول أُخرى ، وتهديدات عسكريّة ، وتهديدات دينيّة من قِبل الديانات الأُخرى ، وكانت الوضعيّة الجغرافيّة لمكّة وضعيّة تجعلها محاطة بالأعداء الأقوياء ؛ لأنّها كانت تمثّل المركز الأقوى في المنطقة ولما تتمتّع به من قداسة دينيّة ، فكلّ هذه أصبحت جبهة واحدة في مقابل النبيّ ﷺ ، فكان على النبيّ ﷺ أن يتّخذ التدابير الواقية ، وأن يكون أكثر استعداداً

---

(١) وردت : « يا رسول الله ، إنّها قريش وخيلاؤها ، ما آمنت منذ كفرت ، ولا ذلّت منذ عزّت » ـ راجع تفسير القمّي : ٢٥٨/١ ، تفسير سورة الأنفال : الآية ٦. مجمع البيان : ٤٣٢/٤ ، تفسير الآية المتقدّمة. بحار الأنوار : ٢١٧/١٩ ، الباب ١٠ ـ غزوة بدر الكبرى.

وقوّة لردع هذه المخاطر المحتملة ، ولكن مع ذلك فإنّ النبيّ ﷺ لم يبدأ بالحروب ، وإنّما كانت حروبه دفاعيّة ، وأنّه اعتمد لغة الحوار ، ولكنّ الحوار الذي اعتمده النبيّ ﷺ لا يعني الذوبان في الباطل ، فدافع النبيّ ﷺ عن الإسلام بكلّ ما يملك ، وكان النبيّ ﷺ يعتمد على سيف عليّ عليه السلام ، هذا السيف الذي جعل بني أُميّة يسلمون في عام الفتح بالضغط ، وإسلامهم كان في الظاهر ، ولكنه بلا روح ، ولذلك حاربوا عليّاً بعد النبيّ ﷺ ، وواجهوا سيفه لأنّهم لم يمتلكوا الإيمان الحقيقي .

لأنّ ذلك السيف الذي شيّد بناء الإسلام هو السيف الذي فرض الله عليه أن يشيّد الإيمان في حروبه الثلاثة التي خاضها في زمن خلافته عليه السلام . وكمّا أنّ النبيّ قد واجه حجج قريش باعتبارهم من أتباع دين إبراهيم الحنيف وأنّهم أهل حرم الله ، كذلك واجه الإمام عليّ عليه السلام حجج المخالفين له بأنّ من المخالفين له أُمّ المؤمنين ، ووجود كبار الصحابة كطلحة والزبير في الجيش المناوي له ، أمّا الخوارج فكانت حجّتهم : (لا حكم إلّا لله) ، فهذه كلمة الحقّ التي أُريد بها الباطل وأُريد بها نفي الإمارة البشريّة المنصوبة من الدين ، وهي دعوى إلى الهرج والمرج ، وكذلك معاوية فإنّه رفع شعار الثأر والقصاص لدم عثمان ثالث الصحابة ، وأنّه والي على الشام على حكم الخلفاء الثلاثة ، ومع هذا فليس من الممتنع أن يكون هنالك توحيد في الحاكميّة ، حيث نعتقد أنّ التوحيد في الحاكميّة لا يوجد في أي مدرسة من المدارس الدينيّة والفكرية غير مدرسة أهل البيت عليهم السلام التي تطبّق التوحيد في الحاكميّة من خلال أصل الإمامة الذي تعتقد به .

الإمام عليّ عليه السلام في مواجهة الفتنة الفكريّة

إنّ الذين وقفوا في وجه النبيّ ﷺ وأصبحوا جبهة واحدة لها تلك الطبقات التي ذكرناها ، لا يختلفون عمّن وقفوا في وجه أمير المؤمنين عليه السلام من حيث الخصائص والصفات التي تميّز بها هؤلاء وتلك المسمّيات الكبيرة التي سُمّي بها هؤلاء شكّلت

أكبر فتنة أصابت المجتمع الإسلامي ، وأنهكت قواه ، سواء المادية أو العسكرية ، هذه الفتنة التي وصف خطرها أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«**فإنّي فقأت عين الفتنة ، ولم يكن غيري ليجترئ عليها**»[1] ، فحارب الإمام عليّ عليه السلام من كانت تحمل لقب أُم المؤمنين ، هذا اللقب الذي ورد في القرآن الكريم ، وأصبح له هالة من القدسيّة والتعظيم ، وتفضيل زوجات النبيّ صلى الله عليه وآله وإن قرّر في القرآن الكريم ؛ وأنّهنّ أُمّهات المؤمنين ، ولكن بشرط التقوى ، ومع سقوط هذا الشرط لا يبقى لهنّ التفضيل ، كما بيّنه قوله تعالى: ﴿ **يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ** ﴾[2].

وكانت حرب عليّ عليه السلام لبعض من يُدعى أنّه من العشرة المبشّرين بالجنة كشفت زيف هذه الفكرة وأبطلتها وبثّت الوعي في الأُمّة ، ليظهر الحقّ ويُعلم أصحابه وتنكشف أوراق الظلمة ، لتنجلي الغبرة عن أعين النّاس ، فتتبّع أصحاب الحقّ ولتكون مع الإمام عليّ عليه السلام الذي قاتل مع النبيّ صلى الله عليه وآله على التنزيل كذلك هو الذي يقاتل الآن على التأويل.

ومع ذلك تأوّلوا على أمير المؤمنين عليه السلام بأنّه سفك دم المسلمين ، كذلك استباحوا سفك دم الإمام الحسين عليه السلام بأنّه شقّ عصا سلطان يزيد ، واعتبر خارجاً عن سنّة جماعة السقيفة.

فالإمام الحسين الذي اصطفاه الله للمباهلة وكان أحد أفرادها ، فبالرغم من صغر سنّه اختاره الله دون باقي الصحابة من أصحاب اللحى والعمائم ، هذا الاعتبار الذي يحمله الحسين عليه السلام وهذه الشهادة الإلهيّة القرآنيّة التي برهنت على أنّ الله اصطفى هذا

---

(١) نهج البلاغة: ١٣٧ ، الخطبة ٩٣ ، ولكن ورد فيها: «**ليجترئ عليها أحد غيري**» ـ بحار الأنوار: ٣٦٦/٣٣ ، باب ٢٣ ـ قتال الخوارج واحتجاجاته (صلوات الله عليه) ، الحديث ٥٩٩.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٢.

الطفل الصغير من دون سائر المسلمين لمباهلة النصارى تلك المباهلة التي أرغمت أُنوف أعداء الإسلام بفضل هؤلاء ، فاصطفاه الله كما اصطفى عيسى للنبوّة وهو في المهد ؛ لكي ينقدح في عقليّة الأُمّة قدر هذا العملاق ، وما يستحقّ من التكريم والتبجيل الذي هو أحد إمامين قاما أو قعدا[١] ، وهو الذي يحمل وسام «**حسين منّي وأنا من حسين**»[٢] .

كربلاء وشرعيّة حكم أبناء الطلقاء

لا شكّ أنّ كربلاء قد خرجت عن كونها معركة بين جيشين ؛ لأنّها أصبحت المصداق الذي أزال عن حكم الطغاة جميع الصفات الشرعيّة التي كان قد أثبتها لحكمه طيلة الفترة الماضية ، وقد صدق القول بأنّ كربلاء نجحت في فصل الشرعيّة عن السلطات الحاكمة آنذاك ، والتي كانت تتذرّع بسنّة الجماعة من أجل اتّهام المصلحين بالمروق والخروج عن الدين ، وهذا يكشف أيضاً أنّ هذه الجماعة إنّما هي جماعة بلاط السلطان وخلافة السقيفة ، وبذلك كشفت دماء الحسين الزكية زيف هذه الحكومات الطاغوتيّة المتجبّرة ، وقد احتجّ من احتجّ منهم على خروج الحسين عليه السلام بأنّه يسبّب الهرج والمرج .

ونحن نقول : إنّ تربّع الفساد الخلقي والإداري على رأس السلطة هو الذي يوجب ذلك ، وإنّ إزاحة هذا الفساد هو الذي يساهم في إزاحة الهرج والمرج والقضاء عليه .

---

(١) بحار الأنوار : ٢٧٩/٢١ ، باب ٣٢ ـ المباهلة وما ظهر فيها من الدلائل والمعجزات . اعلام الورى / الطبرسي : ٤٢١/١ ، الفصل الثاني : في ذكر الدلائل على إمامته .

(٢) كامل الزيارات : ١١٦ ، الحديث ١١/١٢٦ ، الباب ١٤ ـ حبّ رسول الله صلى الله عليه وآله الحسن والحسين عليهما السلام ، والأمر بحبّهما ، وثواب حبّهما . المستدرك على الصحيحين / الحاكم : ٣٧٨/٣ ، أوّل فضائل أبي عبدالله الحسين بن عليّ رضي الله عنهما ، الحديث ٤٨٨٣ .

وقد كان شعار وهدف الإمام الحسين عليه السلام عند خروجه هو الإصلاح في أُمّة جدّه رسول الله صلى الله عليه وآله ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقد ضرب الحسين مثالاً رائعاً لمعارضة الحكم ، هذه المعارضة التي تفرض مراقبتها على السلطات الحاكمة ، وتسجّل اعتراضاتها للفساد الموجود في هذه السلطة .

وما حزن أُولئك النّاس على الإمام الحسين عليه السلام إلّا إحياءً لتلك المبادئ ، ومواساةً للرسول صلى الله عليه وآله ، وليكونوا من مصاديق آية المودّة في القربى وأمّا الذين يبتهجون ويفرحون في هذه الليلة ـ ليلة العاشر من المحرّم الحرام ـ فهم مصداق لقوله تعالى : ﴿ **إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ** ﴾[1] ، فهم يفرحون لحزن رسول الله صلى الله عليه وآله بالفاجعة الأليمة التي ألمّت به في كربلاء .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

وصلى الله على محمّد وآله الطيبيّن الطاهرين

---

(١) سورة التوبة : الآية ٥٠ .

الإرهاب .. المنشأ والآثار

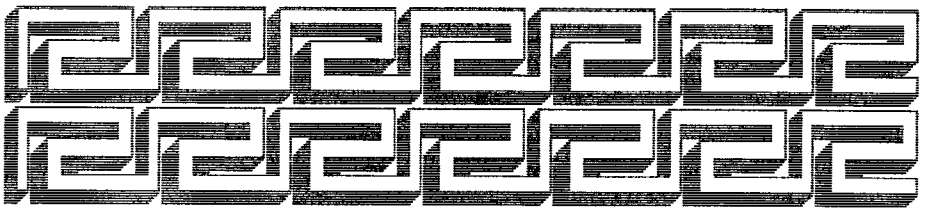

المحاضرة الأُولى

إحياء الشعائر الحسينيّة

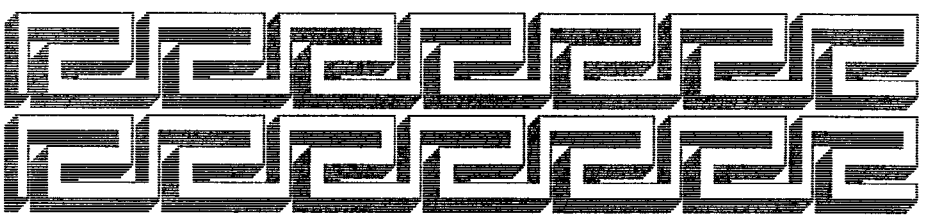

بسم الله الرحمن الرحيم

إحياء الشعائر الحسينيّة

إنّ إحياء الشعائر الحسينيّة التي هي من الشعائر الدينيّة التي ورد الحثّ عليها متواتراً من طرق الفريقين أمر لا شكّ في مشروعيّته كما بيّنه قوله تعالى: ﴿ **ذٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ** ﴾[1].

والآية الكريمة لا تختصّ بالشعائر التي قد تعبّدنا الله تعالى بها لكونها شعيرة؛ وذلك لأنّ كلّ عمل ورد في الشريعة إذا لم يكن موضوعه قد عُيّن وحُدّد من قِبل الشرع فإنّ المتعارف لدى علماء الفقه والأُصول ـ كمنشأ قانوني شرعي ـ أن يحمل على معناه اللغوي.

مصاديق الشعائر الدينيّة

إنّ ملاحظة الآية الكريمة نجد فيها أنّه قد أُضيفت كلمة «شعيرة»، وجمعها (شعائر) إلى الله تعالى، حيث أنّ معنى الشعيرة العلامة والدلالة، فهذا العنوان الذي أخذ من الآية أُضيف إلى الله تعالى، فكلّ ما يكون معلماً دينياً بالاتّخاذ والتواضع عند المتشرّعة

---

(١) سورة الحجّ: الآية ٣٢.

يؤهّله ذلك لأن يكون شعيرة دينيّة يصحّ جعله مصداقاً من مـصاديق الشـعيرة ، وإلّا فالآية ليست مختصّة بشعائر الحجّ مع أنّها واردة في سورة الحجّ ، وتتكلّم عن موضوع يتعلّق بالحجّ .

مقوّم عنوان الشعيرة راجحيّتها

الدعوى في الشعيرة أنّها حقيقة شرعيّة ، ولا بدّ فيها من التعبّد ، هو خلاف ما يذهب إليه فقهاء كلّ الفرق الإسلاميّة وعلماء الأُصول ، فإنّ هناك ما يسمّى بالحقيقة اللغويّة للحقيقة الشرعيّة ، ومقصودهم من الحقيقة الشرعيّة ذلك المعنى الذي أنشأه الشارع بتحديد وترتيب أجزاء معيّنة في أمرٍ معيّن كما في الصلاة التي لها معنى خاص بـها ، حدّده الشارع وتعبّد المكلّفين به ، وإذا لم يرد التعبّد في أمرٍ معيّن ، ولم يرتّب حكماً من الأحكام عليها ، فحينئذ يبقى المعنى على حاله ، فإذا كان الحال كذلك فأي عمل يتّخذ علامة ودلالة متشرّعية على معنى مقدّس في الشريعة بعد أن يكون العمل فـي نفسه مباحاً يكون مؤهّلاً للدخول في شعائر الله فإنّه يصبح أحد مصاديقها إضافة لتلك المصاديق التي جعلها الله كشعائر ، ومن الطبيعي أنّه يـجب أن تكـون هـذه الشـعيرة مباحة أو راجحة شرعاً ، وليس من المعقول أن يكون هذا العمل المراد اعتباره شعيرة عملاً محرماً شرعاً في نفسه ؛ لأنّ العمل المحرّم يرفضه الشرع ، ولا يصلح أن يكون علامة للدين باعتبار أنّ الشعيرة علامة .

تطبيق على المولد النبوي

إنّ التحديد الموضوعي والقانوني لأي مصداق من مصاديق الشعائر أن يكون موضوعاً مباحاً في نفسه ، ولذلك لم يتحرّج أحدٌ من فقهاء المـذاهب الإسـلامية ـ عـدا الشـاذّ المريب منهم ـ من اعتبار إحياء المولد النبوي المبارك أمراً حسـناً وإيـجابياً رغـم أنّـه لم يرد ما يدلّ على إحيائه بصورة خاصّة دليل مـن الشـرع ، إلّا أنّ المـذاهب الأربـعة

فضلاً عن مذهب الإمامية لم يتركوا الاحتفال بهذه المناسبة الكريمة ؛ لأنّ الإحتفال بمولد النبيّ ﷺ يحمل في طيّاته التكريم والتبجيل والتعظيم للنبيّ محمّد ﷺ الذي أدّب القرآن الكريم المسلمين على ذلك . وهذا يعتبر تعظيماً للدين ، ويكون مولده شعيرة من الشعائر الدينيّة .

الشعائر الدينيّة بين التعبّد والحداثة

إذن في الشعائر الدينيّة لا يرد الاعتراض على استحداث أساليب جديدة لإحياء الدين باعتبارها بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، بل البدعة إنّما تكون في ما لم يرخّص به الشارع المقدّس لا بالأمر الخاصّ ولا بالأمر العامّ ، والشرعيّة لا تختصّ بالأمر الخاصّ ، وإلّا لم يقم للدين بناء ، بل الشرعيّة تعمّ كلا الأمرين ، ولا يتوهّم الاختصاص إلّا الحشوي المتّهم على الدين ؛ وذلك لأنّ الشعائر الدينية لم تكن محدّدة بمصداق معيّن بحيث لا تنطبق على غيره . نعم هناك بعض العبادات محدّدة ، كالصلاة ، حيث حدّد الشارع بدايتها بالتكبير ، ونهايتها بالتسليم ، وثلثها الركوع ، وثلثها السجود ، ولها كيفيّة معينة ، أمّا إذا لم يحدّد الشارع كيفية معيّنة فيستساغ إحياء تلك الشعيرة أو غيرها الدالّة على المعنى الديني بشرط كونها مباحة أو راجحة .

المعنى اللغوي ودوره في فهم النصوص الشرعيّة

لتوضيح المطلب نأخذ مثالاً على ذلك ، فمثلاً قوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ ﴾[1] ، هذا نصّ شرعي ، ولا يعني هذا النصّ أنّ البيع قد استجدّ معناه وحمل معنى معيّناً ، بل معناه هو المعنى اللغوي ، أي نحمله على ما يفهمه عرف العقلاء ، وأنّ الشارع لم يردع عن هذا المعنى اللغوي ، وهذا دأب حتّى أُولئك الذين يحكمون بالبدعة على كلّ ما

---

(١) سورة البقرة : الآية ٢٧٥ .

استجدّ من الشعائر الدينيّة والطقوس والمراسم الدينيّة في إحياء وتشييد معانٍ دينيّة سامية ، فهؤلاء أيضاً يعتمدون في فهم النصّ في أبواب الفقه على المعنى اللغوي الوارد فيه إلّا إذا تناقض هذا الفهم اللغوي للنصّ مع معنى من المعاني التعبّدية الشرعيّة.

الشعيرة معناها العلامة

إنّ اليافطات والإعلانات الموجودة على بعض المباني إنّما تدلّ على أُمورٍ معيّنة ، كما لو رأينا إعلاناً مكتوباً عليه (عيادة) ، فإنّ هذا الإعلان دليل على وجود طبيب وأجهزة طبية تمثّل العيادة ، كذلك الدين له علامات وشعائر ، فتارة تكون هذه الشعائر محدّدة من قِبل الله تعالى ، كما قوله تعالى: ﴿ **إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا** ﴾[1] ، وأُخرى لم تكن محدّدة ، وتحديد الشارع لبعض مصاديق الشعائر لا يعني رفضه للمصاديق الأُخر التي لم يحدّدها ، بل إطلاقه للفظ الشعيرة ترخيص بانطباق الطبيعة العامّة على بقيّة المصاديق التي تحمل معنى العلاميّة والدلاليّة.

مصاديق مودّة أهل البيت عليهم السلام

إنّ كلامنا هذا لا يعني أنّه لم يرد من الشرع إلّا آية في الحثّ على إحياء الشعائر الحسينيّة ، بل إنّ هناك الكثير من الأدلّة التي تدلّ على استحباب إحياء الشعائر الحسينيّة ، فالآية الكريمة التي تقول: ﴿ **قُل لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ** ﴾[2] ، فالمودة تفيد أنّ الفرح لفرح المودود الذين هم آل محمّد صلى الله عليه وآله ،

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٥٨ .

(٢) سورة الشورى: الآية ٢٣.

والحزن لحزنهم ، أمر لا بدّ من تحقّقه ، وإلّا لم تتحقّق هذه المودة ؛ وذلك لأنّ المودّة أرقى وأعلى وأشدّ من المحبة ، ويشترط في المودّة صدق الحبّ من المحبّ للمحبوب ، وكذلك المودّة تتضمّن موضوع إبراز المحبة وإظهارها ، ومن هذا المنطلق نحن نفرح لفرحهم ونحزن لحزنهم لكي نحقّق مفهوم المودّة .

دلالة تعظيم الله على الرجحان

لو رجعنا إلى نفس هذه الآية المتقدّمة فإنّها تدلّ على أنّ إحياء ذكرى عاشوراء هي من الشعائر الدينيّة ؛ لأنّ هذا الأمر أمراً راجحاً في الدين ، وقد ورد في كتب العامة متواتراً : « **الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة** »(١) ، « **وأنّهما ريحانتا رسول الله** ﷺ »(٢) ، وما حصل عليه أهل البيت من مقامات عالية قد بُيّن بعضها في القرآن كما هو شأن آية المباهلة ، وآية المودّة ، وآية التطهير ، وسورة الدهر ، وغيرها ، فكلّ ذلك يوجب تعظيمهما وتبجيلهما ؛ لأنّ لهما ذلك المكان العالي الذي لا بدّ للإنسان المؤمن أن يتعاطى معه بما يليق به .

وقد ورد في كتب العامّة : « **أنّ مخلوقات الله كالسماء والأرض ، وكلّ حجر ومدر**

---

(١) المستدرك على الصحيحين : ١٥٦/٤ ، باب الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة ، الأحاديث : ٤٨٣١ ، ٤٨٣٢ ، ٤٨٣٣ . سنن ابن ماجة : ٨٤/١ ، فضائل عليّ بن أبي طالب ، الحديث ٥/١١٨ . الترمذي : ٥٣٠/٣ ، مناقب أبي محمّد الحسن بن عليّ بن أبي طالب والحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام ، الحديث ٣٥٥٣ . الفقيه : ١٢٦/٤ ، كتاب الوصيّة ـ باب الوصيّة من لدن آدم عليه السلام ، الحديث ٣ .

(٢) كامل الزيارات / ابن قولويه : ١١٥ ، باب ١٤ ـ حبّ رسول الله ﷺ الحسن والحسين عليهما السلام ، والأمر بحبّهما ، الحديث ٨ و ٩ . بحار الأنوار : ٢٧٠/٤٣ ، باب فضلهما ، ومناقبهما ، والنصوص عليهما ، الحديث ٣٤ . الترمذي : ٥٢٦/٣ ، مناقب أبي محمّد الحسن بن عليّ بن أبي طالب والحسين بن عليّ بن أبي طالب عليهما السلام ، الحديث ٣٥٤٢ .

والملائكة قـد بكت عـلى الحسـين عليه السلام »[1] ، وهـذا مـا لا يـترك للـمشكّكين مـنفذاً للتشكيك في شرعيّة إحياء ذكرى الحسين عليه السلام . وقد ذكـر الشـيخ جـعفر آل كـاشف الغطاء أنّ مشاهدهم وقبورهم قد شُعِرتْ من قِبل الرسول صلى الله عليه وآله ، حـيث قـد ورد عـن طرق العامّة ـ فضلاً عن طرق الخاصّة ـ الحثّ على زيارتهم وإعمار قبورهم وما شابه ذلك ، ممّا يدلّ على رغبة الشارع في إشادة هذا البنيان كمعلم للدين . إذن كـون هـذه الشعيرة من الشعائر العظيمة للدين أمر مسلَّمٌ به .

ثمار الشعائر الحسينيّة ومصاديقها

قد بيّن أهل البيت عليهم السلام بعض الأساليب والمصاديق في إحياء الشعائر الحسينيّة ، إلّا أنّ تبيينهم عليهم السلام لتلك الأساليب لا يدلّ على الحصر وأنّ غيرها من الأساليب والمصاديق مرفوضة في الشرع .

ولنا أن نتساءل عن كيفية اختيار الشعائر المناسبة ؟

ذكرنا أنّ الشرط الأوّل في الشعائر الدينيّة ـ فضلاً عن الشعائر الحسينيّة ـ أن تكون هذه الشعائر عملاً مباحاً ، وهذا أمرٌ جليٌّ واضحٌ . وقـد مـرّ عـلينا أنّ الشـعائر تـعني العلامات لمعنى ديني معيّن ، ونحن نرى أنّ الشعائر الحسينيّة تُؤتي ثمارها إلى يومنا هذا ليس على صعيد مذهب أهل البيت عليهم السلام فحسب ، وإنّما عـلى صـعيد المـذاهب الإسلاميّة الأُخرى أيضاً ، فنلاحظ مثلاً شباب الانتفاضة الفلسطينيّة الذين اتّخذوا من شباب المقاومة في جنوب لبنان نموذجاً لمـحاربة إسـرائـيل ، والجـنوبيون اتّـخذوا

---

(١) تفسير القرطبي : ١٩٩/١٠ ، تفسير سورة الإسراء : الآية ٧ . تفسير ابن كـثير : ٢٣٤/٧ ، تـفسير سورة الدخان ، الآية ٢٤ . تفسير الدرّ المنثور : ٣٥٨/٧ . تفسير الآية المتقدّمة . كفاية الطـالب / الكنجي الشافعي : ٤٤٣ و ٤٤٤ ، قاعدة في ذكر المعقبين من أولاد أمير المؤمنين عليه السلام ، الثاني أمير المؤمنين الحسين بن عليّ عليه السلام .

الحسين عليه السلام مناراً في حربهم وتحريرهم لبلادهم من رجس العدوّ الصهيوني. فكلّ ذلك كان بفضل الروح الثوريّة التي كانت عند الحسين عليه السلام الرافضة للذلّ والهوان.

ولو رجعنا إلى روايات أهل البيت عليهم السلام نجدها قد حدّدت المعنى الذي يجب أن تكون الشعائر الحسينيّة دالّة عليه، وقد جمع الحرّ العاملي في كتاب وسائل الشيعة (في نهاية كتاب الحجّ) روايات تتحدّث عن الزيارة، مبوّبة في ما يربو على المائة باب وجميعها تحثّ على الزيارة، وخصوصاً زيارة الحسين عليه السلام، فمن الباب الثامن والثلاثين إلى ما بعد الباب السبعين قد خصّها صاحب الوسائل للشعائر الحسينيّة. وهذا دليل على محبوبيّتها عند المولى واستحباب فعلها.

ولا بدّ لمن يريد أن يقيم دراسة معمّقة عن الشعائر الحسينيّة من الاطّلاع على هذه الأبواب التي ذكرناها، فمن المصاديق المذكورة في بيان إحياء الشعائر الحسينيّة التي وردت في رواياتهم عليهم السلام البكاء والجزع ـ يعني شدّة الحزن على سيّد الشهداء ـ وزيارة الحسين وإنشاد الشعر.

والشعائر الحسينيّة لها عدّة وجوه:

الوجه الأوّل: هو الحزن والجزع والتفجّع والبكاء.

والوجه الثاني: هو الحماس، وإثارة المشاعر، وتجييش العواطف، والفداء، والتضحية، والاستبسال، والشجاعة.

والحماس على أنواع، فقد يكون حماساً متّصلاً باللعب والحرص والطمع، وقد يكون متّصلاً بالعمل والجدّ، وقد يتّصل بأُمور دنيويّة، ولكنّ الحماس في الشعائر الحسينيّة هو أمر مختلف؛ لأنّه يتّصل بالحزن على سيّد الشهداء، ويوضّح موقف الحقّ بوجه الظلم.

والوجه الثالث: هو وجه المبادئ والقيم النبيلة التي استشهد من أجلها الإمام الحسين عليه السلام، ومن المعروف أنّ الإمام الحسين هو أكثر إمام ورد الحثّ على زيارته،

وهذه الزيارات المأثورة تشدّ الزائر إلى المعاني التي من أجلها استشهد الحسين عليه السلام ، فقد ورد في زيارة وارث: «**وَأَشْهَدُ أَنَّكَ مِنْ دَعائِمِ الدِّينِ ، وَأَرْكانِ الْمُؤْمِنِينَ ، لَمْ تُنَجِّسْكَ الْجاهِلِيَّةُ بِأَنْجاسِها ، وَلَمْ تُلْبِسْكَ مِنْ مُدْلَهِمّاتِ ثِيابِها**»[1] ، وقد ورد من آداب زيارة الحسين عليه السلام أن لا يملأ الزائر بطنه بالطعام والشراب ، بل يكون جائعاً وعطشاناً لكي يعيش أجواء استشهاد الحسين المقتول عطشاناً ، وقد أنّب الإمام الصادق عليه السلام بعض الشيعة الذين كانوا يطيبون السفر عند قبر الإمام الحسين عليه السلام حيث قال أبو عبدالله عليه السلام لأحد أصحابه: «**تأتون قبر أبي عبدالله** عليه السلام ، قال: قلت: نعم ، قال: **تتّخذون لذلك سفرة؟** قال: قلت: نعم ، قال: **أما لو أتيتم قبور آبائكم وأمّهاتكم لم تفعلوا ذلك...**»[2] ، باعتبار أنّ تهادي الحلوى لا يناسب أجواء المصيبة والحزن.

عاشوراء شعيرة الحزن والعزاء

ذكر الشيخ المفيد أنّه يستحب في يوم العاشر للمؤمن أن لا يلتذّ بالطعام والشراب ، ولا يتزيّن بزينة ، ولا تكون حالته الظاهرة حالة فرح ، بل حالة حزن ومصاب ، وقد أُثر عن الكثير من فقهاء الإماميّة أنّهم كانوا لا يتناولون الفواكه في أيام عاشوراء ، باعتبارها مظهراً من مظاهر التلذّذ ، وكان الأئمّة عليهم السلام تبدو عليهم علامات الحزن بمجرّد دخول شهر محرّم الحرام.

---

(١) بحار الأنوار: ٢٠٠/٩٨ ، باب زيارته (صلوات الله عليه) ، وهي عدّة زيارات مسندة.

(٢) راجع بحار الأنوار: ١٤٠/٩٨ ، الباب ١٧ ـ باب آداب زيارته (صلوات الله عليه). مستدرك الوسائل: ٣٤٨/١٠ ، باب أنّه يستحبّ لمن أراد زيارة الحسين عليه السلام أن يصوم ثلاثاً آخرها الجمعة ، الحديث ١٢١٥٤ /٢.

وقد ورد أيضاً: إنّ صرّام قال لأبي عبدالله عليه السلام: «إنّ قوماً يزورون قبر الحسين بن عليّ عليهما السلام فيطيبون السفر ، قال: فقال أبو عبدالله عليه السلام: «**أما أنّهم لو زاروا قبور آبائهم ما فعلوا ذلك**» ـ مستدرك الوسائل: ٣٤٩/١٠ ، الباب المتقدّم ، الحديث ١٢١٥٤ /٢.

المحافظة على قدسية الذكرى

كانت عاشوراء في السابق أكثر تفجّعاً وحزناً ،كما ينقل بعض من عاصر تلك الحقبة ، أمّا الآن فبعض الممارسات والمظاهر لا تتناسب مع الحزن على مصاب سيّد الشهداء عليه السلام . كما أنّ البعض في أيّام محرّم لا يراعي حرمة المناسبة ، فيلبس لباساً مثيراً ، وكذلك بعض الألحان التي تكون في مواكب العزاء لا تتناسب مع الحزن والفاجعة في هذه الذكرى الأليمة .

وقد ورد في بعض الروايات الحثّ على قرآءة القرآن بحزن ؛ لأنّ اللحن الحزين يساعد على التدبّر والتحليق في معاني القرآن الكريم ، وأتذكّر الألحان القديمة لحمزة الصغير وغيره من الرواديد رحمهم الله كانت ألحان مفجعة . إذن المطلوب من الألحان أن تكون ألحاناً حماسية حزينة لا ألحاناً حماسيةً مطربة ، وهذا الأمر ليس أمراً هامشياً وإنّما أمراً مهماً ؛ لأنّ الموكب واجهة مهمّة تبرز الشعائر الحسينيّة للناس .

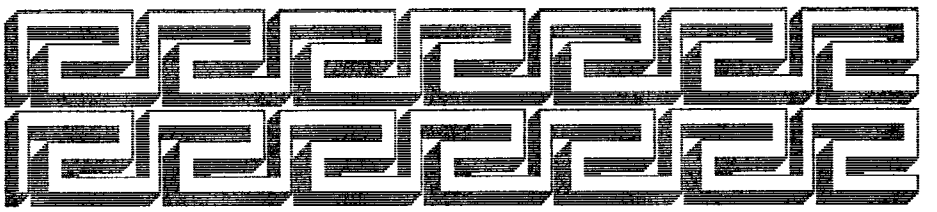

المحاضرة الثانية

البكاء وعلاج ظاهرة الارهاب والقسوة

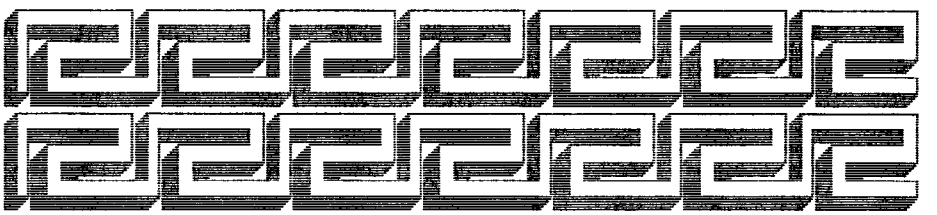

بسم الله الرحمن الرحيم

أركان الشعيرة الحسينية

مرّ علينا في سابقاً ذكر الروايات المتواترة عن أهل البيت عليهم السلام التي تصف بأنّ الشعيرة الحسينيّة يجب أن تتقوّم بأركان ثلاثة:

الركن الأوّل: تضمّن معنى الحزن والمصاب والتفجّع.

الركن الثاني: الحماس والعاطفة الجيّاشة.

والركن الثالث: المبادئ والقيم النبيلة التي رسمها الحسين عليه السلام في نهضته.

وقد تقدّم الكلام عن الركنين الأوّل والثاني، وبقي الكلام عن الركن الثالث.

دلالة الشعائر الحسينيّة على أهداف ثورة الحسين عليه السلام

إنّ الضرورة لائحة في كون الشعيرة الحسينيّة دالّة على المعاني والفضائل والقيم النبيلة والأهداف الإصلاحيّة التي نهض من أجلها الإمام الحسين عليه السلام حيث كانت منعطفاً مهمّاً في التاريخ الإسلامي، وحيث أنّ أهل البيت عليهم السلام هم العِدل الثاني الذي أمرنا بالتمسّك به، فلا بدّ أن تكون أقوالهم وأفعالهم وسيرتهم حجّة، ومن ثمّ فإنّ الشعيرة الحسينيّة لا بدّ أن تكون دالّة على الأهداف والفضائل والقيم النبيلة التي قام

من أجلها الحسين عليه السلام وصحّح مسيرة الأُمّة.

أهداف ثورة الحسين عليه السلام وتطبيقها في الواقع

يجب على الأُمّة أن تجعل الشعيرة الحسينيّة من منطلقات الإمام الحسين وأهدافه محوراً وقطباً ومنهلاً تنهل منه الحلول لقضاياها الراهنة ، وإذا كان استعراض القضايا الراهنة بعيداً عن فكر كربلاء وعطاء الحسين فإنّ الشعيرة الحسينيّة لا تؤدّي غرضها كما ينبغي ، وكذلك استعراض السيرة الحسينيّة بعيداً عن ربطها بالقضايا الراهنة المعاصرة يقف عائقاً أمام تحقيق غرض الشعيرة الحسينيّة ، ولا يمكنها أن تؤدّي غرضها بصورة كاملة إلّا إذا قمنا بتحليل مواقف الإمام الحسين وكلماته وتطبيقها على الواقع ، وحينئذٍ نكون قد تمسّكنا بالإمام الحسين الذي هو مصباح الهدى وسفينة النجاة.

هل البكاء ظاهرة سلبيّة ؟

من المعروف أنّ البكاء أحد الأُمور المؤكّدة التي حثّ عليها أهل البيت عليهم السلام ، بل هو من أبرز الشعائر الحسينيّة التي تديم المودّة بين النّاس وأئمّتهم عليهم السلام.

ولهذا نجد أنّ من القضايا المثارة حول شعائر الحسين هي قضية البكاء والجزع ، التي تثير الاعتراضات من قِبل غير المسلمين ، أو غير الشيعة من المذاهب الإسلاميّة الأُخرى ، وهذه الاعتراضات تكشف عن جهل صاحبها وأنّها غير مدروسة ؛ لأنّ البكاء ظاهرة نفسيّة تستحقّ البحث والدراسة في حقول علم النفس.

وعلى ذلك يمكن أن نطرح سؤالاً هو : هل أنّ البكاء ظاهرة سلبيّة بما تحمله من حالة الانكسار والضعف وعدم الشجاعة في مواجهة الواقع ـ كما يقولون ـ أم أنّ لها آثار إيجابيّة عظيمة ؟

وقبل الإجابة عن هذا السؤال لا بدّ أن نبيّن آثار البكاء.

البكاء علاج لأمراض الروح والنفس

إنّ الدراسات الغربية تؤكّد أنّ الكثير من العقد والأمراض النفسية والإجرام والاضطرابات الروحيّة إنّما تحصل نتيجة غياب وفقدان البكاء ، وأنّ في البكاء علاج لهذه الأمراض الروحيّة والنفسيّة ، وقد عمل بعض الأطباء الغربيّين على تهيئة أجواء بكاء لبعض المرضى ، أو كما يصطلحون عليه بالبكاء الاصطناعي في مقابل البكاء الطبيعي ؛ لأنّ في البكاء علاج نفسي.

الإسلام والقرآن الكريم يثني على البكّائين

إنّ مسألة البكاء يجب أن تخضع لدراسة ، ولا ينبغي أن يحكم عليها بالسلبية ، خصوصاً أنّ الإسلام قد حثّ على البكاء من خشية الله والتوبة من الذنوب والرجوع إلى الله ، ونلاحظ أنّ القرآن الكريم قد أثنى على القسّيسين والرهبان ؛ لأنّ أعينهم تفيض من الدمع . قال تعالى : ﴿ **لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارىٰ ذٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ * وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ** ﴾[1].

دور البكاء في وصول الإنسان إلى الكمال

الكبر والعجب والتعجرف والاستعلاء والعصبيّة أمراض نفسيّة تصيب الإنسان ، ويعتبر البكاء علاج لهذه الأمراض ، بل يستطيع البكاء أن يقتلع الكثير من جذور الصفات المذمومة في النفس . ولا يقترب الإنسان ـ في أغلب الأحيان ـ من البكاء إلّا إذا

---

(١) سورة المائدة : الآيتان ٨٢ و ٨٣.

اقترب إلى الفضائل والقيم النبيلة والمبادئ الإنسانيّة العالية ، والسبب أنّ الانفعال الذي يحصل حال البكاء إنّما يتولّد بعد إخبات الإنسان لذلك المعنى الرفيع الذي ينفعل معه ، والإخبات إذعان وانقياد ، فلا يتمّ بكاء إلّا والإيمان بذلك المعنى قد تحقّق. نعم ، قد تعاود مقتضيات الرذيلة وذلك لوجود واستمرار أسبابها ، وهذا أمر آخر. ولكن يظلّ البكاء ممانع لتلك الرذائل. وتكون نتيجة هذا البكاء هو تخلّص الإنسان من الرذائل وابتعاده عن الأفراد والجماعات التي تمارس هذه الرذائل الروحيّة ، ويقرّب البكاء الإنسان إلى الفضائل ، ويجعله يحبّ ويقترب إلى أهل الفضائل والمحسنين والصالحين.

الحكمة الإلـٰهيّة لخلق حالة البكاء عند الإنسان

ولو تساءلنا: لِمَ خلق الله حالة البكاء وجعلها مرتبطة بالإنسان ؟

الجواب هو: إنّ البكاء تصحيح ، وطب نفسي سريع جدّاً للأمراض المتجذّرة ، والتي ربّما تكون أمراضاً نفسيّة وسرطانيّة خطيرة تهدّد مستقبل الإنسان والمجتمع ، ومن ناحية أُخرى فإنّ البكاء يبني الفضائل والمحاسن في نفس الإنسان بشكل سريع أيضاً.

فعلى سبيل المثال: الخشوع لله ـ وهو من أفضل الكمالات التي يحصل عليها الإنسان ـ ورقّة القلب والصفاء النفسي له علاقة وثيقة بالبكاء ، ويختصر البكاء الطريق إلى الله ويقرّب إليه.

الآثار الإيجابيّة للبكاء

لا نجد في المصادر الإسلاميّة من القرآن وأحاديث أهل البيت عليهم السلام ، بل حتّى روايات أهل السنّة المذكورة في صحاحهم ، إلّا الثناء والمدح للبكاء والتنويه بآثاره الإيجابيّة ؛ لأنّ البكاء يقف مقابل الرعونة والخشونة والقساوة ، والمجتمع الدولي

يعاني اليوم من الإرهاب والقساوة والعنف والفرعنة والأنانيّة.

ويصلح البكاء ـ إذا ما نجحنا في تفعيله في النفس ـ أن يُذهب القساوة والعنف والإرهاب من نفس الإنسان، فمن الخطأ الاستخفاف والاستهزاء بالبكاء؛ لأنّ البكاء من أفضل العبادات، والإنسان يكون في أقرب الحالات إلى الله تعالى إذا كان في حالة الانكسار والتضرّع والضعف.

الحسين قتيل العَبرة

لا شكّ في أنّ البكاء يصاحب هذه الحالات النفسيّة العالية، ومن هنا كانت روايات أهل البيت عليهم السلام تعبّر عن الحسين بأنّه (قتيل العَبرة)، والعَبرة هي الدمعة والبكاء المرتبط بالفضائل، والنبيّ صلى الله عليه وآله يقول: «**إنّما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[1]. إذن العَبرة الحسينيّة تصبّ في مصبّ بناء مكارم الأخلاق، وتتناغم مع أهداف الرسالة المحمّديّة صلى الله عليه وآله.

التفاعل مع القضية ودوره في تفعيل البكاء

بعض الروايات تشير إلى أنّ من أسرار استشهاد الإمام الحسين عليه السلام هو بكاء المؤمنين عليه، باعتبار أنّ البكاء له دور كبير في البناء الاجتماعي، وتحصينه من الآفات، وحثّه على المكرمات.

ولا يمكن للبكاء أن يفعل مفعوله في النفس إلّا إذا عرف الإنسان آثاره الإيجابيّة وسعى إليه، وتفاعل مع القضية التي بكى من أجلها، وبكى باعتبار أنّ البكاء باب من أبواب الفضيلة والكمال الإنساني، ومن المعروف أنّ الله قريب من الخاشعة قلوبهم، وبعيد عن القاسية قلوبهم.

---

(١) مستدرك وسائل الشيعة: ١١/١٨٧، باب استحباب التخلّق بمكارم الأخلاق، الحديث ١/١٢٧٠١.

هل الإرهاب مرادف للصلابة والشدّة؟

سنتحدّث الآن عن موضوع الإرهاب كمرادف للوحشيّة والحيوانيّة والرعونة والخشونة والقسوة والعدوان، وفي مقابله اللين والرفق والسلام، وما نريد أن نبيّنه هنا هو: هل إنّ كلّ موقف من مواقف الشدّة والصلابة هو موقف إرهابي وحشي، أم هو متوقّف في عنوانه على الآثار المترتّبة عليه؟

الإجابة القانونيّة لهذا السؤال:

وللإجابة عن هذا السؤال لا بدّ من استعراض الإجابة القانونيّة له، سواءً كان القانون قانوناً إلهياً سماوياً أو قانوناً أرضياً وضعياً، وقبل الإجابة عن السؤال لا بدّ من معرفة الخلفيّات الحقوقيّة لهذا الموضوع، وتسبق هذه الخلفية الحقوقيّة مرحلة أخلاقيّة ثمّ رؤية فلسفيّة عقائديّة، وهذا أمر متسالم عليه عند علماء القانون الإلهي والوضعي. إذن هناك أربع مراحل: المرحلة الأُولى: الرؤية العقائديّة والفلسفيّة، والمرحلة الثانية: المرحلة الأخلاقيّة، والمرحلة الثالثة: القضية الحقوقيّة، والمرحلة الرابعة: القضايا القانونيّة.

المراحل التي تستند إليها القضايا القانونيّة

المرحلة الأُولى: الرؤية العقائديّة والفلسفيّة، لا شكّ أنّ لكلّ قضيّة ـ مهما كانت ـ لا بدّ أن تحمل في طيّاتها رؤية عقائديّة وفلسفيّة تبيّن الاتّجاه والمعنى لهذه القضيّة، سواءً كانت هذه الرؤية دينيّة تعتقد بوجود الخالق، أو رؤية مادية لا تعتقد بوجوده، أو هل إنّ الإنسان هو المحور؟ أم الله هو المحور؟ أو المجتمع هو المحور؟ ولا بدّ من تحديد الرؤية العقائديّة والنظرة الفكريّة للكون، وحتّى الدساتير الغربيّة التي كانت تعتبر الفرد هو المحور وأنّ الحريات الفردية هي المقدّمة على غيرها، عادت وقالت: إنّه ينبغي الموازنة بين حرية الفرد وحرية المجتمع.

وعلى كل حال فهذه الدساتير تستند إلى رؤية عقائديّة معيّنة أيّاً كانت هذه الرؤية ، وهو ما يسمّى في العلوم الإسلاميّة (علم الكلام) أو (نظرية المعرفة).

هذا ما أوجزناه في هذه المرحلة ، أمّا المراحل المتبقية وهي :

المرحلة الثانية : القضايا الأخلاقيّة.

المرحلة الثالثة : القضايا الحقوقيّة.

المرحلة الرابعة : القضايا القانونيّة.

فسوف نتناولها إن شاء الله في ضمن مباحثنا الآتية.

معرفة خلفيّات القانون ودورها في الحكم عليه

من الصعب أن تعرف أنّ هذا القانون قانوناً عادلاً أم قانوناً ظالماً وأنت لا تعرف خلفيّته الحقوقيّة ، أو أن تحكم على أمر معيّن بالصحة أو الخطأ وأنت لا تعرف فلسفته الأخلاقيّة ، ومن الممتنع أن تحكم على رؤية أخلاقيّة من دون أن تتعرّف على الرؤية العقائديّة التي تستند إليها تلك الرؤية الأخلاقيّة ، فمثلاً : بعض فلاسفة الغرب يعتقدون أنّ منظومة الأخلاق إنّما هي وليدة الغرائز الجنسيّة ، ولهذا فهم يدعون إلى الإباحية الجنسيّة لغرض الوصول إلى الأخلاق ، وذهب البعض الآخر إلى أنّ هناك روح وهناك قوّة عقليّة يجب أن تهذّب الغريزة الجنسيّة وتضبطها عن الخروج من الإطار الذي حدّد لها. ومن الواضح أنّ حكم هؤلاء القانوني سيختلف عن حكم أُولئك باعتبار الاختلاف الناتج عن الخلفيّات العقائديّة الفلسفيّة والأخلاقيّة والحقوقيّة.

وهناك مدرسة الباراسيكلوجية أو علماء الأثير ولهم نظرة مخالفة للماديّين ، ونظرياتهم مشابهة للنظريات الدينيّة والملل الموحّدة ، ولهم مدارس وبحوث وجامعات وأكاديميات ومنتديات علميّة يطرحون من خلالها عقائدهم وأُصولهم التي يتبنّونها ، ولهم مباحث معطاءة وخلّابة.

دراسة خلفيّات القانون ومعرفة حدودها

إذا أردنا دراسة الإرهـاب كـمرادف للـوحشيّة والرعـونة والخشـونة والحـيوانـيّة والقسوة وإثارة الحروب والبغض والكراهـية ومـا يكـون فـي مـقابله اللـين والرفـق والسلام والهدوء والأمن والحوار والتأنّي في الحكم والإخاء والصداقة والمحبة ، فلا بدّ من دراسة القانون وخلفيّاته الحقوقيّة والرؤية العقائديّة الفلسفيّة التي تستند إليـها هذه الخلفية من أجل معرفة الصحيح من السقيم في كلّ هذه الأمـور التـي ذكـرناها؛ ولكي تتبيّن الخطوط التي لا يجوز تجاوزها ، ومعرفة موضع التجاوز ، وأين يـجوز الحكم ... الخ.

رؤيتنا العقائديّة

إذا كان بحثنا بحثاً علمياً منطقياً لا بدّ لنا أن نلتزم بهذا التسلسل ، ولا بدّ في البداية من التأكيد على وجود الرؤية العقائديّة التي تبتني عليها أي فكرة ـ مهما كانت بسيطة ـ أو يبتني عليها أي دين ، وبما أنّنا مسلمون فرؤيتنا تبتني على وجود الخالق لهذا الكون وعـلى تـوحيده أيـضاً ، ولا داعـي للـتفصيل فـي رؤيـتنا العـقائديّة لأنّـنا مسـلمون وموحّدون ، وهذا من المسلّمات التي نعيشها وأمر مفروغ منه.

لكل فعل منشأ أخلاقي

قبل الدخول في المرحلة الأخلاقيّة أنوّه إلى قاعدة ذكرها علماء الفلسفة وعـلماء الأخلاق ، وهي: «أنّ لكل فعل جذر أو منشأ أخلاقي عند الفرد وعند المجتمع» ، أي أنّ كلّ ظاهرة فرديّة أو اجتماعيّة أو أُسريّة لها منشأ نفساني أخلاقي ، وكلّ عمل فردي أو اجتماعي لا بدّ أن ينطلق من رؤية عقائديّة معرفيّة معيّنة.

الارتباط بين المراحل الأربع

إنّ أي نزاع قانوني لا يمكن حلحلته وتتبّع أوراقه وحقائقه إلّا عبر هذه المـراحـل

الأربع المتقدّمة التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بين بعضها البعض ، ونحن نلاحظ أنّ الدساتير في البلدان الإسلاميّة تشير إلى أنّ دين الدولة هو الإسلام ، وأنّ القرآن هو مصدر التشريع ، أو بعبارات قريبة من هذا المعنى ومن هذا المنطلق : يجب أن يتنبه القانونيّون إلى أنّ الأُصول القانونيّة ليست هي فقط المواد الدستوريّة التي من خلالها يمكن صياغة الأحكام والقوانين التي تلبّي حاجة النّاس ، ونقصد من الأُصول القانونيّة (البنى الأساسيّة التي يرجع إليها في سنّ القوانين ، وترجع إليها تفاصيل القوانين والقوانين الفرعيّة) ، فيجب الالتفات إلى أنّ الأُصول القانونيّة ليست مقتصرة على المواد الدستورية الأُمّ (الأصليّة) بل لا بدّ من النظر إلى المواد الأخلاقيّة التي يؤمن بها ذلك المجتمع ، والتي هي نفسها أُصول قانونيّة بناء على ما ذكرناه من ارتباط المراحل الأربع .

روح الشريعة وفقه المقاصد

ما ذكره فقهاء الإماميّة من أنّ هناك روح الشريعة وفلسفة الأحكام ترجع إلى أُصول قانونيّة ولكن لا تقتصر على الأُصول القانونيّة الفرعيّة ، وما يسمى (فقه المقاصد) ولا يعني فقه المقاصد إرجاع الفقه إلى المقاصد الفرعيّة ، بل هناك ما هو أكثر أصالة من الأحكام الفرعية ، وهي البنية التحتيّة الأخلاقيّة التي تهيمن على القوانين الفرعيّة .

صحيح أنّ هناك فرق بين الباحث القانوني والباحث الأخلاقي باعتبار اختلاف التخصّص ، ولهذا نجد أنّ القاضي ـ مثلاً ـ سواءً كان قاضياً مدنياً أو شرعياً ـ أنّ عليه فصل النزاع بالمواد القانونيّة التي ترجع إلى الهيمنة الأخلاقيّة كما ذكرنا .

الإمام الحسين عليه السلام يرجع أعداءه إلى الأُصول الأخلاقيّة

لا شكّ أنّ للأُصول الأخلاقيّة أثر كبير في استرجاع الصواب وإعادة المخطئ إلى الطريق الصحيح ، ولكن كلّ ذلك متوقّف على استجابة الوجدان الجماهيري المتمثّل

بردّ الفعل الباطني للنّاس ، ولذلك نرى أنّ الإمام الحسين عليه السلام في واقعة الطفّ يخاطب الوجدان الأخلاقي للأعداء ، فمثلاً: عندما اعتدى الجيش الأموي على مخيّم الإمام الحسين عليه السلام وعلى حرم رسول الله صلى الله عليه وآله قال لهم الحسين عليه السلام :

« يا شِيعَةَ آلِ أَبي سُفْيانَ ، إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ دِينٌ وَكُنْتُمْ لَا تَخافُونَ الْمَعادَ ، فَكُونُوا أَحْراراً في دُنْياكُمْ... أُقاتِلُكُمْ وَتُقاتِلُونَني وَالنِّساءُ لَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُناحٌ »[1] ، أي أنّ الحسين عليه السلام عندما شعر أنّ القانون والشرع لم يؤثّرا في هؤلاء الأعداء حاول إرجاعهم إلى الأُصول الأخلاقيّة فقال لهم كيف تقومون بهذا الفعل المتناقض مع الأخلاق والإنسانيّة **!؟**

---

(١) راجع اللهوف في قتلى الطفوف / ابن طاووس : ١٢٠ ، المسلك الثاني : في وصف حال القتال .

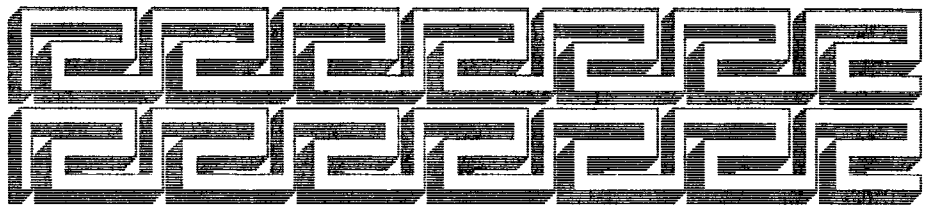

المحاضرة الثالثة

إستناد القانون على الأخلاق في تشريعاتنا

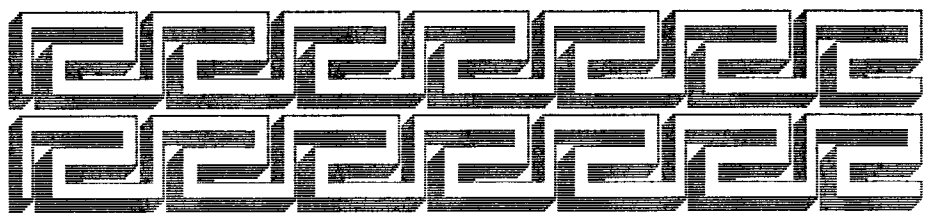

بسم الله الرحمن الرحيم

الاختلاف بين التعامل القانوني والأخلاقي

إكمالاً لحديثنا السابق نطرح تساؤلاً يقول:

كيف تكون الأخلاق أساساً وبنيّة تحتيّة للقانون مع أنّ الأخلاق والقانون أمران مختلفان، سواء كانا في نطاق الفرد، أو الأسرة، أو المجتمع، أو بين الدول؟

ولا شكّ في أنّ التعامل القانوني تعامل صارم حادّ وجافّ، بينما التعامل الأخلاقي يعتمد على المرونة والدماثة واللين والرفق والإحسان للمسيئ؟

فصل النزاعات بالقانون أم بالأخلاق؟

تارةً يتمّ فصل النزاع بين الأفراد أو الأسر أو المجتمعات أو الدول عن طريق القانون، **وأُخرى** يتمّ ذلك عن طريق التعامل الأخلاقي بين الطرفين المتنازعين أو بمبادرة أحد الطرفين المتنازعين.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ** ﴾[1] قال الإمام الصادق عليه السلام في تفسير ﴿ **سُوءَ الْحِسَابِ** ﴾:

---

(١) سورة الرعد: الآية ٢١.

«أتراهم خافوا أن يجور عليهم أو يظلمهم؟ لا والله! خافوا الاستقصاء والمداقّة»[١]، أي محاسبة الله تعالى لعباده بالعدل.

وأخوف ما يخاف العبد من الله تعالى أن يعامله بالعدل؛ لأنّ الإنسان إذا عـامله الله بعدله فلن ترجح كفّة حسناته على كفّة سيّئاته، وسيكون مصير العـبد هـو الخسـران المبين، ولذلك فنحن نرجو أن يعاملنا الله بفضله وعفوه ولا يعاملنا بعدله، إذن هناك فرق بين القضاء والحكم بالقانون، وبين القضاء والحكم بالأخلاق، ومن المفترض أن يرتبط البحث القانوني بالعدالة والحقوق لا بالفضل والإحسان والأخلاق، ومن هنا يطرح الإشكال الذي يثير علامة استفهام على جعل القوانين تستند إلى الأخلاق.

العلاقة بين الموازين الأخلاقيّة والقانونيّة

قالوا في إشكالهم: لا يمكن أن تكون هناك صلة بين النصوص القانونيّة والنصوص الأخلاقيّة، ولهذا فـلا يـصحّ أن تسـتنبط الأحكـام القـانونيّة اسـتناداً إلى المـوازيـن الأخلاقيّة. وكما يقال: إنّ القانون يمهّد إلى الحياة الخلقيّة، ولكن هناك اختلاف ـ كما أشرنا ـ بين الأمرين باعتبار أنّ الموازين القانونيّة تستلزم استيفاء كلّ حدود القضية.

حدّية القانون واستبعاد العنصر الأخلاقي

للردّ على هذا الإشكال نقول: لو سلّمنا كون الموازين القانونيّة أقلّ مرتبة من الموازين الأخلاقيّة، وأنّ الموازين القانونيّة تهدف إلى غرس الفضيلة والنظام فـي المـجتمع، فإنّ المشرّع القانوني الديني، أو المشرع القانوني الوضعي، لا بدّ أن يضع نصب عينيه

---

(١) مستدرك الوسائل: ٤٠٦/١٣، باب أنّه يكره لمن يـتقاضى الديـن المـبالغة فـي الاسـتقصاء، الحديث ١٥٧٣٩ /٣. الوسائل: ٣٤٨/١٨، الباب المتقدّم، الحديث ١/٢٣٨٢١. معاني الأخبار: ٢٤٦، باب معنى سوء الحساب، الحديث ١.

الوصول إلى الغايات الأخلاقيّة حينما يسنّ القوانين في المجتمع ، ولو بني النظام القانوني على القصاص الحدّي في جميع النزاعات بدون أي مرونةٍ أو عفو أو تعاطي في هذه القضية أو تلك ، فإنّ هذا سوف يؤدّي إلى اختلال نفس ذلك القانون ؛ لأنّ الحدّية تؤدّي إلى الجفاف ، والجفاف ـ كما يقال ـ سريع الاشتعال ، وهذا الاشتعال ـ سواءً بين الأطراف المتنازعة على مستوى الأفراد أو الأُسر أو المجتمعات والدول ـ سيؤدي إلى تأزّم القضية ، وإلى القضاء على القانون الذي ابتعد عن الموازين الأخلاقيّة وألغاها تماماً ، والنفس البشريّة لا تتلاءم مع الانصياع والخضوع للموازين القانونيّة الحدّية التي تستبعد الموازين الأخلاقيّة وتقضي عليها ، إذن فمن المستحيل الاستغناء عن العنصر الأخلاقي في الموازين القانونيّة ، وأنّ هذا العنصر هو الذي يساهم في حفظ استقرار القانون وحمايته ، ومع هذا نقول : إنّه ليس من الضروري أن يؤمّن القانون جميع الدرجات في الموازين الخلقيّة ، بل أنّه قد يبتعد بنسبة معيّنة حسب متطلّبات القضية ، وهذا الأمر مسلّم به عند علماء المسلمين .

العفو والإعراض في القرآن الكريم

يعتبر الإسلام ، بل حتّى الديانات الأُخرى ، أنّ الرفق واللين والرويّة والتعقّل والحلم والحوار هي الأصل في قوانين الإسلام على المستوى الاجتماعي والفردي ، ففي الآية الكريمة التي يعبّر عنها المفسّرون أنّها من التوصيات القانونيّة التي أوصى بها الله تعالى نبيّه في القرآن الكريم ، وهي قوله تعالى : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾[1] ، فقوله : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ** ﴾ أي : أنّ العفو ركيزة أساسية رئيسيّة في سيرة النبيّ ﷺ القانونيّة والسياسيّة والقضائيّة والإجرائيّة والتشريعيّة ، و﴿ **خُذِ الْعَفْوَ** ﴾ إذا كان للعفو سبيل ، وهذا الأمر إلزامي من الله لنبيّ الرحمة محمّد ﷺ ، وأمّا قوله

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٩٩ .

تعالى: ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ ، فقد فُسّر العرف بعدّة تفاسير ، فذهب البعض إلى أنّ: العرف هو ما تعارف عليه الناس ، وهذا قول مردود ؛ لأنّ النبيّ ﷺ يعمل طبقاً لخطّة الوحي الإلٰهي ، وأنّ عرف الناس قد يحمل الكثير من رواسب الجاهليّة ، وهذا يتناقض مع دور النبيّ الذي عبّر عنه القرآن الكريم: ﴿ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾[1] ، وذهب البعض الآخر إلى أنّ: ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ﴾ أي ما تعرفه الفطرة البشريّة ، أي ما يعرفه العقل من الحسن والقبح ، وهذا المعنى صحيح في نفسه ؛ لأنّ الدين الإسلامي دين الفطرة ، ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[2] ، والروايات تشير إلى أنّ النبيّ هو الرسول الظاهر ، والعقل هو الرسول الباطن ، وهذا المعنى وإن كان صحيحاً في نفسه إلّا أنّ ظاهر اللفظ لا يساعد عليه ، وذلك ينبغي تهيئة الجوّ الاجتماعي لتقبّل القانون ، وأن لا يتمّ إقحام القانون في أجواء لا تتفاعل معه ، وأنّ أي قانون جديد إذا أردنا أن نطبّقه في مجتمع ما ، لا بدّ أن يسبقه وعيٌ قانوني وثقافة قانونية ناضجة ؛ لأنّه لا يكفي أن يكون القانون متكاملاً ، بل يجب مراعاة استيعاب الناس لهذا القانون ، ولهذا السبب كان نزول القرآن بشكل مفصّل وتدريجي حتّى تتهيّأ النفوس للتفاعل معه ؛ ولأنّ الناس لا تستوعب التربية القرآنيّة على شكل دفعة واحدة بدون تهيئة .

الرفق في مرحلة نصّ القانون وتطبيقه

ونريد أن ننوّه إلى أنّ اللين والرفق **تارةً** يكون في النصّ القانوني والمادة القانونيّة ،

---

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٧ .

(٢) سورة الروم: الآية ٣٠.

وأُخرى يكون في الأداء والإجراء القانوني والقضائي المتّخذ مع المتّهم ، فقد تكون المادة القانونيّة خالية من الحدّة والقساوة والظلم ، ولكنّ الإجراء القانوني وتطبيق المادة القانونيّة هو الذي يحمل الحدّة والقساوة .

المصالح الشخصيّة وأثرها في سنِّ القوانين

وهذا الأمر قد يستفاد منه بشكل إيجابي وقد يستفاد منه بشكل سلبي وبصورة خطيرة ؛ لأنّ أصحاب المصالح الشخصيّة قد يتلاعبون في المادة القانونيّة ويفرغونها من محتواها حسب مصالحهم ، أو يفسّرونها بتفسيرات تتناسب مع ميولهم ومصالحهم وأطماعهم ، والتلاعب في المواد القانونيّة أمر في غاية الخطورة حتّى في النزاعات الدوليّة بين الدول التي تريد تسخير القوانين وتفسيرها حسب مصالحها ، فعلى سبيل المثال قد يسمّى التحرير إرهاباً ، وهذه مغالطة جليّة وواضحة ، وهناك فرق كبير بين الإرهاب والتحرير ، والغرض من تغيير الإسم هو أنّ القوى الكبرى لا تستطيع الاعتراض على شعب يريد تحرير أرضه ؛ لأنّ هذا حقّ طبيعي مكفول ، ولكنّها تسمّي التحرير إرهاباً من أجل عرقلة التحرير ، ووضع السدود أمامه ، ولكي تكون هذه العرقلة مصبوغة بصبغة شرعيّة ومقبولة لدى المجتمع الدولي ، وهي صبغة محاربة الإرهاب ، فهم في هذه الحالة يعملون على صناعة رأي عامّ مزوّر من أجل تطبيق قوانين مزوّرة ومزيّفة وظالمة قائمة على التحايل والغشّ القانوني ، وفي المقابل فنحن أيضاً نحتاج إلى أن نعمل على صناعة رأي عامّ صادق من أجل أن يتقبّل المجتمع القانون القضائي الصادق .

الفرق بين العفو، والإعراض عن الجاهلين

﴿ **وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ ، وهذا أيضاً نوع من أنواع اللين والرفق ، وهناك فرق بين الإعراض عن الجاهلين وبين العفو عنهم ؛ لأنك قد تعفو عن إنسان ما ولكن يبقى

في نفسك شيء تتذكّر به ذلك الفعل السيئ الذي فعله ذلك الجاهل ، والمقصود من الجاهل هو ذلك الشخص الذي يتعدّى الحدود ويظلم ، والجهل هنا مقابل العقل الذي يعني التقيّد بالتعاليم الدينيّة ، وليس الجهل هنا في مقابل العلم ؛ لأنّ العلم قد يدعوك إلى التعقّل ، وقد يسيئ الإنسان الاستفادة من العلم ، فالفرق إذن بين الإعراض والعفو أنّ الإعراض مرتبة أعلى من العفو ؛ لأنّ العفو وإن كان متضمّناً لمسامحة الجاهل إلّا أنّه يبقى في النفس شيءٌ من ذلك الأمر ، وربّما تحدّثك نفسك بالانتقام منه والنقمة عليه ، ولكن الإعراض لا يبقي في نفس الإنسان -بعد أن يعفو عن الجاهل- شيء ، وقد يعبّر عن الإعراض بالصفح ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾[1] ، وذكر علماء الأخلاق والتفسير والفقه والقانون أنّ هذه الآية : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ... ﴾ من أُمّهات الآيات ، وقد جمعت أُصول علم الأخلاق ، والبحث فيها طويل .

كظم الغيظ والسيطرة على القوة الغضبيّة

الآية الأُخرى تقول : ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[2] ، وكظم الغيظ يعني إمساك النفس ، وحبس الغيظ ، والسيطرة على القوّة الغضبيّة ، وتعاليم أهل البيت تحثّنا على أنّ لا نؤدّب أولادنا في حالة الغضب والغيظ ؛ لأنّ الغضب قد يخرج التأديب عن أهدافه ، فكظم الغيظ يعني إخماد سَوْرةِ الغضب ، وهذه توصية اجتماعيّة وليست توصية فرديّة فقط ، والغضب قد يُخرج القاضي حينما يقضي عن إطار تحكيم العقل ، ومن صورته الصحيحة إلى خلافه لما للقوّة الغضبيّة من أثر سلبي في هذا المجال ، وعندما يهدأ الغضب يبدأ العقل في العمل بصورة طبيعيّة بعيداً عن أي مؤثّرات قد تؤثّر على الحكم الصحيح .

---

(١) سورة الحجر : الآية ٨٥ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٣٤ .

اختلاف المصطلحات

وممّا تقدّم تبيّن أنّ هنالك ثلاثة مصطلحات:

الأوّل هو: **كظم الغيظ**، وهو حبس الغيظ والسيطرة على الغضب، وهذا يتقدّم ويتصدّر معالجة السوء الذي يواجهه الإنسان.

والثاني هو: **العفو**، وهو أن تسامح المعتدي عليك، ولكن يبقى في نفسك شيء.

والثالث ـ وهو الأفضل منهما ـ: **الصفح والإعراض**، وهو أن تنسى أنّك قد عفوت عنه، وهناك الصفح وهناك الصفح الجميل، وهو مرتبة أعلى. قال تعالى: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾[١]، وقال تعالى: ﴿**ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ**﴾[٢]، فتارةً يكون دفع السيّئة بـ(الحسن)، وأُخرى بـ(التي هي أحسن)، وأمّا تعبير: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[٣]، فهو مرتبة قصوى تفوق الإنسان، وهذه هي أرفع الدرجات على الإطلاق.

أحاديث أهل البيت عليهم السلام في الرفق والحلم

قال النبيّ صلى الله عليه وآله: «**بعثت إليكم بالحنيفيّة السمحة السهلة البيضاء**»[٤].

---

(١) سورة فصّلت: الآية ٣٤.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٩٦.

(٣) سورة القلم: الآية ٤.

(٤) راجع بحار الأنوار: ٦٥/٣٤٦، ٢٧ ـ باب دعائم الإسلام والإيمان، بيان الخطبة، الحديث ٢٦. وقد ورد أيضاً: «**بعثت بالحنيفيّة السهلة السمحة**» ـ شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد: ١٥/٩٩، ٢٣ ـ من كلام له عليه السلام قاله قبل موته على سبيل الوصيّة.

وورد: «**بعثني بالحنيفيّة السهلة السمحة**» ـ الكافي: ٥/٥٠٢، باب كراهية الرهبانيّة وترك الباه، الحديث ١.

وقال النبيّ ﷺ ـكما ورد في كتاب الوسائل ـ باب الجهاد ـ: «**لو كان الرفق خلقاً يُرى ما كان في ما خلق الله شيئاً أحسن منه**»(١).

وقال ﷺ أيضاً: «**ولو كان الخرق ـالحدّة ـ خلقاً يُرى ما كان في شيء من خلق الله أقبح منه**»(٢).

وعنه ﷺ: «**إنّ الرفق لم يوضع على شيء إلّا زانه ، ولا نزع من شيءٍ إلّا شانه**»(٣).

ومن الأحاديث الواردة في هذا المجال: «**إنّ لكلّ شيءٍ قفلاً ، وقفل الإيمان الرفق**»(٤)، أي الحافظ للإيمان الرفق.

منها: «**ما اصطحب اثنان إلّا كان أعظمهما أجراً وأحبّهما إلى الله عزّ وجلّ أرفقهما بصاحبه**»(٥).

ومنها: عن النبيّ ﷺ: «**الرفق يمن ، والخرق شؤم**»(٦).

ومنها: «**الرفق نصف العيش**»(٧).

وعن عليّ عليه السلام: «**الحدّة ضرب من الجنون؛ لأنّ صاحبها يندم ، فإن لم يندم**

---

(١) الوسائل: ١٥ /٢٧٠ ، باب استحباب الرفق في الأمور ، الحديث ٦/٢٠٤٨٢ ، ولكن ورد فيها: «ممّا خلق الله شيء أحسن منه» ـ الكافي: ١٤٩/٢ ، باب الرفق ، الحديث ١٨٥٢ /١٢.

(٢) الوسائل: ٢٧/١٦ ، باب كراهة الخرق ، الحديث ٢/٢٠٨٧٤. الكافي: ٣٣٥/٢ ، باب الخرق ، الحديث ٢٥٩٨ /٢ ، ولكن ورد: «ممّا خلق الله».

(٣) الوسائل: ٤٩٨/٢ ، باب استحباب رفق الغاسل بالميّت ، الحديث ٣/٢٧٤١. الكافي: ١٤٨/٢ ، باب الرفق ، الحديث ١٨٤٥ /٦.

(٤) الكافي: ١٤٧/٢ ، باب الرفق ، الحديث ١٨٤٠ /١ .

(٥) المصدر المتقدّم: ١٤٩ ، الحديث ١٨٥٤ /١٥ .

(٦) المصدر المتقدّم: ١٤٨ ، الحديث ١٨٤٣ /٤.

(٧) المصدر المتقدّم: ١٤٩ ، الحديث ١٨٥٠ /١١.

فجنونه مستحكم »[١].

ومنها: عن الصادق عليه السلام : « **الغضب مفتاح كلّ شرّ** »[٢].

عن النبيّ صلى الله عليه وآله : « **أعقل الناس أشدّهم مداراة للناس** »[٣].

ومنها: عن الصادق عليه السلام : « **الغضب ممحقة لقلب الحكيم** »[٤].

ومنها: عن الصادق عليه السلام : « **من لم يملك غضبه لم يملك عقله** »[٥].

ومنها: « **الشجاع من يملك نفسه عند غضبه** »[٦].

ومنها: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أتاه رجل فقال له : يا رسول الله ، علّمني عظة أتّعظ بها ؟ فقال له : « **انطلق ولا تغضب** » .

ثمّ عاد إليه فقال له : « **انطلق ولا تغضب** » ثلاث مرّات[٧].

ومنها: « **ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن أن يكثر علمك ، ويعظم حلمك** »[٨].

ومنها: عن النبيّ صلى الله عليه وآله : « **العفو لا يزيد العبد إلّا عزّاً ، فاعفو يعزّكم الله** »[٩].

---

(١) نهج البلاغة : ٥١٣ ، حِكم أمير المؤمنين ، الحكمة ٢٥٥ .

(٢) الكافي : ٣١٨/٢ ، باب الغضب ، الحديث ٢٥٢٤ /٣.

(٣) مستدرك الوسائل : ٣٩/٩ ، باب استحباب مداراة النّاس ، الحديث ١٤٤ ١١/١٠ .

(٤) الوسائل : ١٥ /٣٦٠ ، باب وجوب تسكين الغضب عن فعل الحرام ، الحديث ٧٤١ ١١/٢٠ .

(٥) الكافي : ٣٢٠/٢ ، باب الغضب ، الحديث ٢٥٣٤ /١٣ .

(٦) جامع السعادات : ٣٢٤/١ ، فصل : الغضب .

(٧) الكافي : ٣١٨/٢ ، باب الغضب ، الحديث ٢٥٢٦ /٥ .

(٨) مستدرك الوسائل : ١٢١/١٢ ، باب وجوب الاستغفار من الذنب ، الحديث ١٣٦٨٤ /٩.

(٩) مستدرك الوسائل : ٦/٩ ، باب استحباب العفو ، الحديث ٦/١٠٠٣٩.

ومنهـا: «ما التقت فئتان إلّا نصر أعظمهما عفواً»[١].

وعن الصادق: **«أما علمت أنّ إمارة بني أُميّة كانت بالسيف والعسف والجور، وأنّ إمامتنا بالرفق والتآلف والوقار والتقيّة وحسن الخلطة والورع والإجتهاد»**[٢].

---

(١) الكافي: ١٣٨/٢، باب العفو، الحديث ٨/١٧٨٨.

(٢) الوسائل: ١٦٥/١٦، باب استحباب الرفق بالمؤمنين في أمرهم، الحديث ٩/٢١٢٤٨.

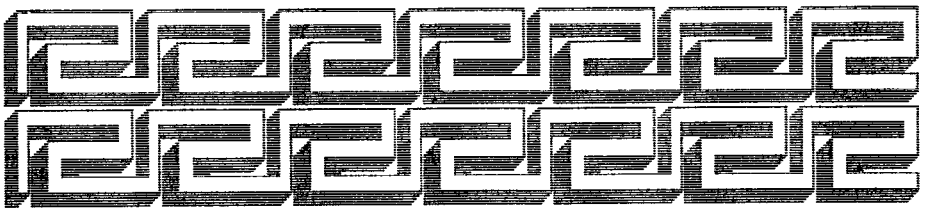

المحاضرة الرابعة

الحوار هو الخيار الأوّل في الفكر الإسلامي

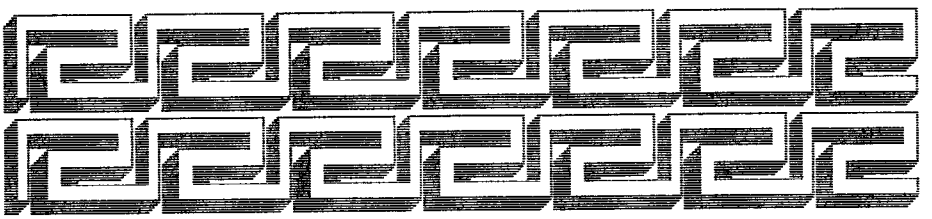

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبيعة الأوّليّة في القوانين الشرعيّة ؟

وصل بنا البحث إلى أنّ الطبيعة الأوّليّة في القوانين الشرعيّة هي السماحة والسهولة واللين والهدوء كما بيّنا سابقاً ، ويجدر بنا البحث عن فلسفة هذا الأمر وعلّته ، لِمَ كان اللين والهدوء هو الطبع الأوّلي حتّى أنّ رسول الله ﷺ عنون رسالته بهذا العنوان :

«بعثت إليكم بالحنيفيّة السمحة السهلة البيضاء»[1] ، ولماذا كلّ هذا التركيز على هذه الطبيعة الأوليّة ؟ وعندما نقول إنّ هذه هي الطبيعة الأوّليّة يفهم من كلامنا أنّ هناك استثناءات ستأتي في ما بعد تباعاً .

القوّة الغضبيّة ودورها في بناء المجتمعات

السبب في أنّ اللين والهدوء والتعقّل هو الطبيعة الأوّليّة في القوانين الشرعيّة ؛ لأنّ الغضب والحدّة مظهر من مظاهر القوّة الغضبيّة ، والقوّة الغضبيّة ـ سواءً كانت على نطاق الفرد ، أو على نطاق الأُسرة ، أو على نطاق المجتمع ، أو في النظام السياسي ـ في طبيعتها ليست بنّاءة ولا مشيدة لبناء ، بل طبيعتها أنّها مانعة رادعة للتجاوزات والظلم

---

(١) تقدّم في الصفحة ٢٥١ من هذا الكتاب .

الذي يحلّ بالفرد ، ويمثّل الجيش والشرطة القوّة الغـضبيّة فـي أي دولة مـن الدول ، والجيش والشرطة والقوّة الغضبيّة ليس من طبيعتها البناء والهندسة والتخطيط والتنمية والإعمار والبحث العلمي والبناء الفكري ، بل الحرب والقتال والمواجـهة ، وتـمثّل أيضا درعاً يحفظ باقي قطاعات المجتمع المختلفة من الأخطار الأمنيّة والعسكريّة.

إطلاق القوّة الشهويّة وآثاره

وما قلناه في القوّة الغضبيّة ينطبق على القـوّة الشـهويّة ، فـلا يـصحّ أن يـطلق العـنان للشهوات والغرائز ، فإذا كانت سياسات الفرد أو الأُسرة أو الدولة مـنصبّة كـلّها عـلى إطلاق العنان للقوّة الشهويّة فمن الواضح أنّ النتيجة سـتكون انـهيار الفـرد والأُسـرة والدولة التي أطلقت عنان الشهوة.

فالسياحة ـ على سبيل المثال ـ قد تكـون سـياحة تـثقيفية تـعليمية ، مـثل : زيـارة الأماكن الأثرية والتعرّف على معالمها التاريخية ففي مثل هذه الحالة تكون السـياحة إيجابيّة ، أمّا إذا كانت السياحة عاملاً على تهيئة أجواء الدعارة والفسـاد فـهي سـياحة مدمّرة هدّامة للقيم والمبادئ والشعوب.

إطلاق القوى العقليّة وحاكميّتها

الإسلام يرفض إطلاق عنان القوّة الشهويّة والغضبيّة ؛ لأنّ ذلك يعني نقض للـغرض الذي من أجله جعلت التشريعات ، ولهذا وضع الشارع القوانين والحدود التي تضبط هاتين القوّتين. وأمّا الذي لا بدّ من إطلاق عنانه فهي القوّة الفكريّة المتمثّلة في ميدان البحث العلمي والفكري والاجتماعي والصناعي ، ونشر الفضيلة ، وسـيطرة القـوى العالية على القوى الدانية ؛ لأنّ ذلك سوف يساعد على وصول الإنسان إلى الكمالات.

فلو نظرنا إلى القانون الغربي فإنّنا نجده قد جعل الفرد هو محور التقنين ، ومؤخّراً جعلوا المجتمع هو المحور ، ولذلك فقد بنوا تشريعاتهم ونظام الحقوق عندهم على

إطلاق الحريات كما يدّعي المشرّع القانوني في الغرب ، فمع إطلاق عنان القوّة الغضبيّة وتوفّر السلاح حتّى بيد الصبيان ، تكثر عندئذٍ الجرائمّ وتنتشر ثقافة العنف والإجرام من خلال أفلام الرعب السينمائيّة التي تشعل القوّة الغضبيّة ، وأمّا في إطلاق العنان للقوّة الشهويّة فحدّث ولا حرج ، مع أنّ هاتين القوّتين ـ الشهويّة والغضبيّة ـ يجب أن تكونا محدودتين .

التعقّل أنسب الخيارات للطبيعة البشريّة

إذن فإنّ اختيار الإسلام للتعقّل والتريّث والهدوء والحوار والأخلاق كخيار أوّل ؛ لأنّه أنسب الخيارات للطبيعة البشريّة ؛ ولأن القوى الغضبيّة والشهويّة موجودة في الحيوان كما هي موجودة في الإنسان ، ولا فرق فيها بينهما . أمّا القوى العقليّة فهي خاصّة بالإنسان ، حيث تميّزه عن غيره من المخلوقات .

ولذلك فإنّ الإسلام يطرح قاعدة : (**لا عقوبة إلّا بعد قيام الحجّة**)[١] وهذه قاعدة أُصوليّة وكلاميّة وتقنينيّة هامّة ، وكذلك يقول علماء الأُصول : « إن تنجيز الأحكام لا يتمّ إلّا بالعلم »[٢] في القانون الوضعي والقانون الشرعي ، والسرّ في ذلك يرجع إلى

---

(١) وهي من مصاديق قاعدة البراءة الشرعيّة ، وقد أشار إليها صاحب مجمع البيان : ٢٢٣/٣ في تفسير سورة النساء ، الآية ١٤٤ ، حيث قال : « إنّ الله لا يعاقب أحداً إلّا بعد قيام الحجّة عليه » .
وقال صاحب الأُصول العامّة للفقه المقارن / محمّدتقي الحكيم : ٤٨٣ ، القسم الأوّل : البراءة الشرعيّة ، الدليل الثاني : قوله تعالى : ﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾ ، فقال : « نفي استحقاق العقاب قبل قيام الحجّة » .

(٢) ورد : « تنجيز التكليف بالعلم » ـ راجع الأُصول العامّة للفقه المقارن / محمّدتقي الحكيم : ٥٣٢ ، إمكان جعل المرخص وعدمه .
وورد : « أن يكون تنجيز التكليف مقيّداً بالعلم به » ـ مجمع الأفكار / الميرزا هاشم الآملي : ٢٢٠/١ ، في دلالة الأمر على الفور أو التراخي ، في الاجزاء في الأمر الظاهري ـ المقام الخامس .

نفس النكتة السابقة ، وهي أنّ الإنسان موجود عاقل ذو فكر ، ويجب أن يكون عـقله مسيطر على باقي قواه الأُخرى ، ومن الخطأ إقحام العقوبات والردع وإطـلاق العـنان للقوّة الغضبيّة بدون المرور بمحطة العقل والفكر ، باعتبار أنّ العـقل هـو الذي يـدبّر باقي القوى الأُخرى كما قلنا .

الفرق بين العقوبة والردع

هناك فرق بين اصطلاح (العقوبة) واصطلاح (الردع) ، فالعقوبة هي نوع من الجـزاء يتّخذ في حق المجرم على ما ارتكبه من الإثم والجرم ، أمّا الردع فقد يطلق على الدفع وقد يطلق على الرفع ، ويعني الردع أنّ المخالف والذي أجرم جرماً وهو لا يـعلم أنّ هذا الأمر جرم ، فهذا الشخص لا يعاقب ؛ وذلك لأنّه لا يعلم به ، ولكن يجب أن يُنهى عن الاستمرار في هذا الأمر الممنوع والمخالف . وقد يكون الردع من باب الدفع ، كما لو أقدم إنسان ما على منكر وفاحشة معيّنة وهو لا يعلم بفحشه ، وهذا يردع بدرجـة مناسبة لغرض انتهائه عن ذلك المنكر ، مع أنّ الحجيّة لم تتمّ عليه . إذن الردع لا يحتاج إلى قيام الحجّة ، ويتحقّق القيام بالردع وإن كـان القـائم بـالفعل السـيئ لم تـتمّ عـليه الحجّة ، والسرّ في ذلك أنّ مصلحة المجتمع قد تـتطلّب هـذا الأمـر ؛ لأنّ المسألة لا تحتمل التأخير والمماطلة ، فينبغي المبادرة بالردع لحفظ تلك المـصلحة ، وللـردع درجات منها : إعلام وتعليم القائم بالمنكر أن هذا الأمر منكر .

نفي العقوبة قبل البيان

هذا هو منطق الإسلام ، وقد دلّت عليه العديد من النصوص . قال تعالى : ﴿ **وَمَا كُـنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً** ﴾[1] ، فإذا كان الإسـلام يـقول : « لا عـقوبة إلّا بـعد قـيام

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١٥ .

الحجّة» ، فهذا يعني أنّ الحوار والتعقّل هو الأصل ، والحجيّة تتقوّم بالإيصال العلمي ، ولا تتمّ الحجّة إلّا بعد أن يكون ذلك الشخص على دراية وعلم وإلمام تامّ بذلك الجرم وبحكمه المحرم ، وإذا لم يتمّ الإلمام التامّ بذلك لا تقام الحجّة عليه ، ومن ثمّ لا يعاقب .

نعم ، بعد إتمام الحجّة عليه ووصول البيان إليه ، فإذا لم يلتزم بمقرّرات الدين بعد ذلك ، فإنّ مراحل الحوار والتعقّل سوف تنتهي .

وتأتي النوبة للعقوبة والخشونة والقساوة ، ولذلك فإنّ في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يذكر الفقهاء أنّه يشترط في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد التأكّد من علم الطرف الآخر ، وإحاطته بالحكم لا أن يُضرب قبل التأكّد من علمه بذلك ، فلا يجوز المبادرة بعقابه باليد وما شابه ذلك قبل التأكّد من علمه بالحكم الشرعي لما قد عمله من منكر ، وبعد إعلامه بالمنكر أو بوجوب المعروف يتمّ نصحه وإرشاده ووعظه ، وإذا لم ينفع كلّ ذلك يتمّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد أو بالمدافعة وما شابه ذلك بإذن الحاكم الشرعي .

الحوار في النزاعات القضائيّة

في فصل النزاعات نجد أنّ الحوار هو المتقدّم على غيره ، ففي القضاء الشرعي الإسلامي يدلي المتنازعان برأيهما ويطرح كلّ منهما الأدلّة والبراهين على صحّة ما قاله ، وقد يكون النزاع بين فردين ، أو بين دولتين ، أو أنّ المجتمع يرفع قضيّة معيّنة ضدّ حكومته ، ومن هذا المنطلق وجدت المحكمة الدستورية في الأنظمة الحديثة ، وهذه المحكمة الدستورية التي تمثّل القضاء الذي يحكم في القضايا التي تحدث بين السلطة الحاكمة والمجتمع في تلك الدولة ، ولسنا الآن في مقام الكلام عن تفاصيل هذه المحكمة .

الحكومات الدكتاتوريّة وأثرها في تشويه الإسلام

ممّا تقدّم تبيّن أنّ الحوار ليس شعاراً جديداً جُعل في التشريع الإسلامي ، بل هو عنوان يحمله الفكر الإسلامي الأصيل ، ولهذا يقال : نحن أبناء الدليل ، أي الحوار الاقناعي الذي يتوصّل من خلاله إلى الحلول الناجعة ، ولكن ممارسة الحكومات الدكتاتورية التي كانت تحكم باسم الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ ، كالدولة الأمويّة والدولة العباسيّة ، أعطت الرأي العامّ صورة سيّئة عن الحوار الإسلامي من خلال ممارساتها القمعيّة مع من يخالفها ويعارضها من قطاعات الشعب الذي تحكمه ، فهذه الحالة مرفوضة ، ويجب أن يكون التحاكم الثقافي والتحاكم العلمي هو السائد كما يطرح ذلك الدين الإسلامي .

الشورى ومفهومها في الإسلام

قال الله تعالى : ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ** ﴾[١] ، وقال : ﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ** ﴾[٢] ، والشورى هي الحوار ، وهي جمع حصائل العقول ، وجمع المعلومات ، وجمع الخبرات ، وتلاقح الأفكار ، أي هي ظاهرة ثقافيّة فكريّة وليست ظاهرة غضبيّة ، وليست ظاهرة تحميليّة ، أي أن تحمل الطرف الآخر على قبول رأيك بالقوّة ، ويخطأ من يقول : إنّ الشورى هي إرادة الأكثريّة ؛ لأنّ الشورى ليست إرادة ، وإنّما هي رأي ، والإرادة من القوى العمليّة ، والشورى من القوى العلميّة ، وفرق بين هذا وذاك ، أعلم الناس من جمع علوم الناس إلى علمه ، وأعقل الناس من جمع عقول الناس إلى عقله .

وإذا رجعنا إلى أحاديث أهل البيت عليهم السلام نجدها تحثّ على المشورة ، وتعتبر

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٥٩ .

(٢) سورة الشورى : الآية ٣٨ .

المشورة أعظم من الخيرة ، وإن كانت الاستخارة في نفسها مستحبّة ، ولكنّ المشورة متقدّمة عليها ؛ لأنّ الشورى توفّر للإنسان فرصة دراسة الموضوع الذي يريد أن يقدم عليه من جميع الجوانب وتتكامل عنده الصورة بشكل أوضح ، وهناك شروط لمن تصحّ مشاورته ، وليست الشورى بمعنى مجموعة الإرادات أو الإرادة الجمعيّة أو الحاكميّة للأكثريّة ، بل الشورى تعني الحاكميّة للصواب ، وإن كان الصواب يمثّل رأي الأقليّة في تلك المجموعة ، فالشورى تعني حاكميّة العلم وإن كانت لفرد واحد إذا كان أخبر القوم وأعلمهم ، وهو صاحب الرأي الصحيح في قبال مجموعة كبيرة ، ولهذا يمكن القول إنّ الشورى هي مداولة الآراء لمعرفة الخطأ من الصواب ، ولا تعني القهر والفرض والاستبداد .

القتال آخر الحلول

لو جئنا إلى الآية الكريمة : ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** ﴾[1] نجدها تبيّن حالة من حالات فرض النظام وسيادة الأمن بين المجتمعات ، فبعد أن فشل الإصلاح بينهما تأتي مرحلة قتال الفئة الباغية ؛ لأنّه لا يصلح النقاش والحوار الفكري بعد هذه المرحلة ؛ لأنّ الأمر مرتبط بالنزاع العسكري الذي لا يحلّ بالنقاش الفكري مع إصرار إحدى الطائفتين على البغي ، وكما يقال إنّ آخر الدواء الكيّ ؛ لأنّه لا ينفع غيره في هذه المرحلة ، وأمّا إذا تخلّت عن إصرارها فيأتي دور الإصلاح مرّة أُخرى .

حوارات الإمام عليّ عليه السلام مع أعدائه

لا شكّ في أنّ الحوار هو أُسلوب أهل البيت عليهم السلام في التعامل مع الآخرين ، حتّى

---

(١) سورة الحجرات : الآية ٩ .

لو كانوا أعداءهم ، فهذا الإمام عليّ بن أبي طالب رفض البدء بالقتال مع أصحاب الجمل ، وقد أرسل الإمام الحسن وأرسل الإمام الحسين وعبدالله بن عباس إلى الطرف الآخر قبل بدء الحرب ، إلى درجة أنّهم قالوا : إنّ بني هاشم لديهم من الحجج والبراهين الكثيرة ولا نقوى على حججهم ، وهذا دليل على أن معسكر الإمام عليّ عليه السلام كان يستخدم القوى العقليّة لفضّ النزاع ، ولم يلجأ إلى القوّة الغضبيّة إلّا بعد أن تستنفذ كلّ الوسائل والطرق العقليّة ؛ وذلك حرصاً على وحدة المسلمين وحقن دماءهم ، ومن يتابع سيرة أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في كلّ موقف من مواقف حياته سيجد هذه الصفة متجلّية عنده ، فلا يقدّم القوّة الغضبيّة على القوة العقليّة ، وهذا ما فعله في صفّين حيث كان يقول عليه السلام بما معناه : « **إِنِّي أَكْرَهُ أَن أَبْدَأَهُمْ بِقتالٍ** »[1] ، وهذه لا تعني الكراهة بمعنى أن هذا الفعل مكروه شرعاً ، بل هو محرّم ، أي أُحرّم على نفسي أن أبدأهم بقتال .

أمير المؤمنين عليه السلام وحواره مع الخوارج

إنّ في تعامل أمير المؤمنين عليه السلام مع الخوارج نموذج رائع يُستظهر منه أنّ الحوار

---

(١) وهذه العبارة مستفادة من عدّة أقوال للإمام عليّ عليه السلام ، حيث ورد عن الإمام عليه السلام قوله : « **لَا يَبْدَأَنَّ أَحَد مِنكُمْ بِقتالٍ حَتّى آمُرَكُمْ** » ـ راجع بحار الأنوار : ١٨٦/٣٢ ، الباب الثالث : باب ورود البصرة ووقعة الجمل ، وما وقع فيها من الاحتجاج ، الحديث ١٣٦ .

وقوله عليه السلام لمالك الأشتر : « **إِيّاكَ أَنْ تَبْدَأَ الْقَوْمَ بِقتالٍ إِلَّا أَنْ يَبْدَؤُكَ** » ـ بحار الأنوار : ٤١٤/٣٢ ، الباب الثاني : باب جمل ما وقع في صفّين ، الحديث ٣٧٤ . تاريخ الطبري : ٢٧١/٤ ، ما أمر به عليّ بن أبي طالب من عمل الجسر على الفرات .

وقد وردت : « **أَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَهُمْ بِالْقِتالِ** » من الإمام الحسين عليه السلام في طفّ كربلاء ـ راجع مستدرك الوسائل : ٨٠/١١ ، باب استحباب إمساك أهل الحقّ عن الحرب حتّى يبدأهم به أهل البغي ، الحديث ١٢٤٧١/١ .

هو المقدّم على كلّ شيء ، فمع أنّهم كانوا تحت سلطته ، وكان الكثير من المحيطين بالإمام عليّ عليه السلام يحثّونه على قتال الخوارج وإبادتهم قبل معركة النهروان ، ولكنّه رفض مقاتلتهم إلّا بعد أن أتمّ الحجّة عليهم بالحوار . وكانوا هم الذين قد شهروا آلة الحرب ، ورفضوا التفاوض والحوار .

وما فعله الإمام مع الخوارج يصلح لأن يكون أُنموذجاً في التعامل مع المعارضة ، بل هو من أعظم السنن العلويّة لهذه الأُمّة في أُصول السياسة الداخلية لنظام الحكم ، حيث كان الإمام يعطيهم كلّ الحقوق المتعلّقة بإبداء الرأي وطرح الفكر ، وهناك دراسات في جامعة الأزهر تحاول أن تغوص في غمار هذه التجربة العلويّة المباركة مع الحزب المعارض المتمثّل بالخوارج ، ومن المعروف أنّ الخوارج لم يكونوا أفراداً بل كانوا حزباً سياسياً وأيديولوجياً ، وحتّى هؤلاء الخوارج لم يبدأهم الإمام عليّ عليه السلام بالقتال ولم يُقْصِهم أو يجعلهم تحت الإقامة الجبرية ، بل فتح لهم باب الحوار على مصراعيه ، ممّا جعل الخوارج يفتحون الجبهة الإعلاميّة بشكل قوّي ، مع ذلك لم يحاربهم واقتصر على ردّ الرأي بالرأي ، وطرح بيّناته وحججه ، واحتمل الإمام عليّ عليه السلام الطرف المعارض إلى أقصى حدّ ما دام الطرف الآخر قد اعتمد لغة الحوار ، والأكثر من ذلك أنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يقبل المقاضاة ، وهو حاكم الدولة وخليفة المسلمين وأمير المؤمنين كما حصل في قضية ماليّة ، فيقبل أن يقف أمام شريح القاضي هو والطرف الذي رفع الشكوى عليه ، وهذه النماذج لا نجدها إلّا عند أهل البيت عليهم السلام .

النبيّ صلى الله عليه وآله يقدّم الحوار على القتال

والنبيّ صلى الله عليه وآله ـ وهو معلّم الإمام عليّ عليه السلام ـ كان في جميع مراحل مسيرته الرساليّة يدعو إلى الحوار والجدال بالتي هي أحسن ، وما كان تقسيم الدعوة إلى مرحلتين : المرحلة المكّية ، والمرحلة المدنيّة إلّا دليل على ذلك ، حيث كان في مكّة يطرح

البراهين والحجج والدلائل على صدقه لمدة ثلاثة عشر سنة ، وهي مدّة ليست بالقليلة ، وفي المدينة بعد أن أسّس الدولة والنظام الإسلامي ، وتشكّلت القوّة الإسلاميّة العسكريّة ، تغيّر الحال وأصبحت لموازين القوّة موقفها ، ومع هذا نرى في غزوة بدر لم يبدأ النبيّ صلى الله عليه وآله بالقتال كما لم يمهّد لذلك أيضاً ، وإنّما كان خروجه صلى الله عليه وآله ليقتصّ لأموال المسلمين التي صادرتها قريش في مكّة ؛ لأنّ هذه هي سنّة النبيّ وأهل بيته (صلوات الله عليهم) ، فقد كانوا يرفضون البدء في القتال ، ولا يقاتلون إلّا بعد أن يبدأ الطرف الآخر بالقتال .

الإمام الحسين عليه السلام والحوار مع الأعداء

ولو تتبّعنا حركة الإمام الحسين لرأينا الحوار حاضرٌ في كلّ محطة من محطاته ، كحواره مع أهل الكوفة ، ومع عمر بن سعد ، ومع جيش بني أُميّة ، ولم يبدأ الإمام الحسين جيش بني أُميّة بالقتال ، مع علمه عليه السلام بأنّ القتال واقع لا محال ؛ ولذلك فقد قال الإمام الحسين عليه السلام : « **أَكْرَهُ أَنْ أَبْدَأَهُمْ بِالْقِتالِ** »[1] ، وهذا دليل على أنّ الإمام عليه السلام كان منهجه الحوار وليس القتال .

---

(١) تقدّم في الصفحة ٢٦٤ ، الهامش رقم ١ من هذا الكتاب.

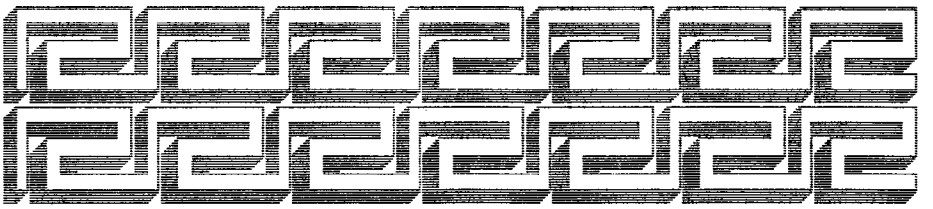

المحاضرة الخامسة

الجهاد الابتدائي والحروب العدوانيّة

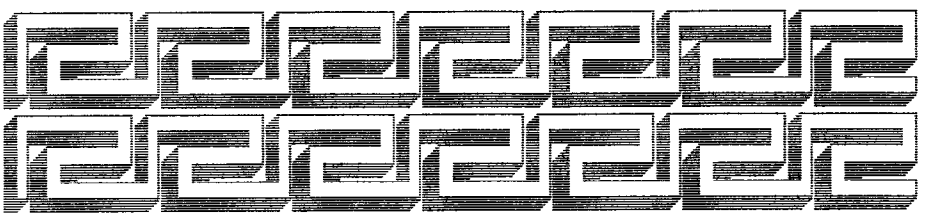

بسم الله الرحمن الرحيم

المعترضون على الإسلام

هناك بعض الاعتراضات على الطرح الذي يقول: إنّ الدين الإسلامي ذو طبيعة أوّليّة تتّسم بالرفق واللين والتعقّل والهدوء والحوار، وأنّ طبيعته لا تتّسم بالرعونة والإرهاب والعنف والشدّة، وسنستعرض هذه الاعتراضات وسنرى أنّها مردودة على أصحابها.

الإسلام دين القوّة والعنف والإرهاب؟

اعتراض مجموعة من المستشرقين على أن الإسلام هو دين السيف والقوّة والعنف والإرهاب، ويقولون إنّ في الفترة التي قضاها النبيّ ﷺ في المدينة المنورة في عشر سنوات نشبّت ثمانون حرباً، وهذا العدد يدلّ على أنّ الإسلام يرتكز على السيف والقوّة والخشونة، ولا يرتكز على الحوار والعرض العلمي والتفاهم.

طمع الجيوش الفاتحة في الأموال والنساء

في عصر الفتوحات الذي كان يحتوي على الكثير من المخالفات الإنسانيّة سطّرتها كتب المسلمين فضلاً عن غيرهم، نجد أنّ المسلمين قد ارتكبوا من الفضائع

ما يخالف مدّعاهم في أنّهم دين اللين والرحمة ، ففي آذربيجان ـ مثلاً ـ دخل أهل هذه المنطقة الإسلام ولكن ما يسمّى بالجيوش الفاتحة لم تعترف بإشهار أهل تلك المنطقة لإسلامهم ، وذلك رغبة في الحصول على السبي والنساء الجميلات والغنائم والأموال ؛ لأنّهم لو أذعنوا بإسلام أهل تلك المنطقة لما حصلوا على شيء من ذلك أبداً.

وحدث مثل هذا في أطراف الهند والصين ، حتى أنّ ابن أبي الحديد المعتزلي في شرحه لنهج البلاغة يذكر من المصادر التاريخيّة القديمة القصص الطويلة التي تقشعر منها الأبدان.

وكذلك الأقباط في مصر ، والبربر في بلدان المغرب العربي ، وكذلك في إسبانيا التي دخلها المسلمون فاتحين لها ، وكانت معاملة المسلمين لأهلها لا تقلّ عن غيرها من المدن التي دخلوها ؛ ولهذا فقد خسروا هذه المدن وأهلها ، بل أكثر من ذلك حيث نجد أنّ الإسبانيّين عندهم يوم خاصّ يحتفلون به بهزيمة المسلمين في كلّ عام ، وهناك مؤلّف إسلامي عنده العديد من الكتب حول الأندلس ، ولعله كتاب (الغصن الرطيب في تاريخ الأندلس) يبيّن فيه أنّ الإسبانيّين انتقموا من المسلمين بنفس الطريقة التي عوملوا بها ، وما زالت آثار تلك المعاملة تستعر في قلوب الآخرين تجاه الإسلام والمسلمين.

وفي البوسنة والهرسك وما فعله الصرب في المسلمين كان نتيجة مخلّفات تاريخيّة ، واقرأ ما فعلته الدولة العثمانيّة التركية من ممارسات خاطئة.

دخول معظم اوربا في المسيحيّة

الشيء الملفت للنظر أنّ معظم أوروبا إنّما دخلت في المسيحيّة في القرن الثاني الهجري وكانت قبل ذلك وثنية ، ولا زال الإسلام فتياً ، ومن المفترض أنّ نور بريق

الإسلام هو الذي يسطع في أوروبا ، فكيف نجح المسيحيون في نشر ديانتهم في أوروبا في وقت كان الإسلام يتمتّع بالعنفوان والقوّة والانتشار ؟ بينما كان بين تلك الحقبة التاريخيّة وبين بعثة النبيّ عيسى عليه السلام ستّة قرون ، وهذا شيء مؤسف وخسارة كبيرة للإسلام والمسلمين ، وقد انطلق المبشّرون المسيحيّون بمفاهيم السلام والرحمة والتعامل بالحسنى وغزوا كل أوروبا في تلك الفترة ، وقد انتقلت هذه الأفكار إلى الأمريكتين والعديد من دول العالم ، ولا زال المسيحيون إلى زماننا هذا يتفوقّون عدداً على المسلمين في تلك المناطق ، فلا بدّ من دراسة الأسباب التي حولت أوروبا للدين المسيحي وجعلتها تعرض عن الإسلام .

الجهاد الابتدائي هو الحرب العدوانية

لو أنّنا قرأنا كتاب الجهاد في الفقه الإسلامي لرأينا مصطلح (الجهاد الابتدائي) ، ولو ترجمنا هذا المصطلح بشكل عفوي إلى لغة القانون الحديثة لكان (الحرب العدوانيّة) التي تحمل في طيّاتها الحدّة والعنف والشدّة والقتل .

الجهاد الابتدائي في نظر المنكرين

إنّ طرح هذا الإشكال جعل بعض الكتّاب المصريّين ـ قبل ما يقارب من خمسة عقود ـ يتنكّرون لوجود الجهاد الابتدائي في الإسلام ، وأنّ الجهاد المذكور في القرآن الكريم هو جهاد دفاعي وليس جهاد ابتدائي .

وقالوا : إنّ هناك فرق بين التشريع الإسلامي وممارسة المسلمين ، وقد استدلّوا في ما قالوا بالعديد من الآيات والروايات النبويّة ، وقبل أن نستعرضها نودّ الإشارة إلى أن تنصّل هؤلاء ممّا حصل أثناء الفتوحات إقرار بوجود أخطاء وتجاوزات قامت بها جيوش الفتح .

ومن الآيات التي استدلّوا بها وهي آيات مدنيّة ، منها قوله تعالى : ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي**

﴿سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[١]، واعتبروا هذا النصّ نصّاً مقيّداً لباقي النصوص القرآنيّة التي تدعو إلى الجهاد، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَاتَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَاتُظْلَمُونَ * وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[٣]، فعند كثير من المذاهب أنّ هذه الآية ليست منسوخة؛ لأنّ هذه الآية تدلّ على تشريع المهادنة مع الكفّار وعقد العهد والأمان معهم، وهذا يدلّ على أنّ قتال الكفّار في القرآن الكريم ليس بشكل مطلق.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٤]، وهذه الآية في سورة من أواخر السور التي نزلت، ـ وقيل آخر سورة نزلت، وإن كان الأصحّ بين المفسّرين أنّ سورة المائدة هي أخر سورة نزلت ـ وفيها دلالة على حالة المهادنة وعدم الاعتداء.

حروب النبيّ ﷺ كلّها دفاعيّة

إنّ طرح مثل هذه الآيات هدفه التأمّل، ومراجعة الأحكام الواردة في كتب الجهاد عند المسلمين في تشريع الجهاد الابتدائي، أمّا بالنسبة لسيرة النبيّ ﷺ فيقولون: إنّنا

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٩٠.

(٢) سورة الممتحنة: الآية ٨.

(٣) سورة الأنفال: الآيتان ٦٠ و ٦١.

(٤) سورة التوبة: الآية ٦.

يجب أن نفرق بين سيرة النبيّ وسيرة من بعده عموماً ، وأنّ حروب النبيّ ﷺ ابتداء من بدر حتّى تبوك لم تكن حروباً تمثّل الجهاد الابتدائي ، بل كلّها حروب دفاعيّة ، والشاهد على ذلك أنّ غزوة بدر لم يقم بها النبيّ ﷺ إلّا بعد أن قامت قريش بالاعتداء على المسلمين وعلى أموالهم في مكّة المكرّمة ، بل كانت قريش تعتدي على المسلمين حتّى في المدينة المنوّرة على شكل غارات ليليّة ، فكان هدف النبيّ ﷺ وقف العدوان القرشي والاقتصاص من قريش ، فلذلك هاجم قافلة قريش التي كان يقودها أبو سفيان وحينها نزل قوله تعالى : ﴿ **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ** ﴾[١] ، ونجت قافلة أبي سفيان من المسلمين الذين كانوا يبنون على المقاصة الماليّة ، والمقاصة الماليّة منطق دفاعي وليس منطقاً عدوانيّاً ، ولا جهاداً ابتدائيّاً ، كما هو مطروح في فقه المذاهب الإسلاميّة ، وأنّ أبا سفيان قد أرسل إلى جيش قريش قائلاً : « إنّ العِير قد نجت ولا حاجة للحرب ، إلّا أنّ قريش بخيلائها وكبريائها لم تتراجع عن الحرب ، وعتبة قدنصح قريش أن لا تعتدي على النبيّ ﷺ وأن لا تحاربه ، وكان النبيّ ﷺ يقول : « **إن يك عند أحد خير فعند صاحب الجمل الأحمر ، وإن يطيعوه يرشدوا** »[٢] ، وكان عتبة هو الراكب على الجمل الأحمر ، حيث كان يريد أن يثنيهم عن ذلك ، إلّا أنّ أبا جهل قال له : أجبنت يا عتبة ؟ فابتدأ القتال ، ولكن لم يكن الابتداء من طرف النبيّ ﷺ ، بل هو من طرف قريش بدءاً بالعدوان المالي والعرضي والأمني وانتهاءً بساحة المعركة ، إذن هذه هي معركة دفاعيّة .

وأمّا غزوة تبوك فهي عبارة عن الاستعداد الرادع لطغيان الروم الذين كانوا يهدّدون المسلمين .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٧ .

(٢) راجع بحار الأنوار : ١٩/٢٢٤ ، الباب ١٠ ـ غزوة بدر الكبرى .

وكذلك غزوة مؤتة التي استشهد فيها جعفر الطيّار وزيد بن حـارثة وعـبدالله بـن رواحة ، والصحيح أنّ جعفر الطيّار هو أوّل مَن استشهد في هذه المعركة ، وهو القائد الأوّل للجيش وليس زيد بن حارثة كما تذكر بعض المصادر التي عندها حسّاسيّة مع آل أبي طالب.

وأمّا غزوة حنين فإنّ ما فعلته قبيلة هوازن مـن تـهديد المسـلمين كـان سـبباً فـي قتالهم ، وعندما دخل النبيّ صلى الله عليه وآله إلى مكّة فاتحاً أخذ الراية أحد الصحابة قائلاً: «اليـوم يوم الملحمة ، اليوم تسبى الحرمة »[١] ، فأمر النبيّ صلى الله عليه وآله عليّاً أن يأخذ الرايـة ويـقول: **«اليوم يوم المرحمة ، اليوم تحمى الحرمة »**[٢] ، حتّى أنّ النبيّ عامل البيت الذي طالما ناصبه العداء والحقد ، وهو بيت أبي سفيان برفق ، حيث قال صلى الله عليه وآله : **«مَن دخل دار أبي سفيان فهو آمن »**[٣] .

وعندما قال لهم صلى الله عليه وآله : **«ما ترون أنّي فاعل بكم؟ »**[٤] .

قالت قريش : أخ كريم ، وابن أخ كريم .

هذه إجابات هؤلاء الباحثين ، كما أنّه بين الفينة والأُخـرى نـرى أنّ هـناك بـعض الدراسات التي تحاول نفي الجهاد الابتدائي وأنّـه لا تـدلّ عـليه النـصوص الشـرعيّة القرآنيّة أو النبويّة .

---

(١) بحار الأنوار : ١٠٥/٢١ ، الباب ٢٦ ـ فتح مكّة .

(٢) شرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١٩٠/١٧ ، خبر فتح مكّة .

(٣) الخصال : ٢٧٤ ، باب الخمسة : بـعث الله النـبيّ صلى الله عليه وآله بـخمسة أسـياف ، الحـديث ١٨ . شـرح نهج البلاغة / ابن أبي الحديد : ١٩١/١٧ ، خبر فتح مكّة .

(٤) تاريخ الطبري : ٥٣٤/٢ ، ذكر الخبر عن فـتح مكّـة ، ولكـن ورد فـيها : « قـالوا » بـدل « قـالت قريش » . البداية والنهاية / ابن كثير : ٣٤٤/٤ ، صفة دخـول مكّـة . السـنن الكـبرى / البـيهقي : ١١٨/٩ ، كتاب السير ـ باب فتح مكّة حرسها الله تعالى ، بتفاوت يسير .

وهذه الإجابات رغم أنّها تحمل بعض اللفتات الصحيحة والاستدلالات المحقّة ، إلّا أنّها لا تصلح أن تكون جواباً للإشكال المطروح .

الجواب الصحيح عن إشكال الجهاد الابتدائي

الجواب الصحيح عن هذا الإشكال هو أنّ الجهاد الابتدائي ليس معناه الابتداء بالعدوان ، وإن كانت كلمة (الابتدائي) توحي للسامع هذا المعنى ، والمعنى الصحيح لهذا المصطلح هو بدء إظهار القوّة العسكريّة وإظهار لغة القوّة ، ولكنّ هذا المصطلح لا يتضمّن البدء بالحرب ، بل يعني استعمال الأُسلوب الضاغط وأُسلوب القوّة في معالجة عدم خضوع الطرف الآخر ـ الذي يعادي المسلمين ـ لميزان العدالة في التعامل مع المسلمين .

الجهاد الابتدائي وخلفيّاته

في الواقع أنّ الجهاد الابتدائي له خلفيّة حقوقيّة دفاعيّة ، بمعنى إذا تعرّضت حقوق المسلمين أو المستضعفين للانتهاك ، فلا يبقى حالهم على ما هو عليه ، بل لا بدّ من التصدّي لذلك ، فإذا لم يستجب الطرف الآخر لإقامة النظام السياسي العادل حسب العدالة الإسلاميّة ـ مثلاً ـ وأُقيمت الحجّة عليه ، ولم يستجب للغة الإنصاف والعدل ، فمن الواضح أنّ الإسلام لن يبقى على طبيعته الأوّليّة ، وهي الحوار والتعقّل والرفق واللين ؛ لأنّ من المفترض أنّ الحجّة قد أُقيمت ولم ينفع الخطاب العقلاني مع الطرف الآخر ، ولم يبق مجال إلّا لمنطق القوّة والساحات العسكريّة ، ولأنّ استخدام لغة القوّة يهدف إلى كبح جماح النزوات الغريزيّة الحيوانيّة في الطرف الآخر المعتدي ، ولا يتضمّن استخدام القوّة في المفهوم الإسلامي إلّا لأجل ذلك ولا يكون سبباً في إهلاك الحرث والنسل ، فالقرآن الكريم يبغض وينهى عن إهلاك الحرث والنسل ؛ لأنّه مخالف لمفهوم الاصلاح الذي جاء به الإسلام .

القرآن الكريم ينهى عن إهلاك الحرث والنسل

قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ** ﴾[١]، فليس من المنطق الإسلامي أن تحرق مكتبة الاسكندريّة وتبقى مدّة طويلة تلتهمها النيران، لأنّ هذا ليس منطق النبيّ صلى الله عليه وآله، ولا منطق الإمام عليّ عليه السلام، وهذه أوراق يجب أن تبحث بصراحة، فحرق التراث الفكري يعني حرب على الفكر المقابل. أمّا منهج أهل البيت عليهم السلام فيعتمد على الانفتاح على العلوم البشريّة وتهذيبها وترشيدها، والاستفادة من الخبرات البشريّة والانجازات التي حقّقها الآخرون في تدبير المعيشة وخدمة العلوم الدنيويّة، فضلاً عن العلوم الأُخرويّة.

الإسلام يكرّم بني آدم

الأصل الأوّلي في الإنسان عموماً هو أن يكون مكرّماً، قال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾[٢]، وهذا يشمل المسلمين وغير المسلمين، هذا هو الأصل الأوّلي، وكما يقول الإمام عليّ عليه السلام: «**إمّا أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق**»[٣]، وهذه العبارة من قول الإمام عليه السلام التي رفعها الأمين العامّ للأُمم المتّحدة كوفي عنّان شعاراً للسلام ولتفعيل الحوار بين الطوائف والقوميّات؛ ولهذا قال: «إنّها يجب أن تكون شعاراً لحوار الحضارات».

إذن الجهاد الابتدائي يعني التلويح بالقوة لحفظ حقوق المسلمين والمستضعفين المسلوبة، ولا يعني الاعتداء على الشعوب بدون سبب أو ترويع شعب مسالم آمن.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢٠٥.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(٣) نهج البلاغة: ٤٢٦ ـ رسائل أمير المؤمنين عليه السلام، الرقم ٥٣، كتبه للأشتر النخعي لمّا ولّاه مصر وأعمالها. تحف العقول: ٩٠، عهده عليه السلام إلى الأشتر حين ولّاه مصر وأعمالها.

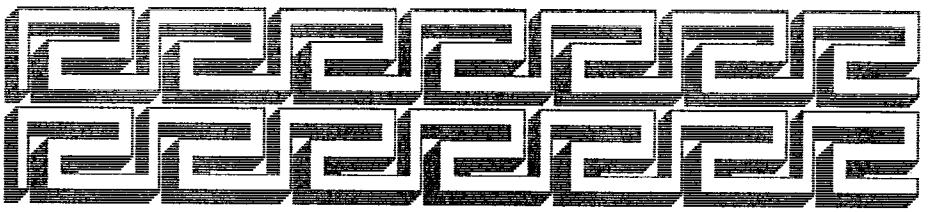

المحاضرة السادسة

الخلفيّات الحقوقيّة للجهاد الابتدائي

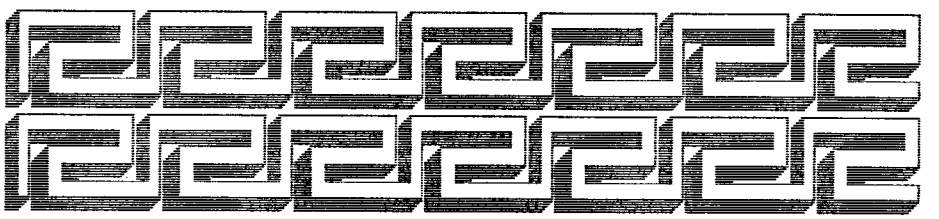

بسم الله الرحمن الرحيم

الجهاد الابتدائي والإرهاب

كان الكلام في ما سبق حول الإثارة المطروحة في محافل عالميّة عديدة ، من أنّ الدين الإسلامي يحمل في طيّاته لغة الإرهاب ، وما يتمسّك به القائلون بهذه الدعوة المضادّة هو وجود مفهوم الجهاد الابتدائي في القرآن الكريم والتشريع الإسلامي.

وأصل هذه الإثارة حول الجهاد الابتدائي أو جهاد الدعوة لها منشأ مرتبط بالموروث التاريخي المتعلّق بالفتوحات الإسلاميّة ، وهذا البحث يتّصل بالفتوحات كما يتّصل بموقف عليّ عليه السلام ، حيث انكفأ في حكومته على الإصلاح الداخلي ، والتركيز على السياسة الداخليّة وترتيب أوراق الوضع الداخلي.

ذكرنا في ما تقدّم مجمل الأدلّة التي استند إليها بعض الكتّاب في نفي وجود لغة العنف في الدعوة الإسلاميّة ، وأنّه ليس هناك ما يدعو للقتال والعنف والقوّة وقهر الآخرين وإجبارهم على الدخول في الدين الإسلامي ، لكنّه استخدام للقوّة للدفاع عن المستضعفين والمحرومين ولإرساء النظام السياسي للعدالة الإسلاميّة.

قوى الاستكبار وآيات الجهاد

هذا الأمر جدّيٌ جداً وملحّ في الوسط الدولي ، ونحن نلاحظ أنّ أمريكا والعالم الغربي

يريدون إقناع العالم بأنّ آيات الجهاد الموجودة في القرآن إنّما تعتبر أمراً إرهابياً، ولا بدّ من الضغط على المسلمين من أجل حذف هذه الآيات من القرآن الكريم والشريعة الإسلاميّة والفقه الشرعي.

فالمسألة من الخطورة بمكان بحيث تتجاوز مرحلة التنظير والبحث النظري، بل يراد لها أن ترسو على خطوات خطيرة جدّاً؛ إذ ينبغي على فقهاء الشريعة أن يفهموا هذه الإشكالية بعمق، وأن تتمّ دراستها دراسة مستفيضة والردّ عليها بشكل قوي؛ لأنّ هذه المسألة ليست مسألة نظرية، وليست ثرثرة فكريّة بل هي مسألة قد أخذت طابعاً عملياً إلى درجة أنّ بعض البلدان الآن تمنع قراءة آيات الجهاد في الإذاعة والتلفزيون والمحافل العامّة، وأنّ هناك توصية غربيّة مفروضة على بعض البلدان الإسلاميّة لكي تمنع قراءة آيات الجهاد وحذفها من المناهج الدراسيّة.

الإسلام ومخالفات المسلمين

في البدء لا بدّ أن نستعرض التنظير العلمي لهذه القضية، حيث أنّ هناك فرق بين البحث النظري والتطبيق العملي، بمعنى أنّ النظريّة الإسلاميّة غير مسؤولة عن الممارسات الخاطئة التي قام بها المسلمون، وأنّها ليست مسؤولة إلّا عمّا يستند إلى التشريع الإسلامي الصحيح، فليس من العدل أن نحمل النظرية التطبيقات الخاطئة والممارسات غير المسؤولة لمن يعتقد بهذه النظرية.

اختصاص كلّ علم بمصطلحاته

النقطة الأُخرى التي نريد الإشارة إليها هي أنّ جهاد الدعوة والجهاد الابتدائي ليس مطروحاً في الفقه الإسلامي بمعنى ابتداء العدوان أو الحرب العدوانيّة، وبعبارة أُخرى: من الخطأ الفادح أن نحمل اصطلاحات في علم معيّن على اصطلاحات أُخرى في علم آخر، ومن الخطأ أيضاً أن يقرأ الباحث مفاهيم معيّنةٍ في بيئة معيّنة ويطبّقها

على بيئة أُخرى ؛ لأنّ لكلّ بيئة مفاهيمها وأفكارها الخاصّة بها.

الجهاد الابتدائي وخلفيّته الحقوقيّة

ما ذكره الفقهاء من أنّ الجهاد الابتدائي بند من بنود الشريعة الإسلاميّة ليس المراد منه العدوان واستخدام لغة القوّة ، وأن لا يفهم السامع من كلمة (الابتدائي) معنى العدوان ، لأنّها ليست كذلك في الفقه الشرعي ، بل إن معنى الجهاد الابتدائي هو المبادرة العسكريّة التي تحمل في طيّاتها غطاءً حقوقيّاً ، وهذا باتّفاق جميع المذاهب الإسلاميّة ، وإن كان هناك خلاف في بعض التفاصيل بين مذهب أهل البيت عليهم السلام والمذاهب الأُخرى ، إلّا أنّ جميع المسلمين يعتقدون أنّ الجهاد الإبتدائي يتضمّن غطاءً حقوقياً فيكون جهاداً دفاعياً في المصطلح الحقوقي وليس حرباً عدوانيّة كما ترجمه البعض.

الجهاد الابتدائي في المصطلح الحقوقي

إذن كلّ الجهاد يرجع إلى الجهاد الدفاعي ، كما أشار إلى ذلك الشيخ جعفر آل كاشف الغطاء والشيخ الكليني ، وقد قسّم الفقهاء الجهاد إلى قسمين:

جهاد ابتدائي وجهاد دفاعي ، والمقصود من الجهاد الدفاعي هو استخدام لغة القوّة ردّاً على استخدام العدوّ لها.

أمّا الجهاد الابتدائي فهو جهاد دفاعي أيضاً مع فارق أنّه فيه مبادرة باستخدام القوّة العسكريّة مع وجود الغطاء الحقوقي ، وبالتالي يكون جهاداً دفاعياً في المصطلح الحقوقي.

وتطبيقاً لما ذكرنا يتّضح أنّ معركة بدر وحنين ومؤتة كانت جهاداً ابتدائياً بالمصطلح الفقهي ، وحروباً دفاعية بالمصطلح القانوني.

الجهاد الابتدائي في النصوص الشرعيّة

الجهاد الابتدائي مصطلح فقهي ، ولا يوجد هذا اللفظ في النصوص الشرعيّة . نـعم ، بعض الروايات عبّرت عنه بجهاد الدعوة ، وإذا استعرضنا المبرّرات الشـرعيّة لهـذا الجهاد فلن يكون حرباً عدوانيّة ، بل سيكون جهاد إصلاح وإنماء وإرساء للعدالة .

الجهاد الابتدائي بين الفطرة الإنسانيّة والنظام العالمي

لو تساءلنا هل للجهاد الإبتدائي (في المصطلح الفقهي وليس الحقوقي) أو جـهاد الدعوة منشأ في الفطرة الإنسانيّة وفي البحوث العقليّة باعتبار أنّ الشريعة الإسـلاميّة توافق الفطرة الإنسانيّة ؟

نعم ، العقل يرجّح نصرة المظلوم ، والوقوف في وجـه الظـالم ، وعـلى الصـعيد الدولي نرى أنّ المجتمع الدولي يرفع شعار مكافحة الإرهاب حتّى لو لم يكـن ذلك الإرهاب موجّه ضدّ نفس الدولة التي رفعت الشعار .

أمّا في إطار النظام العالمي الموحّد نرى أنّ أمريكا تعطي لنفسها الحقّ في التدخّل في شؤون الدول بعنوان مكافحة الإرهاب أو حقوق الإنسان ، وحـتّى البـنك الدولي يفرض شروطه ويتدخّل في الشؤون والسياسات الداخلية للبلد الذي يطلب منه قرضا مالياً ، فلا يدعمه ويقرضه إلّا إذا أذعن لشروطه وضغوطه .

إذن أصل استخدام لغة القوّة لدفع ظاهرة عدوانيّة وإن كانت في بلد آخر أمر موجود عقلاً ومعمول به دولياً ، ومتعارف عليه من قِبل المجتمع الدولي .

وعليه فالكلام كلّ الكلام ليس في استخدام القوّة وإنّما هو في الخـلفيّة الحـقوقيّة والتبرير الحقوقي لاستخدام القوّة .

ما هو الإرهاب ؟

لا يزال المجتمع الدولي في جدل كبير حول تحديد مفهوم الإرهـاب ، وإلى الآن

لم يرسُ على مفهوم متّفق عليه على طاولة الجدل البشريّة.

فالإرهاب بما هو مفهوم يعتبر مفهوماً مذموماً، لا يساوي المبادرة بالقوّة العسكريّة، فربّما يبادر الشعب المظلوم باستخدام القوّة تجاه الجهات التي تظلمه، وهذا يتمّ في غياب أجواء الحوار، وعندها تعطي تلك الجهة الظالمة لنفسها الحقّ في استخدام القوّة تجاه تلك القوّة الضعيفة، وتعتبر أي فعل يشكّل مبادرة عسكريّة من قِبل تلك الجهة الضعيفة تعتبره إرهاباً، ومن الاجحاف اعتبار هذا العمل إرهاباً، بل هو مقاومة مشروعة لاسترداد الحقّ، كما هو حال المقاومة في جنوب لبنان.

مبرّرات القتال في القرآن الكريم

العنف واستخدام القوّة ليس من طبيعة الإنسان الأوليّة لا في التقنين ولا في التشريع، ولكنّها تكتسب الشرعية من خلال بعض الظروف المحيطة بها، ونحن نرى أنّ التشريع الإسلامي والآيات الكريمة تحمل شعاراً يتناغم مع الفطرة، فمن الآيات المحكمة قوله تعالى: ﴿ **وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِن هَـٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَلْ لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً** ﴾[1]، فالقرآن الكريم بيّن أنّ هدف الجهاد وغرضه وغايته هو تثبيت شرع الله تعالى، ونصرة المظلومين والمستضعفين، إذن جهاد الدعوة يحمل في طيّاته نصرة المظلومين، وإنجاز حقوق الله على عباده، والاستضعاف تارةً يكون استضعافاً مالياً ومادياً، وأُخرى يكون استضعافاً عقائدياً وفكرياً وهو من أشدّ الاستضعاف، قال تعالى: ﴿ **إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً** ﴾[2]، فهنا ﴿ **لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً** ﴾ هو الاستضعاف المالي والمادي، ﴿ **وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلاً** ﴾

---

(١) سورة النساء: الآية ٧٥.

(٢) سورة النساء: الآية ٩٨.

هو الاستضعاف الفكري والعقائدي.

دور الإعلام في استضعاف الشعوب

ما نلاحظه الآن أنّ الأعراف الدوليّة والقانونيّة البشريّة بدأت تقرّ بأنّ الشعوب المستضعفة المقهورة إنّما تقع تحت التضليل الإعلامي للدول القويّة باعتبار أنّ الإعلام هو السلطة الرابعة ، بل قد يكون أخطر من السلطات التنفيذيّة والتشريعيّة والقضائيّة ؛ لأنّ الإعلام هو الذي ينشر الفكر أو يجمّده هنا وهناك.

ويقال إنّ الشعوب المستضعفة أكثر وعياً في الجانب السياسي من غيرها من الشعوب ؛ لأنّها تقع تحت الظلم ، وهذا الظلم يجعلها تتابع الأحداث حتّى تتوصّل إلى نقطة الخلاص ، والإعلام له دور كبير في تضليل الرأي العامّ وقلب الحقائق.

تعاليم القرآن وممارسات بعض المسلمين

من آيات الجهاد الابتدائي قوله تعالى: ﴿ **يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِن قَبلُ فَمَنَّ اللهُ عَلَيكُم فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** ﴾[1].

هذا على سبيل النظرية ، أمّا على سبيل التطبيق فهناك من الممارسات الخاطئة ـ في ما يسمّى بالفتوحات الإسلاميّة ـ ما يقرح القلوب.

صفات المجاهدين في القرآن الكريم

لا شكّ في أنّ الدين الإسلامي يشترط في المجاهدين صفاتاً خاصّة ، ولا يمكن أن يكون حالهم حال باقي النّاس ، فضلاً عن القائد لهؤلاء المجاهدين الذي يقوم

---

(١) سورة النساء : الآية ٩٤.

بالوصاية على جهاد الدعوة ، ولم يرض الإسلام بتأهيل أي شخص لهذه الوصاية ؛ لأنّ الجهاد عقد بين الخالق والمخلوق ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ** ﴾[١] ، ثمّ يصف الله تعالى المجاهدين بقوله : ﴿ **التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[٢] .

وما جاء في رواية لطيفة عن الإمام السجّاد عليه السلام حينما كان متوجّهاً إلى الحجّ ما يشير إلى أنّ للمجاهدين صفات خاصّة بهم ، حيث التقى به عباد البصري فقال له : يا عليّ بن الحسين ، تركت الجهاد وصعوبته ، وأقبلت على الحجّ وليّنه ، إن الله تعالى يقول : ﴿ **إِنَّ اللهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ...** ﴾ ، فقال له الإمام السجّاد : « **إذا رأينا هؤلاء فالجهاد معهم أفضل** »[٣] .

شروط الجهاد الابتدائي وأهدافه

إنّ جهاد الدعوة والجهاد الابتدائي بالمصطلح الفقهي ليس مفتوحاً لكلّ من هبّ ودبّ ، وإنّما كان مفتوحاً لفئة خاصّة تتميز بصفات معيّنة في التشريع الإسلامي .

وأمّا غرض جهاد الدعوة فهو نصرة المظلومين ، وإنجاز حقوق الله على الناس ، وقد يتساءل البعض هل لله حقوق على البشر ؟ وهذه جدلية كتبت فيها الكتب ،

---

(١) سورة التوبة : الآية ١١١ .

(٢) سورة التوبة : الآية ١١٢ .

(٣) الكافي : ٥/ ٢٠ ، باب الجهاد مع من يكون ، الحديث ١ . الوسائل : ١٥/ ٤٦ ، باب اشتراط وجوب الجهاد بأمر الإمام وإذنه ، الحديث ١٩٩٥٦/ ٣ .

وأنّ أي مصدر من مصادر الحقوق لله ، فـيها حـقّ كـحقّ الحـاكـميّة الذي تـقرّ حـتّى المسيحيّة به ، ولكنهم يقولون : إنّ الله قد أعفى عباده من هذا الحقّ .

الجهاد الابتدائي حقّ الإمام المعصوم الخاصّة

المبرّر الحقيقي لجهاد الدعوة هو إنجاز حقوق الله على الناس ، هذا أوّلاً ، وثانياً : ما نريد الإشارة إليها هو أنّ الذي جعله الله وصياً على البشريّة لم يكـن فـرداً عـادياً مـن الأفراد ، وإنّما هناك أشخاص معيّنون للجهاد يعرفون بسيماهم ، وليس كلّ من ربّـى لحيته أو وضع على رأسه عمامة فهو مـؤهّل لهـذا الجـهاد ، وأنّ جـهاد الدعـوة حـقّ للمعصوم ، وهذا ما عليه إجماع الإماميّة ، إلّا من شذّ ، ولهذا فإنّ جـهاد الدعـوة هـو صلاحية خاصّة للمعصوم علماً وعملاً ؛ لأنّه الإنسان الكامل المؤهّل لهـذا المـنصب الإلـهي ، حتّى أنّ الزعيم الراحل الخميني ﷺ رغم أنّه يرى أنّ للفقيه صلاحيات أوسع ، أي نيابة الفقيه المطلقة ، كان في اسـتفتاءاتـه وإلى آخـر أيّـام حـياته يـرى أنّ الجـهاد الابتدائي هو حقّ للمعصوم لا غيره ، وهذا ما تظافرت عليه الروايات .

وفي رواية عن الإمام الصادق ﷺ قال : «**فأخبر أنّه تبارك وتعالى أوّل مَن دعا إلى نفسه ودعا إلى طاعته واتّباع أمره ، فبدأ بنفسه فقال : ﴿وَاللهُ يَدْعُوا إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾**[1] ، **ثمّ ثنّى برسوله ﷺ فقال : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾**[2]»[3] .

ثم يستعرض الإمام الصادق ﷺ صلاحية الدعوة بعد ذلك ، فيبيّن أنّ الذي يصلح

---

(١) سورة يونس : الآية ٢٥ .

(٢) سورة النحل : الآية ١٢٥ .

(٣) راجع وسائل الشيعة : ١٥ / ٣٤ ، باب مَن يجوز له جمع العساكـر والخـروج بـها إلى الجـهاد ، الحديث ١٩٩٤٩ / ١ . الكافي : ٥ / ١٣ ، باب مَن يجب عليه الجهاد ومَن لا يجب ، الحديث ١ .

للدعوة والجهاد هو من يكون ملتزماً بشرع الله عزّ وجلّ في الجهاد ، ومن لم يكن ملتزماً بشرع الله فليس بمأذون له في الجهاد والدعوة إلى الله حتّى يحكم في نفسه ما أخذه الله من شرائط الجهاد .

أمريكا والتناقض بين الشعار والواقع

في زماننا أمريكا أو الأُمم المتّحدة ترفع شعار مكافحة الإرهاب وكل ما يعكّر صفو الأمن البشري ، أو ما يتناقض مع حقوق الإنسان ، ولكن هل تحقّق أمريكا أو الأُمم المتّحدة العدالة ، ففي أمريكا هناك امتيازات للجنس الأبيض على الجنس الأسود ، وهذا هو الواقع ، وإن كانت القوانين المدوّنة لا تعترف بهذه الحقيقة .

الإسلام يدعو إلى العدالة ويطبقها

ولكن عند المسلمين الأمر يختلف ، فالكل سواسية كأسنان المشط ، بينما عند المسيحيّين لا يمكن للأسود أن يكون رئيساً للوزراء أو للجمهوريّة أو باباً للكنيسة ، هذا هو الواقع ، وهذا هو المتعارف عندهم وإن لم يكن مدوّناً ، ولكنّهم أشدّ التزاماً بالأعراف من القوانين ، بينما نرى الإسلام يفتح المجال أمام الأبيض والأسود لكي يصل إلى أعلى المناصب . نعم ، الإمامة الإلهيّة التي تعتمد على الإصطفاء الإلهي ليس شرعة للجميع بل هي (ارستقراطية إلهية) ، لا يستطيع أحد أن يكتسبها .

إذن الإسلام عندما يدعو إلى العدالة فإنّه يطبق هذه العدالة ، والتشريع الإسلامي يمتاز بهذه الميزة التي تفتقر إليها الديانات المحرّفة والمدارس الوضعيّة الأُخرى .

الفيتو حقّ للمعصوم عليه السلام

قانون الفيتو يجب أن يكون له مبرّر حقوقي ، وهو سيطرة الأعقل على العاقل ، ووصاية الأخبر على مَن هو أقل خبرة منه ، ففي مذهب الإمامية لا يسمح للفقيه

والمرجع أن يكون له حقّ النقض الفيتو ، ولا يمتلك هذا الحـقّ إلّا الإمـام المـعصوم المتّصل علمه بعلم الله تعالى وهو صاحب العلم اللـدني ، بـينما نـرى ـ فـي القـانون الغربي ـ أنّ حقّ النقض الفيتو متاح للقوي الذي يخضع بدوره إلى مـصالحه الخـاصّة ونزواته وغرائزه وشهواته ، فيكون هذا الفيتو بـاب مـن أبـواب تكـريس الظـلم فـي المجتمع البشري .

النزوع الفطري نحو العصمة

ممّا تقدّم كيف نبرّر مفهوم الفيتو فـي المـنطق الغـربي عـلى المسـتوى القـانوني والحقوقي إذا كان هو حقّ للقوي الذي تنطوي حـوله المـصالح والشـهوات ويـديره حيثما يريد ويفقد هذا الفيتو عدالته بالتصرّفات الظـالمة لهـؤلاء ولأجـل إعـادته إلى الصواب والعدل ، إذن لا بدّ لقـيمومة الأعـدل والأعـلم عـلى غـيره ، وهـذا الأعـلم والأعدل والأخبر والأعقل هو المعصوم في مذهب أهل البيت عليهم السلام ، والتسليم بـهذا المبدأ يعني النزوع الفطري نحو العصمة ؛ لأنّ الإنسان بـفطرته يـريد أن يـعطي حـقّ الفيتو للمعصوم الذي لا يخطأ على المستويين العلمي والعملي .

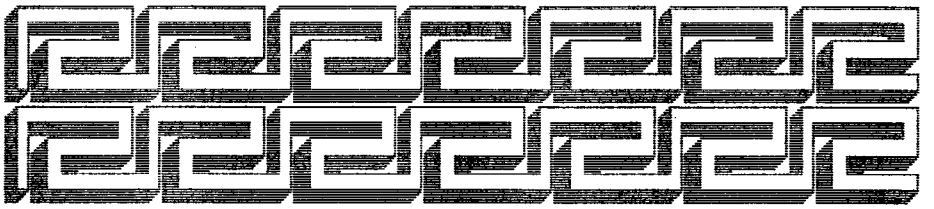

المحاضرة السابعة

الردّ على شبهة الرقّ وحقوق الإنسان

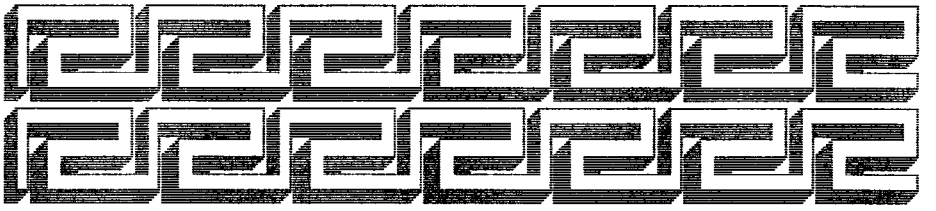

بسم الله الرحمن الرحيم

مسألة الرقّ وحقوق الإنسان

من الأمثلة التي يعترض بها المعترضون على الإسلام هي مسألة الرقّ والاستعباد المذكورة في القرآن الكريم والتشريع الإسلامي ، وهي مسالة قديمة حديثة ؛ لأنّ الرقّ كما يتصوّرون هو مخالف لحقوق الإنسان التي تناشد بها الشعوب المتحضّرة . ولهذا كان هنالك مخطّط أمريكي يستهدف فرض الوصاية على الإرشاد الديني والمناهج في الدول الإسلاميّة باعتبار أنّ بعض تعاليم الإسلام تحرّض على الإرهاب ، وتناقض حقوق الإنسان ، وتحاول أمريكا الضغط على الدول الإسلاميّة من أجل التخلّي عن مفاهيم بعض الآيات القرآنيّة التي تدّعي أنّها تحرّض على الإرهاب أو تناقض حقوق الإنسان .

القراءات الجديدة للنصوص الشرعيّة

بعض المحدثين من العالم الإسلامي يحاول أن يجد إجابة عن هذه التساؤلات ، ويوجد الحلّ المناسب لها بأن يقول إنّ جملة من التشريعات القرآنيّة والنبويّة هي تشريعات كانت مقنّنة ومؤسّسة على ضوء البيئة العربيّة الجاهليّة ، أو البيئة البشريّة في أعراف ذلك الزمن ، وبعضهم يتمادى في هذا المجال ويسمّيه قراءة حديثة للقرآن

الكريم ، ويقول حتّى الحجاب الوارد في التشريع الإسلامي بهذا النحو من التشدّد إنّما كان لاعتبارات خاصّة هي أنّ المرأة العربيّة السابقة كانت تـعيش فـي مـجتمع عـربي بدوي كان فيه العطش الجنسي شديد ، وكان أي بـريق مـن جـمال المـرأة يـثير ذلك المجتمع ، فلذلك أمرها القرآن بالجلباب وهو ما يسمّى العباءة والخمار ، أو هو الربطة التي تكون على الرأس أو الحجاب ، وللإسف الشديد نجد أنّ المرأة قد تركت العباءة واستبدلتها بما يسمّى بـ(البالطو) الذي يتفنّن مصمّمو الأزياء في تشكيله بشكل يظهر مفاتن المرأة من الخصر والصدر والبطن ، فـتمشي المـرأة بـهذا اللـباس وكأنّـها فـي استعراض لمفاتنها.

الحداثيون: أحكام الإسلام ليست أبديّة

في الردّ على هذه القراءة أقول في البداية: أنا لست بصدد الردّ على مثل هذه القراءات الحداثية وبيان أُصول الاستنباط الشرعي؛ لأنّ هذا موضوع قائم بنفسه ، ويحتاج إلى سلسلة من البحوث الكثيرة ، ولكن من الواضح أنّ من يدّعون أنّـهم يـقرأون القـرآن قراءة حداثية أو قراءة جديدة يـحاولون إثـبات أنّ بـعض الأحكـام الإسـلاميّة ليست أحكاماً أبديّة ، وإنّما كانت تناسب بيئة معيّنة في أزمنة معيّنة ، كما هو الحال في الرقّ والاستعباد؛ لأنّ هذا الموضوع مرفوض عند البشريّة جمعاء في زماننا الحالي ، فـما كان في الزمان الذي رافق ظهور الإسلام فإنّ العرف القانوني كان يقرّ الأسـر والسـبي والرقّ والاستعباد ، وأمّا الآن فبعد أن أُلغي الرقّ في الأعـراف البشـريّة ، آن الأوان أن تعاد قراءة هذا الباب ، وأن نقرأه قراءة جديدة موافقة للحداثة والتحضّر ، ولازم ذلك أن تغيّر بعض الأحكام الواردة فيه ـ كما يقولون ـ.

عالميّة الدين وخلوده

أمّا نحن فنقول: إنّ الدين باعتباره ديناً ربّانياً إلـهياً فهو يغطّي كلّ الأجيال وكلّ البيئات

وكلّ أشكال وأنواع الأنظمة الاجتماعيّة ، وهو يقدّم موقفاً قانونياً ونظاماً متكاملاً يتناسب مع كلّ المجتمعات ، سواء كان ذلك المجتمع مجتمعاً قبلياً أو حضرياً ، وسواء كان مدنياً أو قروياً ؛ لأنّ هناك ثابت ديني ومتغيّر ديني ، ولكنّنا لسنا في مقام تفصيل هذه المصطلحات الآن.

كرامة الإنسان في التشريع الإسلامي

هنا علامة استفهام تطرح في البين هي: هل أنّ الرقّ والعبوديّة المطروحة في الشريعة الإسلاميّة تستند إلى الخشونة والقساوة وعدم احترام حقوق الإنسان ، أم أنّ الأمر ليس كذلك ؟

فهناك قاعدة أُصوليّة ، وهي من القواعد الأُمّ في التشريع الإسلامي ، تقول: (أنّ الطبيعة الأوّليّة في التشريع الإسلامي هي كرامة الإنسان) ، يعني أنّنا في كلّ مورد من الموارد لا نجد فيه نصّاً خاصّاً أو تعبّداً خاصّاً على الاستثناء أو التخصيص أو رفع اليد عن هذه الطبيعة الأوّليّة التي هي كرامة الإنسان في التشريع الإسلامي ، فإنّنا نعتمد على هذه القاعدة في التشريع ، وقد صرّح بهذه القاعدة الكثير من علماء الإماميّة الإثني عشريّة ، وربما جملة من بقية المذاهب الإسلاميّة الأُخرى ، وهي تستند إلى الكثير من النصوص القرآنية ، منها قوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ** ﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿ **لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ** ﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿ **اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ**

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٠.

(٢) سورة التين: الآية ٤.

* ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[١]، وهذه الآيات هي قواعد قانونيّة، ولا تندرج تحت فقه المقاصد أو روح الشريعة، أو أنّها ثقافة قرآنيّة عامّة، وأنّ أكثر ما خلقه الله إنّما سخّره للإنسان، إذن فالأُمور التي توجب إهانته أو سلبه لحقوقه تكون أُموراً منافية للكرامة الإنسانيّة، وهي مرفوضة في الشريعة، والقرآن لم يخصّص المؤمنين أو المسلمين بل قال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾، إذن الإنسان بما هو إنسان، ونقصد به من يحمل الخصائص الإنسانيّة من العقل والفكر الذي يساعده في الوصول إلى الكمال، هو الذي يكون داخلاً في التكريم، لا الإنسان بما هو مادي أو ملحد أو مجرم؛ لأن هذه عناوين قد أخرجتها أدلّة أُخرى عن التكريم، فالطبيعة الفطريّة للإنسان كريمة عند الله، قال تعالى: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٢]، أو بتعبير قرآني آخر: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾[٣].

وهذا ليس من باب فلسفة التشريع، بل هو قالب قانوني قرآني، وفي تعبير الإمام عليّ عليه السلام: «**إمّا أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق**»[٤]، أو قول الإمام الحسين عليه السلام: «**إن لم يكن لكم دين فكونوا أحراراً في دنياكم**»[٥]؛ لأنّ نبع الفطرة لها مقتضيات قانونيّة يحترمها التشريع الإسلامي تؤكّد على كرامة الإنسان، والذين ينادون اليوم بكرامة الإنسان قد سبقهم الإسلام بأربعة عشر قرناً بالمناداة بها، وأنّها الأصل، ولا تهتك كرامة الإنسان إلّا بموجب. نعم للمسلم كرامة مزيدة كما أنّ للمؤمن كرامة أرفع.

---

(١) سورة إبراهيم: الآيتان ٣٢ و ٣٣.

(٢) سورة الروم: الآية ٣٠.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٣٨.

(٤) تقدّم في الصفحة ١٦٧ و ٢٧٦ من هذا الكتاب.

(٥) تقدّم في الصفحة ٢٤٢ من هذا الكتاب.

الكفّار في الفكر الإسلامي

أمّا بالنسبة للكفّار ، فالقرآن الكريم يفرّق في التعامل بينهم ، فهناك كافر عدوّ ، أو ما يسمّى بـ(الكافر الحربي) وكافر ليس بعدوّ الذي يسمّى بـ(الذمّي) ، أو المعاهد ، انظروا إلى التعبير القرآني الوارد في قصة إبراهيم مع آزر : ﴿ **وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** ﴾ ، فيلاحظ أنّه كان يعلم قبل أنّه كان كافراً ، ولكن عندما علم أنّه عدوّ لله تبرّأ منه ، وهذا دليل على الفرق بين الكافر العدوّ والكافر غير العدوّ ، وهناك مصطلح الكافر ومصطلح المشرك ، فهناك كافر قد يستحقّ النار وآخر قد لا يستحقّها ، وقد يستغرب البعض من الكافر الذي لا يستحقّ النار . نعم ، الكافر الذي هو في معرض الهداية وفي طريق البحث عن الحقيقة لا يستحقّ النار .

دور الفطرة الإنسانيّة في التشريعات الإسلاميّة

الجزء الوافر من الشريعة الإسلاميّة مستمدّ من الفطرة الإنسانيّة ، وهي الفطرة التي أودعها الله في الإنسان ، فتكون مشتركة بين جميع أبناء البشر ، ليكون عاملاً مهمّ في مسألة التشريع ، وهذا ما نجده في مذهب الإماميّة بشكل بارز ربّما أكثر من المذاهب الأُخرى ؛ لأنّ أحد المصادر والحجج الربانيّة هو العقل ، والعقل يرجع إلى الفطرة ، سواءً كان العقل النظري أو العقل العملي ، على الأقلّ في البديهيات التي لا يختلف عليها أصحاب العقول ، وهي نقطة اشتراك بين الأُصوليّين والإخباريّين ، كما يذهب إلى ذلك الشيخ يوسف البحراني رحمة الله عليه ، وقد ورد في روايات أهل البيت عليهم السلام أنّ العقل رسول باطني كما أنّ النبيّ رسول ظاهري ، إذن فنحن نسير في دائرة اللغة البشريّة ، وهي اللغة العقليّة الفطرية ، التي تكون مشتركة بيننا وبين الأُمم الأُخرى .

معنى الرقّ في الفقه الإسلامي

إنّ لظاهرة الرقّ والسبي وما شابه ذلك من الظواهر الأُخرى التي أُثيرت حولها الشكوك والشبهات التي تطعن بالمتبنيات الإسلاميّة ، ولغرض توضيح المطلب لا بدّ أن نعرف ما معنى العبودية أوّلاً ؟ حيث تصاحب هذه اللفظة معاني التقزّز والتنفّر وهذا صحيح ، إلّا أنّ بيان المطلب يتوقّف على توضيح معناها ، فعبوديّة شخص لشخص آخر لها عدّة معاني وعدّة درجات ، إذا لم يدركها الإنسان قد يتنفّر من العنوان في نفسه ، أو يحصل له الاشتباه في هذا المفهوم ، ونحن عندنا أنّ الأجير إذا آجر نفسه صار سخرة للمستأجر ، بمعنى أن نتاج جهده يكون لمصلحة المستأجر ، وهذا يفرض نوع طاعة من الأجير إلى المستأجر ، ومطلق الطاعة من المطيع إلى المطاع هو نوع من الخضوع .

الإسلام وشعار عتق العبيد

قد وردت الكثير من النصوص الشرعية عند المسلمين ترغّب الإنسان في تحرير العبيد وتعِدَه بالثواب الجزيل ، بل أنّ التشريع الإسلامي قد جعل بعض الكفّارات عتق رقبة عبد ، بل الكثير منها لا تقع إلّا بتحرير رقبة لأجل تطويق ظاهرة الرقّ ، كما أنّ الإسلام قد حثّ على معاملة العبيد بالرفق والحسنى ، إذن الإسلام كان عنده برنامج للقضاء على هذه الظاهرة التي أُسيئ استخدامها في الأزمنة التي سبقته ، ولهذا فقد جعلها في ضمن تشريعاته ، فكما أنّها قد تحمل لون العقوبة في الكفّارة على الشخص المخالف للحكم الشرعي ، فهي أيضاً تحمل في طرفها الآخر تحريراً لعبد ، كما أنّ التشريع قد أوجب على السيّد الذي يملك الأسير نفقته وضمانه الصحّي وضمانه الاجتماعي ومسؤوليّته الجنائيّة ، وسيتحمّل الكثير من أجل أن يبقى هذا العبد تحت عهدته . فالأحرى بالغربيّين الذين يتّهمون الإسلام أن يقرّوا بما فضحهم به مؤتمر مكافحة العنصريّة الذي عقد في جنوب أفريقيا في العام الماضي بأنّ ضمانات

العبيد الذين استعبدوا ـ بأشنع وأفضع وأشدّ وأقمع وأقبح طريقة بشريّة من قِبل البيض ـ ضمانات ضائعة.

نيويورك مدينة بيضاء

حتّى اليوم ليس الأبيض كالأسود في الدول الغربيّة، وفي خطابه الأخير ـ بكلّ وقاحة، وقلّة حياء ـ يصرح الرئيس الأمريكي أنّ مدينة نيويورك يجب أن ترجع مدينة بيضاء، أي فقط للجنس الأبيض، فهل هذا منطق إنسان يحترم حقوق الإنسان؟ بينما الإسلام يجعل من الرقّ نظام ضمان وكفالة وتربية إسلاميّة للعبد أو الأسير مقنّنة ومشروطة، ومع ذلك فإنّه يخطط للقضاء عليها بشكل كلّي في تشريعاته الفقهيّة.

الرقّ وملكية الخدمة

قبل الخوض في هذا الموضوع يجب أن نحذر من الانسياق وراء العناوين القانونيّة التي يضعها أصحاب المصالح، حيث يتمّ الخداع، والمغالطات، وخدمة المصالح، وترجيح طرف الباطل على طرف الحقّ، ولا بدّ من الالتفات إلى نفس المعنى مهما حاولوا تسميته بمسمّيات أُخرى.

فالرقّ في التشريع الإسلامي يعني الخدمة وملكية الخدمة ليس إلّا، ولا يعني القهر والظلم، وإلى الآن لا تزال الكثير من الدول لا يتمتّع الخادم فيها بالضمان الذي يضمن الحماية لهذا العبد أو الخادم، أو الموجود بمسمّيات أُخرى في القرآن الكريم والشريعة الإسلاميّة، والتاريخ رصد لنا ماذا فعل الجنس الأبيض بالجنس الأسود، والمفروض أن يطرحوا هذه الإشكالات على حضارتهم التي تستنقص العنصر الأسود وتمنعه من الوصول إلى العديد من المناصب.

القصاص ودوره في تكامل المجتمع

من المسائل التي أُثيرت حولها الاعتراضات على التشريع الإسلامي مسألة

القصاص المقنّن في الإسلام باعتباره يخالف أبسط حقوق الإنسان ، ولكن سأُجيب عن الاعتراضات بإجابات عامّة ، ولن أخوض في تفاصيلها لضيق المقام ، فمثلاً لو فسد عضو من أعضاء الإنسان بسبب مرض ما كمرض السرطان الخبيث بحيث لا تسلم بقية الأعضاء إلّا إذا بتر ذلك العضو ، فمن الواضح أنّ بتر ذلك العضو يعدُّ أمراً مستساغاً ولا يكون مخالفاً للإنسانيّة والحقّ الطبيعي أو خلاف التشريع الديني ، وإنّما هو من صلب الإنسانيّة والتشريع الديني والحقّ الطبيعي لأنّه سيحفظ حياة إنسان.

وهذا ما ينطبق على الشخص أو الجماعة التي تهدّد نظاماً اجتماعياً من خلال الجريمة ، والتعدّي على المجتمع ، وتهديد الأمن والاستقرار ، وسلب الأموال ، والاعتداء على الحرمات ، ففي مثل هذه الأُمور لا بدّ من إقامة القوانين الصارمة وتطبيقها في حقّ هؤلاء العابثين وإلّا فسوف تسود الفوضى والاضطراب ، ولهذا نجد تعبير القرآن الكريم : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الْأَلْبَابِ ﴾[1] ، باعتبار أنّ ردع الجاني يهيّئ الجوّ لسيادة الأمن وقطع دابر الجرائم ، وهذه إجابة بسيطة على هذا الاعتراض ، وأنّ هناك العديد من الاعتراضات على الحدود والتعزيرات الإسلاميّة ، وسوف نجيب عنها في بحوث مستقلّة إن شاء الله.

مفهوم الإرهاب

حتّى يتّضح مفهوم الارهاب جيّداً لا بدّ من التطرّق إلى عدّة موضوعات منها مفهوم الإرهاب الدولي ، وموقف الإسلام منه ، ومتى يستخدم ، ومتى لا يستخدم ، وكذلك التطرّق إلى مفهوم الإرهاب في مقابل السلم ، ومتى يسوغ وقوعه ، ومتى لا يسوغ ، ثمّ نحاول ربط الموضوع بموقف الإمام الحسين عليه السلام باعتباره قرآناً متجسّداً ناطقاً ، لا سيّما أنّ واقعة عاشوراء اجتمعت فيها ظروف عديدة شملت الكثير من المواقف

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٧٩.

والموضوعات والمحاور ، وكأنها نقطة لاستقطاب معرفة المواقف من خلال منطلقات الإمام الحسين الذي انطلق منها.

تعريف الأُمم المتّحدة للإرهاب

أُختلف في تعريف الارهاب ، لا سيّما في المحافل الدوليّة ، حيث أخذت كلّ فئة تعريفاً معيّناً تبعاً للمصالح المترتّبة عليه ، فذهبت الأُمم المتّحدة ـ مثلاً ـ إلى أنّ تعريف الإرهاب هو : « استخدام الرعب كعمل رمزي للتأثير على السلوك السياسي بوسائل غير معتادة مهدّدة عنيفة » ، فقولهم عمل رمزي يشير إلى الفرق بين الإرهاب والحرب ، فالإرهاب ليس حرباً ؛ لأنّ الحرب تعتمد على التوسّع الجغرافي والغنائم الماديّة ، أمّا الإرهاب فليس من أهدافه تحقيق التوسّع الجغرافي ، وقد يكون للإرهاب دور يفوق دور الحروب أحياناً في تحقيق بعض الأهداف.

النصر بالرعب

هنالك بعض الروايات التي تشير إلى أن النبيّ صلى الله عليه وآله قد نصر بالرعب ، حيث يكون الرعب أنجح وأنجع من الحرب الميدانيّة ، وأنّ هذه القوى الكبرى تستخدم الإرهاب أكثر من الحروب الميدانيّة لتحقيق أهدافها ؛ لأنّ هناك قواسم مشتركة بين الحرب وبين الإرهاب ، وإذا رجعنا إلى تعريف الأُمم المتّحدة للارهاب وإن كان التعريف صحيحاً في بعض أجزائه ، إلّا أنّ هناك الكثير من المؤاخذات عليه ؛ لأنّ هذا التعريف يغفل نقاطاً مهمّةً ، فهو يسوّغ لمن وضعوا هذا التعريف أن يتّهموا جهاتاً معيّنة بالإرهاب كالشعوب التي تنشد الحرية وغيرها ؛ فهؤلاء المقنّنين يخدمون الاستكبار العالمي لكي تتهيّئ له الأجواء القانونيّة في استكباره ، ولكي تلقى خططه العدوانيّة تأييداً تحت مسمّيات مزوّرة. وهناك تعاريف أُخرى سنتطرّق إليها تباعاً إن شاء الله.

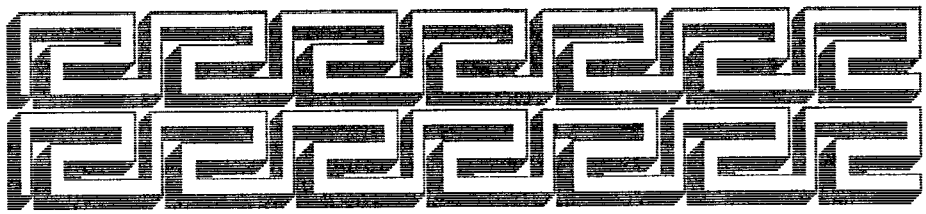

المحاضرة الثامنة

مناقشة تعريفات الارهاب وتطبيقاتها

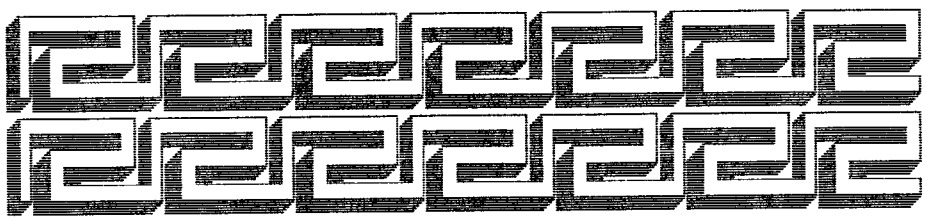

بسم الله الرحمن الرحيم

الهدف من العمليات الارهابيّة

مرّ علينا تعريف الارهاب بأنّه: «استخدام الرعب كعمل رمزي للتأثير على العمل السياسي بوسائل مهدّدة عنيفة غير معتادة»، فإنّ العنف قد يحصل من خلال استخدام الآلات العسكريّة سواء في الحرب أو في العمليات الإرهابيّة، والغرض من ذلك عادة هو الحصول على المكاسب السياسيّة، وبما أنّ المكاسب في الحرب غالباً ما تختلف عمّا هي عليه في العمل الارهابي، ولهذا نجد أنّ العمليات الارهابيّة لا ترتبط ـ غالباً ـ بالحصول على مكاسب ماديّة أو توسيع الرقعة الجغرافيّة، ولا يكون استخدام هذه الآلات بشكل متواصل ودائم، بينما تكون للحرب ـ غالباً ـ أهداف ماديّة، وتستهدف التوسّع الجغرافي، وتستخدم الآلات الحربيّة بشكل دائم.

ارتباط الارهاب بالأهداف السياسيّة

تمثّل العمليات الإرهابيّة عاملاً مادياً آلياً يستهدف الضغط النفسي على الطرف الآخر الذي قد تمثّله دولة أو شعباً أو طائفة أو حزباً منافساً أو فرداً معيّناً، وفي الغالب تكون العمليات الإرهابيّة مرتبطة بالأغراض السياسيّة، وإن كان هناك بعض العمليات الإرهابيّة مرتبطة بالحصول على المكاسب المالية، والهدف منها مادي كما هو حال

المافيا الدوليّة التي تمارس الإرهاب في العالم من أجل هذا الغرض ، إلّا أنّ في الغالب تكون ارتباطات الارهاب في الغرض السياسي .

الإرهاب هو العنف المتطرّف

التعريف الثاني للإرهاب : « هو العنف المتطرّف لأهداف سياسيّة ، الذي تـنتهك بـه المعتقدات الإنسانيّة والأخلاقيّة » ، فقد عبّر بالمتطرّف لبيان أنّ استخدام القوّة شـيءٌ حسن إذا خضع لضوابط ، فورود كلمة (المتطرّف) إشارة إلى أنّ استخدام القـوّة فـي العمليات الإرهابيّة أمر غير صحيح وغير خاضع للضوابط .

ضوابط المبارزة العسكريّة

إذا رجعنا إلى سيرة العرب في العصور الماضية ـ وخصوصاً في الحروب ، وكذلك الأُمم المعاصرة لها ـ نجد أنّ هناك قوانين وضوابط لتلك الحروب ، ولا يمكن التعدّي عليها ، فمثلاً كان الجيشان يلتقيان ، ويبرز من كلّ جيش أفراد للـمبارزة العسكـريّة ، وكانت هناك أُصول قانونيّة تحكم القتال بين هذين الفارسَين المبارزَين ، أو يخرج من أحد الجيشين مجموعة تبارز المجموعة التي خرجت من الجيش الآخر ، وفي هـذه الحالة يصحّ أن يُعين كل محارب من هو في جيشه مـن دون أن يـتدخّل غـيرهم فـي ذلك ، ولهذا فقد أعان الإمام عليّ عليه السلام عمّه الحمزة في غزوة بدر ، فبعدما قتل الإمـام عليّ عليه السلام ابن عتبة أعان عمّه الحمزة على قتل عتبة ، كما شارك في قـتل شـيبة أيـضاً ، وهذه داخلة في قوانين الحرب ؛ لأنّه مَن كان من المبارزين فهو يستطيع إعـانة غـيره على مَن يقابله ، ولا يصحّ أن يأتي من جيش المسلمين أو جيش المشركين غير هؤلاء الستّة قبل انتهاء المبارزة العسكريّة .

لا بدّ من وجود ضوابط للقوّة

لا يختلف الأمر في استخدام القوّة عنه في الحرب ، فإنّ للقوّة ضوابط وقوانين يلتزم

بها كلّ مَن يريد استخدامها ، وهذا ما حصل في مواجهة غطرسة عبيدالله بن زياد ، حيث نهاه بعض جلسائه عن استخدام لغة القوّة والتهديد مع السبايا لأنّهن نسوة ، وهذا يدلّ على وجود ضوابط لاستخدام القوّة منذ الصدر الأوّل للإسلام ، بل حتّى في زمن الجاهليّة كانت هنالك أعراف قانونيّة يتقيّد بها ، وإن كان القرآن قد ذمّ الجاهلية الأُولى في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ ، إلّا إنّه قد تنبّأ بوجود جاهليّة ثانية ، ويبدو أنّ الجاهلية الأُولى كانت لها ضوابط أكثر من الجاهليّة الثانيّة التي تمارس الفحشاء بلا حدود ، وتقنّن قوانينها بالخداع واللعب بالمصطلحات وتفسيرها تفسيراً مخادعاً .

جماعات المدنيّين في الحروب

النتيجة التي يمكن استخلاصها ممّا تقدّم هي أنّه لو احتجنا إلى استخدام القوّة فليس هنالك ما يمنع من استخدامها ، إلّا أنّه لا بدّ من أن تخضع لضوابط وحدود وأُطر تنظّم استخدامها ، فمثلاً : يجب أن لا يُقتل المدنيّون في الحروب التي تكون بين الدول ، أو بين دولة وفئة معارضة لها ، سواء كانت في داخل تلك الدولة أو خارجها ، ولهذا فيجب أن لا يُقتل المدنيّون الأبرياء في هذه الحروب ، كما قرّر ذلك في القوانين الدوليّة ، بل إنّ الأُمم المتّحدة قد أصدرت قراراً لحماية المدنيّين في الحروب ، ولا يُقتل في هذه الحرب إلّا العسكريّون ، ومن أمثلة هذه الضوابط إذا أرادت دولة ما أن تلقي القبض على إرهابيّين ، فالقانون يرفض أن يكون المدنيّون من النسوة والأطفال والشيوخ وغيرهم ضحيّة في هذه العملية ، هذا ما يقوله القانون ، وإن كان حبراً على ورق ، أمّا الواقع فأمره مختلف .

استخدام الأسلحة الكيمياويّة والجرثوميّة

فبعد أن أُجيز استخدام القوّة ، وخصوصاً في الحروب ، فلا بدّ أن تكون هنالك أسلحة تستخدم في هذه المعارك ، ولكن مع هذا فهناك أسلحة قد مُنع من استخدامها

في تلك الحروب ، وهي المعروفة بالأسلحة الفتّاكة المدمّرة للبيئات الكبيرة الخارجة عن نطاق العسكريّين كـما فـي اسـتخدام الأسـلحة الكـيمياويّة ، أو الجـرثوميّة ، أو استخدام اليورانيوم المخصّب ، أو استخدام الأسلحة التي تكون لها انعكاسات سلبيّة على البيئة والحالة الصحّية للمجتمع ، فإنّ جميع هذه الأمـور تـندرج تـحت عـنوان الإرهاب وليس تحت عنوان الحرب ؛ لأنّ الحرب لها أخلاقياتها وأُصولها وقوانينها ، وهي تستهدف إلى ردع القوّة الغضبيّة عند الطرف الآخـر ، أمّـا اسـتخدام مـثل هـذه الأسلحة فإنّه سوف يؤدّي إلى انتشار الدمار في المناطق التي تكون تحت مدى هـذه الأسلحة ، ويكون تأثيرها على جميع الموجودات ، سواء كان من البشر وغيرهم .

الآثار السلبية للانتقام

من الخطأ مواجهة العدوان بعدوان أكبر والإرهاب بإرهاب أكثر ، ولهذا نـجد أنّ الانتقام يحمل في طيّاته الكثير من السلبيات ؛ لأنّه يؤدي إلى هذه النتيجة ، ومن هنا كان العفو أقرب للتقوى في الموارد التي يمكن فيها العفو ؛ لأنّ القوّة الغضبيّة كثيراً ما تكون في حالة الانفلات وعدم السيطرة عند الانتقام .

أقسام الإرهاب

التـعريف الثـالث للإرهـاب : « الإرهـاب هـو الإرهـاب الحـربي الثـوري والقـمعي والمالي » ، وكأنّهم بصدد بيان أقسام الإرهاب .

معنى الإرهاب الحربي

الإرهاب الحربي يعني استخدام ورقة الإرهاب ضـمن تـلك الحـرب ، كـإسقاط الطائرات المدنيّة التابعة للدولة التي تحاربها بهدف الضعط النفسي وإضـعاف القـرار الإداري فيها ، إذن فالحرب قد تتضمّن الإرهاب ، مع الالتفات إلى الفارق بين الحرب والإرهاب .

معنى الإرهاب القمعي

أمّا الإرهاب القمعي: هو الإرهاب الذي تمارسه الدول والأنظمة الحاكمة ضدّ رعاياها أو ضدّ المعارضين لها من أحزاب وأفراد لغرض الحدّ من معارضتهم لتصرّفات السلطة الحاكمة في البلد، والإرهاب في هذا القسم يعني تجاوز القوانين الدوليّة والعرفيّة التي تنظّم علاقة الحاكم بالمحكوم، كأن تعتقل مجموعة من الأبرياء، وتعذّبهم من أجل إخافة المعارضين الحقيقيّين الذين لم ينكشفوا بعد، وهي بهذا تختصر الطريق بتخويف المعارضين، ولكن الذي يدفع ثمن هذا الاختصار هم الأبرياء من المدنيّين الذين لا حول لهم ولا قوّة، ولذا نجد أنّ هذا أمر مدان من قِبل التشريع الإسلامي والتقنين الدولي.

معنى الإرهاب الثوري

أمّا الإرهاب الثوري، وهو إرهاب مجموعة لديها مطالب معيّنة تقوم بعمليات إرهابيّة من أجل تحقيق تلك المطالب كما في المجموعات اليساريّة ـ مثلاً ـ التي تمارس هذه العمليات تحت شعار: (أنّ الغاية تبرّر الوسيلة)، فيتعرّضون للأبرياء أو المؤسسات أو المصالح العامّة أو الخاصّة.

معنى الإرهاب المالي

أمّا الإرهاب المالي فمن أمثلته عصابات المافيا التي تتمتّع بقدرات هائلة تهدّد الدول والحكومات من أجل الحصول على مكاسب ماليّة، ومن أمثلة الإرهاب المالي أيضاً ضغط أمريكا على باكستان من أجل إخضاعها للموافقة على التواجد الأمريكي في المنطقة، كما صرّح بذلك الرئيس الباكستاني الذي قال: «إنّ بلاده هُددت بضرب مفاعلها النووي في حال معارضتها للوجود الأمريكي في المنطقة»، وقال: «إنّ احتفاظنا بالقنبلة النوويّة مصدر عزّ لباكستان والدول الإسلاميّة»، فصارت القنبلة

النوويّة محفوظة بدل أن تكون حافظة ، وصارت موجبة للذلّ بدل أن تكون موجبة للعزّ ، وهذا هو الإرهاب المالي الذي مارسته أمريكا بتهديدها لباكستان باعتبار أنّ المصدر الذي يقوّم الجانب الاقتصادي أو الجانب العسكري وما شابهه يكون تحت طائلة التهديد بالنسف والتدمير ، وإذا كان كذلك فحفاظاً على هذا المصدر وحمايته فإنّ هذه الدولة تخضع للجانب القوي .

أخلاقيّات ثورة الإمام الحسين عليه السلام

الإمام الحسين عليه السلام بالرغم من أنّه قام بهذه الثورة المقدسة العظيمة ، إلّا أنّها ثورة لم تنفكّ عن أخلاقه وقيمه ومبادئه العظيمة ، التي كانت تمثّل أخلاق الدين ، بل كانت ملتزمة بحذافير التشريع الإسلامي ودقائقه والمثل العليا للدين ، وهذا ما يتجلّى من خلال سلوكه وسلوك أصحابه وأهل بيته وسفرائه ، كمسلم بن عقيل الذي رفض أن يغدر بعبيدالله بن زياد ، مع أنّ هذا الأمر كان أمراً مهمّاً وربّما يغيّر مجرى التاريخ مع ذلك رفضه مسلم بن عقيل ؛ لأنّه يتنافى مع مبادئه ، وقد أثنى الإمام الحسين على مسلم بن عقيل ، فمع حرصهم على الهدف الذي يجاهدون من أجله ، وهو وصول المعصوم إلى الحكم الذي هو سعادة البشر ومع سموّ هدفهم ، إلّا أنّهم ما تجاوزوا في تحقيق هدفهم حدود التشريع أبداً ، هذا مع رعونة الطرف الآخر الذي كان يمثّل السلطة الحاكمة ، وعدم تقيّده بالدين ، ومخالفته لقيم العرب والأعراف الإنسانيّة ، ومع ذلك كلّه فإنّ الإمام الحسين عليه السلام وأصحابه لم يكن أُسلوبهم أن يُدفع الفساد بالفساد وإنّما يدفع الفساد بالصلاح .

الحكم وسيلة لإقامة العدل

قال الإمام عليّ عليه السلام : « **ما قِيمَة هٰذِهِ النَّعْل؟** » .

فقال : لا قيمة لها .

قال عليه السلام: «**والله لَهِيَ أَحَبُّ إِليَّ من إمرتكم، إلا أَن أُقيم حقّاً، أَو أَدفع باطلاً**»(١).

وقال عليه السلام: «**وَلَأَلْفَيْتُمْ دُنْيَاكُمْ هٰذِهِ أَزْهَدَ عِنْدِي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ**»(٢).

الحكم في منطق القرآن وأهل البيت عليهم السلام ليس إلّا وسيلة من وسائل الوصول إلى الحقّ، أمّا إذا كان الحكم بنفسه غاية أو هدفاً نهائياً فلا قيمة له في ميزان القرآن وأهل البيت عليهم السلام.

قاعدة: (دفع الأفسد بالفاسد) عند أهل البيت عليهم السلام

لو رجعنا إلى مذهب أهل البيت عليهم السلام وتوجّههم الذي يمثّل توجّه القرآن في قوله ومنهجه ـ لأنّهم عِدله والثقل الثاني الذي لا يضلّ مَن يتمسّك به ـ نجد أنّ القاعدة التي تقول: (ينبغي دفع الأفسد بالفاسد) قد أُلغيت من منهجهم، وإن كانت بعض المذاهب الإسلاميّة قد تبنّت هذه القاعدة وعملت بها، إلّا إنّ مذهب أهل البيت لا يوافق عليها؛ لأنّ الأفسد قد فعله غيرك وهو مسؤول عنه، وهذا لا يسقط عنك الحساب على فعل الفاسد، ولا يبرّر لك أن تفعل الفاسد وإن كان من أجل دفع الأفسد.

نفي التقيّة في الدماء

المعروف عند مذهب أهل البيت عليهم السلام أنّ التقيّة شرعت من أجل حقن الدماء، أمّا إذا وصلت التقيّة إلى الدم فلا تقيّة، فلو قيل لك: اقتل زيداً وإلّا فإنّ الطاغي سيقتل عشرة، فهذا لا تجوّزه التقيّة؛ لأنّ الطاغي لو قتل العشرة فهو محاسب أمام الله على فعلته تلك، أما أنت فستكون محاسب أمام الله إذا قتلت زيداً حتّى لو كان ذلك بحجّة التقيّة وحفظ

---

(١) راجع بحار الأنوار: ٧٦/٣٢، ١ ـ باب بيعة أمير المؤمنين عليه السلام، الحديث ٥٠.

(٢) راجع نهج البلاغة: ٥٠، الخطبة ٣ المعروفة بـ(الشقشقيّة) ـ بحار الأنوار: ٥٤٥/٢٩، ١٥ ـ شكاية أمير المؤمنين (صلوات الله عليه) عمّن تقدّمه.

دماء العشرة ، وكذلك في حفظ دمك كما لو قيل لك: اقتل زيداً وإلّا قتلتك ، فهنا ـ أيضاً ـ لا تصحّ التقيّة بعنوان حفظ النفس ؛ لأنّها مرتبطة بقتل نفس أُخرى .

نعم هناك بعض الموارد التي استثنيت من هذا الأمر لوجود النصوص الخاصّة ومثالها لو تترّس المشركون ببعض المسلمين ، وكانت الضرورة تقتضي الهجوم على المشركين ، فحينئذ يجوز الهجوم عليهم وحربهم حتّى لو اقتضى الأمر أن يكون أُولئك المسلمون الذين تترّس بهم المشركون من بين الضحايا .

حصار الإمام الحسين عليه السلام عسكريّاً

لا يستبعد أنّ الإمام الحسين عليه السلام قد اجتمع عليه سبعون ألف مقاتل من الجيش الموالي للسلطة الحاكمة ؛ لأنّ الغرض من هذا العدد ليس مقاتلة الحسين قتالاً ميدانياً فقط ، بل حصار الإمام الحسين عليه السلام حصاراً عسكريّاً يمنع من مدّه بالرجال والسلاح ،بحيث لا يستطيع الالتقاء بالقبائل المجاورة ويكسبها إلى جانبه ، ولكي يعرقل هذا العدد الهائل قدوم القبائل التي كانت توالي الإمام الحسين عليه السلام ، وكذلك بخروج جميع أهل الكوفة يضمن الحكم الأموي عدم قيام ثورة أو انتفاضة من قِبل شيعة الكوفة الموالين للإمام الحسين عليه السلام ، فلو لم يكن هذا العدد الضخم موجوداً لأتت القبائل الموالية للحسين لنصرته وقتال جيش بني أُميّة .

أسباب صلح الإمام الحسن عليه السلام

ممّا يتّصل ببحث الإرهاب في نظر البعض مسألة صلح الإمام الحسن عليه السلام مع معاوية ، حيث أنّ الكثير ممّن كانوا في ركب الإمام الحسن عليه السلام ، ومنهم بعض أصحابه المخلصين ، حلّلوا ظاهرة الصلح التي أقدم عليه الإمام عليه السلام لوقوعه تحت ضغط الإرهاب والتهديدات الأمويّة ، وهذا ما تشهد به مكاتبات معاوية التي كانت تستخدم لغة الإرهاب والتخويف بشكل مكثّف ؛ ولجهل البعض بمقام الإمام عليه السلام ؛ ولضعف

الإيمان الذي وصل إليه النّاس ، والتجرّئ على مقام الإمامة فقد سأل البعض الإمام الحسن عليه السلام : « ما ينقضي تعجّبنا منك ! بايعت معاوية ومعك أربعون ألف مقاتل من الكوفة سوى من أهل البصرة والحجاز »[1] ظنّاً منهم أنّ الإمام الحسن عليه السلام وقع تحت ضغط الإرهاب الأموي ، وهذا التحليل خاطئ ؛ لأنّ الأرقام التاريخيّة تدلّل على أنّ قبائل العراق التي كان أغلبها مهاجرة من الجزيرة العربية ومنها ربيعة ومضر وكندة قد وقعت تحت الإغراء الذي يقدّمه معاوية لكي تقف إلى جانبه وتتخلّى عن الإمام الحسن عليه السلام ، ويضاف إلى ذلك وجود الخيانات التي حصلت عند قادة جيش الإمام الحسن عليه السلام كعبيد الله بن العباس وغيره .

الفرق بين جيشي الإمام عليّ والإمام الحسن عليهما السلام

قد يسأل سائل في المقام : أليس الجيش الذي قاده الإمام الحسن عليه السلام هو نفس الجيش الذي جهّزه أمير المؤمنين عليه السلام للقضاء على معاوية وأتباعه ، فلماذا صار هذا الانحلال والتخاذل ؟!

وللجواب على هذا نذكر أنّ هناك فرق بين جيش الإمام الحسن وجيش الإمام عليّ عليه السلام في نهاية أيّامه ؛ لأنّ جيش الإمام عليّ كان معدّاً لضرب معاوية ضربة نهائيّة بعد شهر رمضان حيث كان جيشه هائلاً وقوياً لولا أنّ الله اختار الإمام عليّ واستشهد ، أمّا جيش الإمام الحسن عليه السلام ، فبالإضافة إلى الوضع النفسي الذي حصل للنّاس بعد استشهاد الإمام عليه السلام وتخوّفهم ، نجد أنّ جيش الإمام عليه السلام هو جيش منخور تكثر فيه الخيانة والميل لإغراءات معاوية ، بالإضافة إلى اختلاف موقع الإمام عليّ عليه السلام

---

(١) راجع بحار الأنوار : ٤٤ /٥٧ ، ١٩ ـ باب كيفيّة مصالحة الحسن بن عليّ (صلوات الله عليه) معاوية لعنه الله ، الحديث ٦. المناقب /ابن شهرآشوب : ٤/ ٤٠ ، باب إمامة أبي محمّد الحسن بن عليّ عليه السلام ، فصل : في صلحه عليه السلام مع معاوية.

عن موقع الإمام الحسن عليه السلام في عيون الناس.

مكوّنات الدولة

ذكر المتخصّصون في الدراسات والبحوث الأكاديميّة أنّ أي دولة في العالم تتكوّن من مجموعة من النظم والدويلات الصغيرة التي تكون داخل هذه الدولة، فمثلاً: الولايات المتحدة الأمريكيّة تتكوّن من العديد من الولايات، والتي تجمعها دولة واحدة اسمها الولايات المتّحدة الأمريكيّة، وهذا ما يسمّى بالنظام الفيدرالي، ولو رجعنا إلى كلّ دولة من هذه الدويلات الصغيرة نجدها تتكوّن من مجموعة من الأنظمة التي تكوِّن الدولة؛ لأنّ الدولة تشتمل على الأنظمة الأُسريّة أو القبليّة أو الحزبيّة أو المذهبيّة، وخصوصاً النظام المذهبي الذي له ضرائب خاصّة به، وله تجمّعات وتكتّلات وآراء وأعراف اجتماعيّة ومواقف معيّنة وثقافة خاصّة، وكلّ هذه الأنظمة تساهم بشكل أو بآخر في مجريات الأحداث في تلك الدولة.

المرجعية الشيعيّة وموقعها في نظر الغرب

لو نظرنا إلى أقوال السياسيّين الغربيّين فإنّهم يعتبرون المرجعية الشيعيّة شبه دولة وذلك لأنّ لها نظامها المالي الخاصّ، ولها توجيهاتها وجماهيرها ونفوذها في القرار السياسي والاقتصادي والعسكري والأُمور الأُخرى، وهذا ينطبق على المرجعيات السنّية إذا كانت لها قواعد جماهيرية أيضاً.

وبعبارة أُخرى إنّ النظام السياسي لأي دولة، ما هو إلّا توازن لمجموعة من القوى والأنظمة في المجتمع.

نفوذ الأئمّة وقواعدهم الجماهيريّة

ما نريد أن نبيّنه في ضوء هذا الكلام أنّ الأئمّة عليهم السلام وإن لم يتسلّموا زمام الحكم وقيادة النّاس في الظاهر، إلّا أنّ لهم نفوذ واسع في القواعد الجماهيريّة خلال الفترات

التي عاشوها ، وخصوصاً ما كان من نفوذ واسع للإمام عليّ عليه السلام خلال الخمس والعشرين سنة التي أعقبت وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله ، وقبل أن يستلم الخلافة حيث كان له شيعة وأنصار وأتباع ونفوذ ، وكلّ هؤلاء الأتباع والشيعة كانوا تحت نظام الإمام عليّ عليه السلام ، سواء كان العقائدي والمالي والفكري والثقافي الخاصّ به .

وما يؤيّد كلامنا ما قاله بعض الجواسيس لهارون الرشيد : « يا أمير المؤمنين ، خليفتان في الأرض : موسى بن جعفر بالمدينة يجبى له الخراج ، وأنت بالعراق يجبى لك الخراج ؟ فقال : والله ، فقال : والله ! قال : فأمر له بمائة ألف درهم ... »[1] .

وكلام هذا الجاسوس صحيح من حيث المبدأ ، وهو كما يذهب إليه السياسيّون في زماننا باعتبار أنّ الدولة مهما كانت فهي عبارة عن تلك التكتّلات والقوى الجماهيريّة التي تتكوّن منها ، ولهذا نجد أنّ وجود قواعد جماهيريّة للإمام موسى الكاظم عليه السلام يشكّل شبه دولة لها قوّتها وتأثيرها وإن لم تتسلّم زمام الحكم ، وكان هذا النفوذ يشكّل هاجس قلق في الدولتين : الأمويّة والعباسيّة تجاه الإمام المعصوم الذي عاصرهما .

من أهداف صلح الإمام الحسن عليه السلام

الإمام الحسن عليه السلام كان يدرك أنّ له نفوذ في شيعته ، وكان حريصاً على المحافظة عليه ، والذي فعله في صلح معاوية هو أمر شبيه بالكرّ والفرّ الذي تفرضه التوازنات السياسيّة ، بحيث أنّه لو حارب معاوية لخسر تلك الحرب وبالتالي سوف يؤدّي إلى فقدان هذا النفوذ .

الإمام الحسن عليه السلام في الأحاديث النبويّة

مع ما يميّز به الإمام عليّ عليه السلام من مميّزات كثيرة ، فهو بمنزلة نفس النبيّ صلى الله عليه وآله وما لا يحصى من المناقب وأوّل من أسلم مع النبيّ صلى الله عليه وآله ، بالإضافة إلى قتاله معه ،

---

(١) راجع رجال الكشّي : ٣٣٦ ، التسلسل ٤٧٨ .

ومنزلته وقربه منه ﷺ ، إلّا أنّ للإمام الحسن عليه السلام مميّزات لم تكن لعليّ عليه السلام ، فهو سبط النبيّ ، والسبطية لها مدلولاتها ومؤدّاهـا الخـاصّ ، بـمعنى الامـتداد الشـرعي لذلك النبيّ ، وهذا حديث عقائدي لا أُريد الخوض فيه ، وما يؤكّده قـول رسـول الله ﷺ : **«إبناي هذان إمامان قاما أو قعدا»**[١] .

وقال ﷺ : **«الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة»**[٢] ، وهـذا الحـديث رواه الترمذي وأحمد بن حنبل والحاكم الذي قال : « قد صحّ من أوجه كثيرة ، وأنا أتعجّب أنّهما ـ أي البخاري ومسلم ـ لم يخرجاه »[٣] ، وقال الألباني في تصحيحاته الأخـيرة : « فالحديث صحيح بلا ريب ، بل هو متواتر »[٤] ، والألباني من المعتمدين عند أهـل سنّة الجـماعة والخـلافة ، وقـال ﷺ : **«الحسـن والحسـين ابـناي وريـحانتاي مـن الدنيا»**[٥] ، رواه البخاري في صحيحه ، وروى أيضاً قوله ﷺ : **«اللّـهمّ إنّـي أُحـبّهما فأحبّهما»**[٦] ، وذكر أيضاً في صحيحه قوله ﷺ : **«إنّ ابني هـذا سـيّد ، ولعـلّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين»**[٧] ، وقبل ذلك آية المباهلة التي خـصّ بـها أهـل البيت عليهم السلام .

---

(١) بـحار الأنـوار : ٣٠٧/١٦ ، ١١ ـ بـاب فـضائله وخـصائصه عليه السلام ، و : ٢٧٩/٢١ ، ٣٢ ـ بـاب المباهلة وما ظهر فيها من الدلائل .

(٢) تقدّم في الصفحة ٢٢٥ من هذا الكتاب .

(٣) المستدرك على الصحيحين / الحاكم النيسابوري : ٣٧٦/٣ ، الحـديث ٤٨٣٩ ، ومـن مـناقب الحسن والحسين .

(٤) راجع سلسلة الأحاديث الصحيحة / محمّدناصر الألباني : ٤٣١/٢ ، الحديث ٧٩٦ .

(٥) صحيح البخاري : ٥٤٦/٢ ، باب مناقب الحسن والحسين (رضـي الله عـنهما) ، ولكـن ورد : « هما ريحانتاي في الدنيا » .

(٦) المصدر المتقدّم : الحديث ٣٧٤٧ .

(٧) المصدر المتقدّم : الحديث ٣٧٤٦ .

ظروف الإمام عليّ والإمام الحسن عليهما السلام بين التطابق والاختلاف

لو رجعنا إلى سيرة الإمام الحسن عليه السلام في الكوفة ، فإنّنا نجده كان يطعن في شرعيّة معاوية على الملأ ، وماكان ليفعل ذلك لولا نفوذه وقواعده الجماهيريّة ، بل إنّ معاوية كان يحذر من الدخول في تصعيد سياسي مع الإمام الحسن ، فضلاً عن أن يتمكّن من تصفيته بشكل علني وما أتيح للإمام الحسن عليه السلام من فرصة للطعن في شرعية معاوية بنحو علني متكرّر لم تكن موجودة للإمام عليّ عليه السلام مع أُولئك ، وتلك الفترة كان السائد فيها هو الوضع الحربي المسلّح بالرغم من الاعلان مرّات عديدة عن انحراف معاوية ، إلّا أنّ ذلك لم يكن قد وصل إلى جميع النّاس ، ولم تكن أفعال معاوية قد انكشفت بعدُ للنّاس بصورة جليّة ، وبالرغم من أنّ الإمام عليّ عليه السلام لم يكن يرى شرعيّة الخلفاء بعد النبيّ صلى الله عليه وآله كذلك ، إلّا أنّ المصلحة العامّة للمسلمين لم تسمح له بإعلان المواجهة لحكم من سبقه من الخلفاء ، فلم يكن يعلن المعارضة الساخنة إلّا في فترات قصيرة ومحدودة حسب ما سمحت به الفرصة ، كاحتجاجه عليه السلام مع الزهراء بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وآله أمام الصحابة في مسألة أحقّيته بالخلافة واغتصاب حقوق أهل البيت عليهم السلام وكرفضه لقبول أي منصب في دولة الخلفاء وكشجبة لسيرة الشيخين يوم الشورى بعد موت الثاني ، إذن فصلح الإمام الحسن كان الهدف منه الحفاظ على نفوذه في قواعده الجماهيريّة ، ومن خلال الصلح الذي أقدم عليه استطاع أن يحافظ على التوازن بينه وبين معاوية .

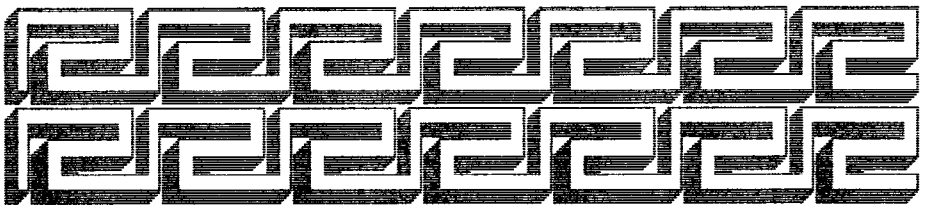

المحاضرة التاسعة

من يقف وراء مخطّطات الارهاب ؟

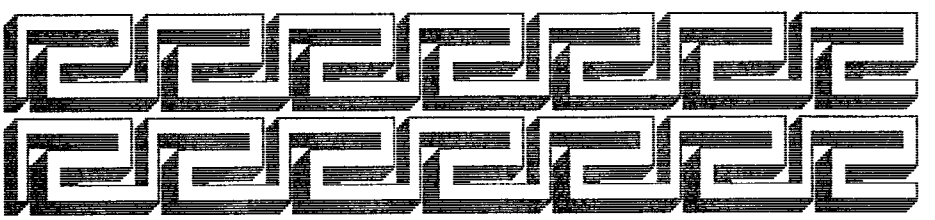

بسم الله الرحمن الرحيم

إرهاب الدولة

التعريف الرابع للإرهاب: «إعمال العنف المسلّح لأهداف سياسيّة أو أيديولوجيّة أو دينيّة باستخدام قنوات العنف المسلّح للتهديد بها»، وبحسب هذا التعريف يكون الراعي له هو الدولة، ولذا يطلق عليه عنف الدولة، أو ما يسمّى بإرهاب الدولة، وقد قسّم البعض الارهاب إلى: إرهاب فردي وإرهاب جماعة أو تنظيم، وقد حاول البعض الاقتصار على هذين القسمين، إلّا أنّ العديد من المحافل الدوليّة قد أصرّت على وجود إرهاب الدولة، ويتضمّن إرهاب دولة لدولة أُخرى أو إرهابها لشعبها، إلّا أن المعسكر الغربي قد أصرّ على حذف هذا النوع من الإرهاب، والسبب واضح في ذلك لأنّهم يمارسون هذا النوع من الإرهاب بشكل خفيّ، وهم يرفضون أن يدرج إرهاب الدولة في تعريف الإرهاب لكي لا يدانوا بالإرهاب، ولكن بحسب التعريف السابق وإطلاقه، فإنّ إرهاب الدولة يكون داخلاً في تعريف الإرهاب؛ ولذا فلم يقيّدوا ولم يستثنوا من هذا التعريف إرهاب الدولة.

الإرهاب والإيديولوجيّة

التعريف الخامس: «أيديولوجيّة وقناعات تبرّر العنف الفتّاك لردع المعارض

السياسي» ، ولو دقّقنا في هذا التعريف نجد أنّ التحيّز فيه واضح من قِبل واضعه ؛ لأنّه يصف أنّ عقيدة ما تبرّر الارهاب ، كأن يعتقد قوم أنّ دولةً أو قوميّة معيّنة يجب أن تباد ، فهذا التعريف يعتبر نفس هذه العقيدة قنبلة ملغومة أو سلاح فتّاك قد ينطلق في أي وقت لإبادة الطرف الآخر ، ومن ثمّ فإنّ هذه الأيديولوجيّة التي تبرّر العنف تجاه الطرف الآخر يطلق عليها إرهاب ، وقد يكون المقصود من الأيديولوجيّة في هذا التعريف هو الدين . وهو تشويه للدين بما تقوم به فئة من قراءة خاطئة باستباحة الدماء للمدنيّين بل وتكفير طوائف المسلمين واستباحة دماؤهم ، فضلاً عن غيرهم ، مع أنّ الدين لا يستبيح دماء الكفّار ابتداءاً ما لم يدخلوا في حرب مع المسلمين ، فضلاً عن من تشهّد بالشهادتين .

وقد وقع نقاش محتدم بين الدول حول تحديد الأُسس القانونيّة لبيان مفهوم الإرهاب ، وحصل الكثير من المغالطات في أروقة الأُمم المتّحدة أو في الفضائيات أو غيرها من وسائل الإعلام في تحديد مفهوم واضح للارهاب ؛ ولهذا نجد أنّ هذه الوسائل أخذت تعمل على إضفاء أجواء غائمة قاتمة حول مفهوم الإرهاب لكي يتسنّى لها إدخال أو إخراج مَن تشاء من هذه الدائرة ، وبالتالي تكون قد ساعدت على عدم وضع النقاط على الحروف في ما هو مشوّش وغامض في تحديد مفهوم الإرهاب .

الإرهاب الصهيوني

لو أردنا أن نحكم على أيديولوجيّة معيّنة بأنّها إرهاب لكانت الأيديولوجيّة اليهوديّة الصهيونيّة هي أكثر الأيديولوجيات إرهاباً في العالم ، وقد تمّ بيان هذا المطلب في المؤتمر الذي عقد مؤخراً في جنوب أفريقيا حول موضوع العنصرية ، وهذا يتجلّى بوضوح من خلال البروتوكولات الصهيونيّة ، أو حتّى في التوراة المحرّفة والتي تدعو اليهود إلى إشاعة الرذيلة والإضطراب والفوضى والاستعباد في المجتمع البشري ،

أي ينبغي للناس أن يكونوا عبيداً للعنصر اليهودي باعتبارهم شعب الله المختار ، والذي يقرأ البروتوكولات الصهيونيّة يستشفّ منها وجود نفسيّة معقّدة حاقدة تقف وراء هذه البروتوكولات ، وأنّها ليست مبنيّة على أُسس عقليّة ومنطقيّة صحيحة ، ولهذا فهم يسعون بشتّى الطرق والوسائل لنشر التحلّل الخلقي وتفشّي الجريمة ، ولذلك نجدهم يقفون وراء التحلّل الأخلاقي في أمريكا وأوروبا .

وقد سجّلت الإحصائيات أنّ أكثر الدول انتشاراً للسطو المسلّح فيها هي فرنسا ، وقد حاولت بعض الدراسات التعرّف على أسباب ذلك ، فكانت النتيجة هي تأثير أفلام الجريمة الأمريكيّة في المجتمع .

الهندوس والبوذيّون والثقافة المنحلّة

لا يختلف اثنان على أنّ لكلّ مجتمع أو فئة أو قوميّة ثقافة خاصّة بها ، ويحاول أن يؤصّل تلك الثقافة في مجتمعه ، ولا يرضى باختراق الثقافات الأُخرى لهذا المجتمع ، بل إنّه قد يفعل كلّ ما في وسعه لمنع مثل هذا الاختراق ، ولا يقتصر ذلك على الثقافة الإسلاميّة ، بل حتّى الهندوس والبوذيّين في الهند واليابان أيضاً ضجّوا خوفاً من اختراق هذه الثقافة المنحلّة إلى مجتمعهم ، وهذه الثقافة تقف وراءها أصابع صهيونيّة وبصمات إسرائيليّة تهدف إلى ترويج الشذوذ الجنسي ، والإجرام ، وعبادة الشيطان ، واختراع الأديان الزائفة ، وتدمير الأديان الأُخرى بكلّ الوسائل لغرض فرض الدين اليهودي على تلك المجتمعات بقبول الاستعباد لشعب الله المختار وهم اليهود .

الإرهاب الصهيوني وتشجيع الغرب له

لنعود إلى ما ذكرنا سابقاً من تعريف الارهاب الذي يصف العقيدة التي تحمل أفكاراً هدّامة ـ لمبادئ وقيم ومعتقدات الدول الأُخرى ـ بأنّها إرهاب ولا بدّ من إدراجها في ضمن قوائم الارهاب ومحاربتها ، ولهذا فنحن نقول لمن وضع

هذا التعريف: لماذا لا تحارب العقيدة اليهوديّة التي تحمل هذه الأفكار الهدّامة، بل إنّ الدول الغربيّة ساندت وشجّعت هذه العقيدة ووقفت لمساندة الكيان الصهيوني بكلّ وقاحة وصلافة وقلّة حياء، وهذا التعريف لا يحتمل الاستثناء حتّى تستثنى تلك العقيدة، بل أكثر من ذلك، فهم يتنكّرون للمبادئ التي يعتقدون بها والشعارات التي يرفعونها ممّا أدى بهم في آخر المطاف إلى الانسحاب من المؤتمر الذي يدين العنصريّة والذي اعتبر الكيان الصهيوني كياناً عنصرياً؟

إذن الأقوياء في العالم يتلاعبون في القوانين من أجل أن يستبدّوا بالضعفاء، لا سيّما إذا كان هؤلاء الضعفاء لا يمتلكون وعياً سياسياً وثقافة قانونيّة.

اتّهام الإسلام بالإرهاب

إذا أردنا تحديد الارهاب وبيان مصاديقه فلا بدّ أن نكون صادقين مع أنفسنا أوّلاً، ثمّ مع النّاس ثانياً، ولا يمكن أن تمتدّ أصابع الاتّهام للإسلام بأنّه يؤيّد الإرهاب ولا تمتدّ هذه الأصابع للرأسماليّة ودول الاستكبار بأنّها مدمّرة لسلام وأمن العالم، سواء كان على المستوى الاقتصادي أو المالي أو الخلقي، والمحاولة الجادّة في تغيير هويات الدول والقوميات المختلفة، ولهذا فهم يكيلون بمكيالين بحيث يطبّقون مصداق التعريف على الإسلام وينكرون انطباقه على الصهيونيّة والأنظمة الغربيّة.

إدارة الارهاب العالمي بين الظهور والخفاء

التعريف السادس: «العمل الإجرامي المصحوب بالرعب والفزع لغاية ما»، وهذا تعريف عامّ يشمل إرهاب الدولة وغيره، ومن أمثلتها الواضحة التي يطلق عليها الآن المافيا الأمنيّة، وهم مجموعة من المرتزقة الدوليّين أو أشرار العالم، الذين لا يحملون هوية ولا مبدأ يحاولون زرع الفتن في العالم وإثارة الحروب بين الدول؛ ولهذا فنحن نتساءل: من الذي يؤسّس هذه المافيا؟ وما هو الغرض من تأسيسها،

وهل هي ظاهرة للنّاس أم غائبة مخفيّة ؟ فإذا كانت غائبة عن الجهاز الأمني فكيف تدّعي أجهزة الأمن الغربيّة أنّها مسيطرة على الوضع الأمني العالمي ، وإذا كانت مطّلعة عليها ومتمكّنة من اختراق هذه المجموعات فلماذا لا تخترقها وتحاول القضاء عليها ؟

ولا تختصّ هذه المافيا بشأن معيّن ، بل لها شبكات متعدّدة تتدخّل بمختلف الشؤون في الدول الأُخرى ، فهناك مافيا اغتيالات ومافيا إجرام لزعزعة الأمن في الدول الأُخرى ، بل إنّ هنالك مافيا إعلاميّة هدفها إرباك الوضع الأمني عبر إذاعة أو فضائية أو برنامج معيّن يضرب على أوتار حسّاسة .

دور الإعلام في تمرير المخطّطات

لا شكّ في أنّ للإعلام دور كبير في تمرير المخطّطات ، فقد تسلّط الأضواء على قضيّة معيّنة بهدف الحصول على مكاسب في قضية أُخرى ، فمثلاً هناك ارتباط بين ضرب البنية التحتيّة في العراق عبر مسرحية طاغية العراق والاعتراف بإسرائيل ، ولذلك فهم يسلّطون الأضواء على جانب معيّن من أجل أن يمرّروا مخطّطاتهم الشيطانيّة في جانب آخر ، والضجّة الإعلاميّة هنا قد تخدم أغراضاً معيّنة هناك ، وقد كشف القرآن ذلك كما في قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ** ﴾[1] .

فإذاعة الأمر هذا يكون على حساب أُمور أُخرى ، ولقد كان الإعلام في السابق مرتبط بنقل الأخبار التي تؤثّر في وضع النّاس ، وأمّا الإعلام الآن فهو مرتبط بالتاريخ ، وبعلم النفس ، والسياسة ، والأمن ، والجانب المالي ، والجانب الاجتماعي ، ويعمل على إجراء غسيل لأدمغة الشعوب وغيرها ، ولهذا فإنّ الإعلام قد يقوم بعملية تلقين

---

(١) سورة النساء : الآية ٨٣.

لشعب ما أنّه شعب متخلّف وليس عنده حضارة ، وعندما يقتنع بأنّه شـعب مـتخلّف سوف يبحث عن التحضّر والتقدّم ، ولكن أين يجد هذا التحضّر ؟ يجده عند الجـهة التي كانت تستخدم الإعلام لإقناعه بأنّه شعب مـتخلّف وتكـون النـتيجة تـبعيّة هـذا الشعب لتلك الجهة ، فيعيش حالة التقهقر والانكسار والتراجع وعدم الثقة في النفس .

الأخبار الكاذبة وتأثيرها على النظام الاجتماعي

قد يكون للخبر الواحد دور كبير في تقلّبات الأسواق العالميّة ، فعندما يكون خبراً واحداً يقلب الأسعار في سوق النفط والأسهم وغـيرها ، ولا يسـتند هـذا الخـبر إلى حقائق بل إلى إشاعات وأوهام ، فإنّ ذلك سـيؤدّي إلى عـدم الاسـتقرار عـلى جـميع الأصعدة ، وهذا ما تسعى له الدوائر الاستكباريّة في العالم ، والقرآن الكريم يحذّر من العمل على نشر الفتن بـين النّـاس ، ويشـدّد عـقوبته فـيقول : ﴿ **وَالْـفِتْنَةُ أَشَـدُّ مِـنَ الْقَتْلِ** ﴾[1] ، فتكون الفتنة الإعلاميّة أشدّ وقعاً من السلاح الحربي ؛ وذلك لأنّ الإنسان موجود ذو شعور وإدراك ، ويتأثّر بالفكر ، وعن طريق الفكر تستطيع أن تغيّر جـميع الاتّجاهات ، بل وتثير الحروب بين النّاس أو توقفها ، وأن تقلب الموازين هنا أو هناك .

ومن خلال هذا كلّه استطاع الغرب أن يؤثّر في المجتمعات الإسلاميّة ، وبالرغم من أنّ العالم الغربي يحتكر التطوّر ، ولا يكشف أسراره ، ولكنّه يصدِّر الرذيلة والتلوّث البيئي والأخلاقي والنفسي إلى مجتمعاتنا ، ومع الأسف فإنّ بعض المتأثّرين بـالفكر الغربي يعيب على الفقه الإسلامي أنّه يحلّل ويحرّم ويتكلّم عـن الطـهارة والنـجاسة وغيرها ، والآن تبيّن أنّ التشريع الإسلامي كان له دور كبير في حفظ المسـلمين مـن الأمراض ، وأنّ لأحكامه دور في المحافظة على البيئة وصحّة المجتمع .

التعريف السابع : « العنف الشديد ضدّ الأبـرياء والمسـالمين » ، وهـذا تـعريف

---

(١) سورة البقرة : الآية ١٩١ .

صحيح ، وقد تكلّمنا عنه آنفاً.

التعريف الثامن : «الاستعمال غير المشروع للقوّة والعنف والعدوان على الأرواح والأموال العامّة والخاصّة ، وأنّه ممهّد لنزاع عنيف يقصد الفاعل بمقتضاه وبواسطته الرغبة الناجمة إلى تغليب رأيه السياسي وسيطرته على الطرف الآخر من مجتمع أو دولة».

وإن كان هذا التعريف لا بأس به ، إلّا أنّه لم يبيّن مناط الشرعيّة وعدمها ، ومن هي الجهة التي تحدّد هذه الشرعيّة ، وعلى أي أُسّس تحدّد هذه الممارسة أو تلك أنّها شرعيّة أو ليست بشرعيّة ، وهل هي سلميّة ومنطقيّة ، أو أنّها إرهابيّة وعدوانيّة.

وقد يكون في الإرهاب الإعلامي أن تحاول الجهة القائمة عليه بممارسة ضغوطاً معيّنة من أجل استمالة أطراف معيّنة ، وقد يحدث هذا في الطائفة الواحدة من أجل تغيير بعض الموازين.

المؤاخذات على التعاريف المتقدّمة

لو رجعنا إلى التعاريف المتقدّمة نجد أنّ هناك مؤاخذتان على هذه التعاريف التي ذكرناها:

المؤاخذة الأُولى: إغفال عنصر الخفاء

إنّ هذه التعاريف قد أغفلت عنصر الخفاء الذي تتقوّم به العمليات الإرهابيّة حيث إنّ العناصر التي تقوم بها تكون مخفيّة وغير معروفة ومن وراءها أصابع مشبوهة ، حتّى لا يتعرّضون للانتقاد والعقوبات الدوليّة ، وهي ليست كالحرب التي يعرف الطرفان المتنازعان فيها ، ولهذا نجد أنّ إغفال عنصر الخفاء من هذه التعاريف جاء متعمّداً حتّى لا تسلّط الأضواء على القوى الكبرى التي تقف وراء العمليات الإرهابيّة في هذا البلد أو ذاك ، فمثلاً: الفتنة الطائفيّة في باكستان من الواضح أنّ هناك أصابع

استكباريّة تعمل من خلف الأستار على إضفاء هذه الفتنة الطائفيّة وتوسيعها التي لا طائل منها سوى تشويه الدين الإسلامي وإظهاره بصورة وحشيّة ، بل أكثر من ذلك ، فهم يعملون على زرع وتأسيس الفكر المتطرّف ، كتأسيس حكومة طالبان وإمدادها بالسلاح والمال لغرض تشويه الإسلام والتشويش على الصحوة الإسلاميّة والإيمانيّة المنادية بتطبيق الإسلام الصحيح المشرق ، وقد انقلب السحر على الساحر ، وتضرّرت أمريكا وحلفاؤها في نهاية الأمر من تأسيس هذه الحركة .

ومن الأمثلة أيضاً على هذا الموضوع هو إثارة النعرات القوميّة للبربر في المغرب العربي ، فنلاحظ أنّ إذاعة الـبي . بي . سي . تفتح ملفّات قديمة عن البربر ، وعن تعليم لغتهم ، وهم بهذا يضربون على أوتار حسّاسة ، ليجنوا الثمار بعد سنين عديدة ، وهذا ما يحدث أيضاً بالنسبة لنزاع الأقباط في مصر مع المسلمين ، وأنّ مصر لا تمتّ للإسلام وأنّها قبطيّة وفي كلّ بلد يشعلون فتنة مدمّرة لكي يضغطوا على جهات معيّنة مستفيدين من تلك الفتنة التي حصلت هنا أو هناك ليحصلوا على مكاسب تخدم مصالحهم في هذه البلدان ، وهذا هو إرهاب الدولة بعينه .

إذن فإغفال عنصر الخفاء يمثّل مماثلة من قِبل القانونيّين إلى الدول التي تمارس الإرهاب .

المؤاخذة الثانية : الميزان في تحديد الإرهاب؟

إنّ استخدام القوّة تارة يكون من أجل حماية النّاس وتوفير الأمن لهم ، وأُخرى من أجل إرهابهم والوصول بهم إلى حالة الخوف ، ولا شكّ في أنّ الحالة الأُولى ممدوحة بخلاف الثانية ، ولذلك فأنّه لا بدّ من استخدام القوّة في بعض الموارد التي تؤدّي إلى حصول الأمن والاستقرار ، وأنّ وجود القوّة الغضبيّة لها حكمة إلـهيّة ، وهي ردع العدوان الذي يحصل من الطرف الآخر ، ولهذا نرى أنّ القرآن الكريم يثني على استخدام القوّة الذي يكون هدفه صدّ الاعتداء وإن سمّاها ارهاباً ، كما في قوله :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَا استَطَعْتُم مِن قُوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَتَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾[1]، وكذلك امتدح القرآن الكريم الرهبان في قوله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارىٰ ذٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[2]، والراهب إنّما سمّي راهباً لأنّه يعيش الرهبة والخوف والخشية من الله تعالى، كما هو أحد وجوه التسمية، ولهذا فليس كلّ ما يسمّى بلفظة الارهاب أو إحدى مشتقاتها يكون مذموماً، بل إنّ الارهاب الذي يصفه القرآن في هذه آيات هو إرهاب ممدوح، ولهذا فمن المسلّم به أنّ هدف القانون الجنائي والجزائي، أو تشريع فقه الحدود والقصاص، هو ردع المعتدي ومن ثمّ السيطرة على شروره، وقطع الطريق أمام أهدافه المدمّرة، فهذا كلّه وإن سمّي إرهاباً إلّا أنّه محمود ويقبله العقل والشرع.

وأمّا الإرهاب المذموم فهو إرهاب العدوان والاستغلال والاستئصال وتجاوز الحدود، وليس منه ما تفعله الآن المقاومة الإسلاميّة ضدّ إسرائيل وإن وصفهم الغرب بذلك لأنّهم يرهبون العدوان الصهيوني ويوقفون عدوانهم.

الضابطة في قبول الإرهاب

الضابطة في قبول الإرهاب أو رفضه هو استعماله آلة للعدوان ولا يفترق في ذلك في الاعتداء على ضحايا أبرياء في المواجهة مع طرف معتدي جائر أو كانت المواجهة من رأس عدوانيّة، فإذا كان الإرهاب متجاوزاً للحدود وعدوانياً كان إرهاباً غير شرعي ومداناً، ويجب التصدّي له، أمّا إذا كان الإرهاب لردع العدوان فهو إرهاب إيجابي، وإذا كان ردّ العدوان بالإرهاب الإعلامي فهو أفضل من الحرب؛ لأنّ الحرب تكون

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٦٠.

(٢) سورة المائدة: الآية ٨٢.

نتيجتها الضحايا والقتلى والخسائر الماديّة والبشريّة.

وكذلك فيما إذا كان الإرهاب لنيل الحقوق المصادرة والمغصوبة بـدون التـعدّي على حقوق الآخرين فهو إرهاب ممدوح ، أمّا إذا كان استخدام الإرهاب للتعدّي على حقوق الغير فهو إرهاب سلبي ، وهذا ما يبيّنه الشهيد محمّدباقر الصدر في كلامه حول مسألة قبح الظلم وحسن العدل ، أي كيف نعرف الظلم ، والظلم ـ كـما يـعرّف ـ هـو تجاوز حدود الآخرين ، والعدل هو أن تستوفي حقوقك مـن دون أن تـتعدّى عـلى حقوق الآخرين.

الرؤية الكونيّة الإلـهيّة والتحضّر الغربي

ذكرنا في البحوث الأُولى في سلسلة بحوثنا أنّ القانون يستند إلى خلفيّة حقوقيّة ، والحقوق تستند إلى خلفيّة أخلاقيّة ، والأخلاق تستند إلى رؤية كونيّة عقائديّة.

فلا يمكن فرض نظرية الحقوق التي تستند إلى رؤية أخـلاقيّة تـرجـع إلى رؤيـة عقائديّة مادية على من يعتقد بالرؤية الكونيّة والعقائديّة الإلـهيّة ؛ لأنّ المـؤمن بـالله يعتقد بأنّ الله هو خالق الكون ، وهو أعلم به من غيره ، كما في قوله تعالى : ﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾[1].

أمّا هؤلاء الماديّين الذين لا يعترفون بالخالق ، ويجعلون الفرد في درجاته النازلة لا في درجاته العالية هو المحور ، ويركّزون على حرّيته التي تـطلق العـنان لغـرائـزه وشهواته ونزواته ، وكذلك الشعار المزيّف الذي يرفعونه وهو شعار تحرير المرأة ، حيث يريدون أن تصبح المرأة سلعة تباع وتشترى ، ولهذا فإنّ الرئيس الأمريكي في أحد خطاباته قال : « سنحرّر العالم الإسلامي من البرقع ، وسنطلق الحقوق الجنسيّة » ، فهو يسمّي إطلاق العنان في الغرائز الجنسيّة حقوقاً ، مع أنّها عبارة عن مجموعة مـن

---

(١) سورة الملك : الآية ١٤ .

الرذائل والسقوط الأخلاقي.

تقويم الإنسان في قواه السامية

لو رجعنا إلى خلقة الإنسان وتقويمه نجد أنّ الله قد جعل القوى السامية للإنسان في أعلاه ، وجعل القوى السافلة في أسفله ، فجعل القوى العقليّة والبصر والسمع والنطق في أعلاه ؛ لأنّها أعلى قوى يستخدمها الإنسان ، وكذلك لشرفها ، وأمّا القوى الشهويّة التي تعدُّ من القوى التي تستخدم في الرذيلة فهي في أسفله ، والغرب بثقافتهم يريدون أن يقلبوا الموازين بحيث يجعلون أسفله أعلاه وأعلاه أسفله.

وحتّى لو قلنا إنّ الفرد هو المحور فلماذا لا نركّز على القوى السامية فيه ، والواقع إنّهم يركّزون على القوى الشهويّة والغضبيّة لا القوى العقليّة والهدف من ذلك واضح.

لا للعبوديّة لا للاستكبار

قال الله تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ** ﴾ ، هذا هو الشعار الذي يرفعه القرآن الكريم ليكون مستنداً يتمّ التعامل به مع الطوائف الأُخرى ؛ لأنّه يحمل روح التسامح مع الآخرين ، بل هو يوضّح الطريق الذي لا بدّ من سلوكه ، ولكنّ الاستكبار العالمي ـ الذي يتعامل مع الآخرين تعامل العبيد الذين تجب عليهم طاعته ـ يرفع شعارات الاحتقار والتكبّر والظلم ، ولهذا فعند عدم الاحتكام إلى العقل لا بدّ من التوقّف عن التعامل معهم ، ولذا نجد القرآن يقول في تكملة الآية: ﴿ **فَإِن تَوَلَّوا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾[1] ، أي إنّنا نسلّم أنّ الكبرياء لله ، والعظمة لله ، والحاكميّة لله ، والتشريع لله ، وأنّ الملك لله ، والخلق عبيده ، ولا يمكن تحقيق العدالة في

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٦٤.

كلّ جوانبها ، سواءً الاقتصاديّة أو القانونيّة أو السياسيّة ، إلّا إذا جعلنا المحور هـو الله تعالى ، وأمّا إذا أصبحت الربوبيّة والألوهيّة والملك والعظمة للجانب البشري فهنا تقع الكارثة ، وتدبّ الفتن بين الناس ، وأمّا إذا تركنا الأمر لتحديد الحدود بيد البشر ، فإنّ كلّ جهة ستعمل على تحقيق مصالحها ، كما هو حاصل الآن في اسـتخدام مـصطلح الإرهاب لمحاربة جهات تجاهد من أجل تحرير أراضيها ، بينما يتوقّفون عن إطلاق هذا المصطلح ضدّ المحتل العدواني ، فهذا هو بعينه المنطق التعسّفي .

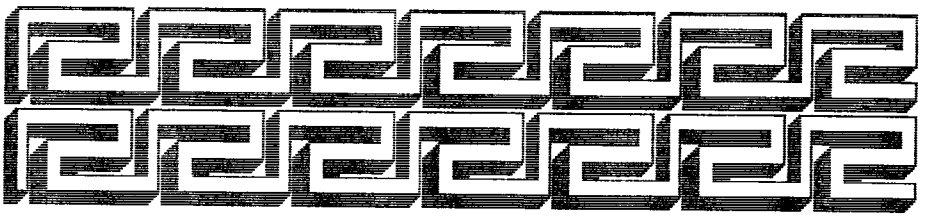

المحاضرة العاشرة

الحسين اختار الشهادة ولم يرضخ للارهاب

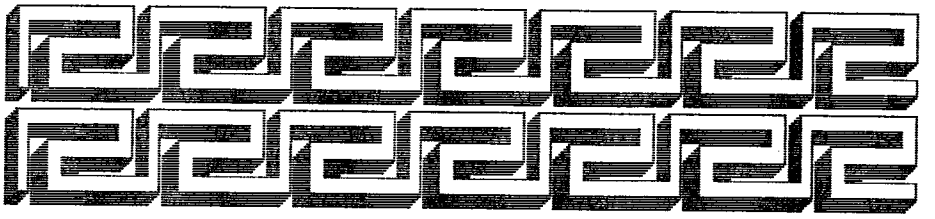

بسم الله الرحمن الرحيم

من رضي بعمل قوم أُشركَ معهم

نعزّي سيّد المرسلين صلى الله عليه وآله في مصيبة ولده الإمام الحسين عليه السلام ، ونتبرّأ ممّن قتله وظلمه وانتهك حرمته ، وبعد فإنّ هناك حقيقة قرآنيّة يخاطب الله بها اليهود الذين عاصروا النبيّ صلى الله عليه وآله ، ويحمّلهم ما اقترفه آباؤهم قبل عدة قرون ، فنلاحظ ذلك في سورة البقرة ، حيث وصفهم القرآن الكريم بأنّهم ممّن عمل على قتل الأنبياء ، وتحريف الكتاب ، وإعانة الظالمين ، وقد علّل أهل البيت عليهم السلام وتبعهم المفسّرون هذا الخطاب بأنّ الجيل الذي عاصر النبيّ صلى الله عليه وآله كان مقرّاً وراضٍ عمّا فعله أسلافه في تلك القرون ، ولهذا فإنّ الغضب الإلهي كان شديداً على اليهود الذين عاصروا النبيّ صلى الله عليه وآله وكأنّهم هم أُولئك الذين اقترفوا تلك الجرائم في العهود السابقة.

وضوح الموقف تجاه الحقّ والباطل

لا تزال كربلاء المعلّم الذي يتّضح فيه كلّ شيء ، ونتعلّم من خلاله الدروس والعبر ، فمنه تعلّمنا كيف نقف مع الحقّ ، وأن نتبرّأ من الباطل ، وكيف نوالي الحقّ ونسانده ونحبّه ؛ لأنّه منطق العدل والعقل ، ومن هذا المنطلق يجب على الأُمّة الإسلاميّة أن تتبرّأ ممّا فعله بنو أُميّة من جرائم وفظائع وظلم لأهل البيت عليهم السلام ، وأنّ توالي

سيّد الشهداء عليه السلام ؛ لأنّ موقفها هـذا هـو بـمثابة الحـضور فـي سـاحة كـربلاء لنـصرة الحسين ، أمّا الرضا بقتله فهو بمثابة الحضور في كربلاء لمقاتلة سيّد الشهداء عليه السلام .

أسباب الارهاب في النصوص الدوليّة

ذكروا في النصوص الدوليّة أنّ الارهاب المنتشر في العالم اليوم إنّما هو وليد أسباب حصلت في المجتمعات أدّت إلى ظهور الارهاب ، ولم يكن وليـد الصـدفة ، حـيث ذكروا من هذه الأسباب :

١ ـ عدم احترام حقوق الإنسان والحريات الأساسيّة .

٢ ـ عدم احترام حقوق الطوائف والأقلّيات .

٣ ـ عدم الإقرار بحقّ الشعوب في تقرير مصيرها .

٤ ـ التمييز العنصري والطائفي .

٥ ـ العدوان على شعوب العالم الثالث .

٦ ـ التدخّل في الشؤون الداخليّة للدول المتحرّرة من قِبل الدول العظمى .

٧ ـ احتلال الأراضي .

معالجة أسباب الإرهاب

بعد معرفة أسباب الارهاب فلا بدّ من مـعالجتها أوّلاً حـتّى يكـون بـاستطاعة العـالم القضاء على هذه الظاهرة ، ولقد أحسنت إحدى الدول الإسلاميّة عندما نصحت الدول الكبرى بأنّ معالجة الإرهاب إنّما تتمّ بمعالجة أسبابه لا بالتصدّي لآثاره ؛ لأنّ هذه الآثار إنّما هي ردود فعل لتلك الأسباب ، فبمعالجة الأسباب تحلّ تلك الظاهرة ، ولا يمكن حلّها بالحروب ؛ لأنّ هذا لن يحلّ المشكـلة ، بـل الحـلّ يكـمن فـي إعـطاء كـلّ ذي حقّ حقّه .

عدم الرضوخ للإرهاب

لقد أعطانا الإمام الحسين عليه السلام درساً في الصمود في ميدان المطالبة بالحقّ مهما بلغ بطش الطغاة ، قال عليه السلام : «**أَلَا وَإِنَّ الدَّعِيَّ ابْنَ الدَّعِي قَدْ رَكَزَ بَيْنَ اثْنَتَيْنِ: بَيْنَ السِّلَّةِ وَالذِّلَّةِ ، وَهَيْهاتَ مِنَّا الذِّلَّةُ ، يَأْبَى اللهُ لَنا ذٰلِكَ وَرَسُولُهُ**»(١) ، فبالرغم من أنّ الطاغية قد جعل له خيارين لا ثالث لهما ، وهما: إمّا الخضوع والذلّ والاستسلام ، وإمّا القتال والاستشهاد ، فاختار الإمام عليه السلام المنازلة والقتال وإن لم يبتدء بها ، ورفض الخضوع أمام القوّة والتهديد ، وهذا هو الدرس المستفاد من عاشوراء ، حيث علّمنا على عدم الاستسلام لبغي وبطش الدول الكبرى على حساب المبادئ والقيم ، والالتزام بالخط الإلـهي العظيم .

وحينئذٍ تكون مجابهة القوّة بالقوّة مجابهة مشروعة ، ولكن تبقى مع الالتزام بكلّ الضوابط والحدود الشرعيّة ، ولهذا كان الإمام الحسين عليه السلام له حدود لا يخرج عنها ، وموازين لا يتعدّاها ، وهي الموازين الشرعيّة الإسلاميّة . فلم يكن منهاجه أنّ الغاية تبرّر الوسيلة ، بل سنّ لنا سنّة هي أنّ الغاية تحدّد الوسيلة ، فلم يبدأ بالعنف رغم طغيان خصمه وجبروته وغاشميّته ولم يقطع لغة الحوار وبعدما بدأ خصمه بالبطش واجهه بالصمود والثبات الراسخ الذي أحبط وخيّب مكيدة الخصم وكشف ادّعائه الجاهلي لدى المسلمين .

تطابق المواقف بين النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام الحسين عليه السلام

لقد كان أصحاب الحسين في ليلة عاشوراء مستعدّين لتلك المواجهة الصعبة التي

---

(١) بحار الأنوار : ٤٥ /٨٣ ، ٣٧ ـ باب ما جرى عليه بعد بيعة النّاس ليزيد إلى شهادته ، الحديث ١٠ .

سوف تحصل صبيحة الغد ؟ وكذلك إصرارهم على نصرة سيّد الشهداء مع أنّ الحسين عليه السلام قد برأ ذمّتهم ، وجوّز لهم الانصراف ، وحينها سيكون وحده يواجه هذا الجيش الجرّار ، وكلّ ذلك لم يمنعهم من بذل الغالي والنفيس في هذه المعركة ، وبالرغم من حصول الإذن من الإمام عليه السلام لأصحابه بتركه لأنّه كان المكلّف والمأمور بقتال هؤلاء العتاة ، كما أمر اللهُ النبيّ أن يجاهد الكفّار حتّى لو وصل به الأمر أن يبقى لوحده في الميدان ، قال تعالى : ﴿ **فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ** ﴾[1] .

فالحسين عليه السلام كان مستعدّاً للقتال حتّى لو بقي وحيداً ، وهذا يدلّل على أنّ موقف الحسين في قتال بني أُميّة كان يضاهي ويماثل موقف النبيّ في قتال الكفّار ، وهذا الموقف لم يكن مأموراً به الإمام عليّ عليه السلام ؛ لأنّ وظيفة الإمام عليّ عليه السلام ، وكذلك الإمام الحسن عليه السلام هو أن يستنصر المسلمين في قتال أعدائه ، فإن نصروه جاهدهم ، وإن لم يفعلوا فلا يبقى وحيداً في الميدان ، ويسقط بذلك عنه التكليف ، أمّا الإمام الحسين فوظيفته الشرعيّة كانت تلزمه ذلك ، ولو استلزم الأمر أن يكون لوحده كما أمر الله نبيّه صلى الله عليه وآله في الآية الآنفة الذكر .

عمالقة كربلاء بين الموقف والاختبار

هكذا ثبت الإمام الحسين وثبت معه أهل بيته وأصحابه ، ولا عجب في ذلك وكان الحسين قد ورث الشجاعة من جدّه صلى الله عليه وآله الذي يصفه الإمام عليّ عليه السلام بما معناه : « **كنّا إذا حمي الوطيس نلوذ برسول الله** »[2] فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله : « **أمّا الحسن فإنّ له هيبتي**

---

(١) سورة النساء : الآية ٨٤ .

(٢) ورد : « **كنّا إذا اشتدّ البأس، وحمى الوطيس اتّقينا برسول الله** » ـ راجع شرح نهج البلاغة : ١٩٢/١٣ ، في إسلام أبي بكر وعليّ عليه السلام . البداية والنهاية / ابن كثير : ٤٢/٦ ، باب ذكر أخلاقه وشمائله الطاهرة ، ولكنّها خالية من « وحمى الوطيس » .

وسؤددي ، وأمّا الحسين فإنّ له شجاعتي وجودي »[١]. والملفت في سيرة سيّد الشهداء عليه السلام أنّه قام بغربلة أصحابه واختبارهم منذ خروجه من مكّة المكرّمة ، وهذا ما كان يثير قلقاً عند الحوراء زينب عليها السلام حين قالت له في كربلاء : « يا أبا عبدالله ، هل اختبرت نيّة أصحابك ، إنّي أخاف أن يسلموك عند الوثبة »[٢] ، ولكنّ الحسين كان مطمئناً من وقوف هؤلاء الأبطال في هذا الزلزال الرهيب موقف الجبال الرواسي في الريح العاصف ، وإن كانت المهمة صعبة إلّا أنّ كربلاء كانت لا ترضى إلّا أن يكون أبطالها عمالقة في الإنسانيّة ، وقمم في الفضيلة .

ولذلك لا تجد باحثاً أخلاقياً ولا باحثاً قانونياً يستطيع أن يسجّل مخالفة أخلاقيّة أو قانونيّة ارتكبها الإمام الحسين رغم صعوبة الظروف وشدّة الموقف .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين

وصلى الله على محمّد وآله الطيبيّن الطاهرين

---

(١) بحار الأنوار : ٤٣/٢٦٣ ، ١٢ ـ باب فضائلهما ، ومناقبهما ، والنصوص عليهما ، الحديث ١٠ . الخصال : ٧٧ ، الحديث ١١٢ ، نحل النبيّ صلى الله عليه وآله الحسن عليه السلام والحسين خصلتين ، مع اختلاف يسير .

(٢) ورد : « هل استعلمت من أصابك نيّاتهم ، فإنّي أخشى أن يسلموك عند الوثبة » ـ راجع مقتل الحسين عليه السلام / المقرّم : ٢٢٦ ، ليلة عاشوراء.

المصادر

١ ـ الاختصاص

الشيخ المفيد = محمّد بن محمّد بن النعمان (ت٤١٣هـ) : الناشر : مؤتمر الشيخ المفيد ـ قم المقدّسة ، الطبعة الأُولى /١٤١٣هـ .

٢ ـ الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد

الشيخ المفيد ، أبو عبدالله محمّد بن محمّد النعمان العكبري البغدادي (ت ٤١٣هـ) : الناشر : مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ، الطبعة الثامنة /١٤١٦هـ .

٣ ـ أُصول الكافي

محمّد بن يعقوب الكليني الرازي (٣٢٨ ـ ٣٢٩هـ): الناشر: دار الأُسوة للطباعة والنشر ـ قم المقدّسة ، الطبعة الأُولى /١٣٧٦هـ . ش ـ ١٤١٨هـ . ق .

٤ ـ الأُصول العامّة للفقه المقارن

آية الله السيّد محمّدتقي الحكيم : الناشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم المقدّسة ، الطبعة الثانية /١٣٩٠هـ . ق .

٥ ـ اعلام الورى

أمين الإسلام الشيخ أبوعليّ الفضل بن الحسن الطبرسي (ت٥٤٨هـ) : نشر وتحقيق : مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم المقدّسة ، الطبعة الأُولى /١٤١٧هـ .

٦ـ الأمالي

الصدوق، أبي جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن موسى بن بابويه القمّي (ت ٣٨١هـ): الناشر: مؤسّسة البعثة، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميّة، الطبعة الأُولى /١٤١٧هـ

٧ـ الأمالي

الطوسي، أبي جعفر محمّد بن الحسن (ت ٤٦٠هـ): الناشر: دار الثقافة ـ قم المقدّسة، تحقيق: قسم الدراسات الإسلاميّة، مؤسّسة البعثة، الطبعة الأُولى /١٤١٤هـ

٨ـ بحار الأنوار

العلّامة المجلسي ، محمّد باقر (ت١١١٠هـ . ق) : الناشر : مؤسّسة الوفاء ـ بيروت ، الطبعة الرابعة / ١٤٠٤هـ .

٩ـ البداية والنهاية

الحافظ ابن أبي الفداء =إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤هـ) : تحقيق: علي شيري ، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، الطبعة الأُولى /١٤٠٨هـ . ق ـ ١٩٨٨م .

١٠ـ تاريخ دمشق

ابن عساكر، الحافظ أبي القاسم عليّ بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله الشافعي (ت ٥٧١)، تحقيق: علي شيري، الناشر: دار الفكر ـ بيروت /١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

١١ـ تاريخ الطبري (المعروف بتاريخ الأُمم والملوك)

أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ): تحقيق: الأُستاذ عبدالله عليّ مهنّا ، الناشر: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ، الطبعة الأُولى /١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م .

١٢ـ تاريخ اليعقوبي

أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح الكاتب العبّاسي (ت ٢٩٢هـ) : تحقيق عبدالأمير مهنّا ، الناشر : مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت ، الطبعة الأُولى ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م .

١٣ ـ تحف العقول عن آل الرسول

الشيخ الأقدم أبو محمّد = الحسن بن عليّ بن الحسين بن شعبة الحرّاني (من أعلام القرن الرابع الهجري): الناشر: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ، الطبعة السادسة / ١٤١٧هـ . ـ ١٩٨٨م .

١٤ ـ تذكرة الموضوعات

الفتني، طاهر بن عليّ الهندي (ت ٩٨٦هـ).

١٥ ـ تفسير ابن كثير (المعروف بتفسير القرآن العظيم)

الإمام الحافظ عماد الدين بن أبي الفداء = إسماعيل بن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) : الناشر : دار الكتب العلميّة ـ بيروت ، الطبعة الأُولى / ١٤١٩هـ ـ ١٩٨٨م .

١٦ ـ تفسير القرطبي (المعروف بالجامع لأحكام القرآن)

أبو عبدالله = محمّد بن أحمد الأنصاري القرطبي : تحقيق : محمّد جعفر شمس الدين ، الناشر : دار الفكر ـ بيروت / ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م .

١٧ ـ تفسير القمّي

أبو الحسن عليّ بن إبراهيم بن هاشم القمّي (من أعلام القرن الثالث الهجري) : الناشر: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ، الطبعة الأُولى / ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م .

١٨ ـ تفسير مجمع البيان

أمين الإسلام أبي عليّ الفضل بن الحسن الطبرسي (من أعلام القرن السادس الهجري) : الناشر : مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت ، الطبعة الأُولى / ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م .

١٩ ـ التوحيد

الصدوق = أبوجعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي (ت ٣٨١هـ) : تحقيق : السيّد هاشم الحسني الطهراني ، الناشر : مؤسّسة النشر التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم المقدّسة ، الطبعة الثامنة /١٤٢٣هـ .

٢٠ ـ تهذيب الأحكام

شيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ): الناشر: دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت /١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م .

٢١ ـ تهذيب الكمال

المزّي = جمال الدين أبي الحجّاج يوسف (ت ٧٤٢هـ) : تحقيق د . بشّار عوّاد معروف ، الناشر : مؤسّسة الرسالة ـ بيروت ، الطبعة الأُولى /١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م .

٢٢ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن (المعروف بتفسير الطبري)

أبو جعفر محمّد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) : تحقيق : د . عبدالله بن عبدالمحسن التركي ، الناشر : هجر للطباعة والنشر ، الطبعة الأُولى /١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م .

٢٣ ـ جامع السعادات

الشيخ محمّد مهدي النراقي (ت١٢٠٩هـ): الناشر: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ، الطبعة السابعة /١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م .

٢٤ ـ الخصال

الشيخ الصدوق = أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي (٣٨١هـ): الناشر: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت ، تحقيق: علي أكبر الغفّاري ، الطبعة الأُولى /١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م .

٢٥ ـ الدرّ المنثور في التفسير بالمأثور

الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ) : الناشر : دار إحياء التراث العربي - بيروت ، الطبعة الأُولى /١٤٢١هـ-٢٠٠١م .

٢٦ - رجال الكشّي

شيخ الطائفة أبي جعفر محمّد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ) : الناشر : وزارة الثقافة والإرشاد -طهران الطبعة الأُولى /١٣٨٢هـ . ش .

٢٧ - سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها

محمّد ناصر الدين الألباني: الناشر: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع -الرباط /١٤١٥هـ -١٩٩٥م .

٢٨ - سنن ابن ماجه بشرح السندي :

تحقيق : الشيخ خليل مأمون شيحا ، الناشر : دار المعرفة -بيروت ، الطبعةالثانية / ١٤١٨هـ-١٩٩٥م .

٢٩ - سنن أبي داود

أبو داود، سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥هـ): تحقيق: سعيد محمّد اللحّام، الناشر: دار الفكر -بيروت، الطبعة الأُولى /١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

٣٠ - السنن الكبرى

الإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن عليّ البيهقي (ت٤٥٨هـ): الناشر: مكتبة المعارف -الرياض ، الطبعة الأُولى /١٣٥٦هـ . ق .

٣١ - شرح نهج البلاغة

عزّ الدين أبي حامد عبدالحميد بن هبة الله المدائني (الشهير بابن أبي الحديد المعتزلي) (ت٦٥٦هـ): الناشر: مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات -بيروت ، الطبعة الأُولى /١٤١٩هـ-١٩٩٩م .

٣٢ـ صحيح البخاري

الحافظ أبو عبدالله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي (ت ٢٥٦هـ) : الناشر : دار المنار /١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م .

٣٣ـ صحيح الترمذي

أبو الفتوح = عبدالله بن عبدالقادر التليدي الحسني الطبخي: الناشر: دار المعرفة ـ الدار البيضاء .

٣٤ـ صحيح مسلم بشرح النووي

تحقيق : الشيخ خليل مأمون شيحا ، الناشر : دار المعرفة ـ بيروت ، الطبعة الثامنة / ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م .

٣٥ـ الضعفاء الكبير

أبو جعفر = محمّد بن عمرو بن موسى بن حمّاد العقيلي المكّي : تحقيق : د . عبدالمعطي أمين قلعجي ، الناشر : دار الكتب العلميّة ـ بيروت، الطبعة الثانية / ١٤١٨هـ . ١٩٩٨م .

٣٦ـ علل الشرائع

الشيخ الصدوق = أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي (ت ٣٨١هـ) : الناشر : مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، الطبعة الأُولى /١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .

٣٧ـ عوالي اللآلي

ابن جمهور الاحسائي (من علماء القرن العاشر الهجري) : تحقيق : الحاج آقا مجتبى العراقي ، الطبعة الأُولى /١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٣م .

٣٨ـ غرر الحكم ودرر الكلم

الآمدي = عبدالواحد بن محمّد التميمي : الناشر : مكتبة الإعلام الإسلامي ـ قم

المقدّسة، الطبعة الأُولى /١٣٦٦هـ .

٣٩ ـ الفتح القدير

الشوكاني، محمّد بن عليّ بن محمّد (ت ١٢٥٠هـ): الناشر: عالم الكتب ـ بيروت.

٤٠ ـ فروع الكافي

الشيخ محمّد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٨ـ٣٢٩هـ): تحقيق: محمّد جعفر شمس الدين ، الناشر: دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت /١٤١٣هـ ـ ١٩٩٢م .

٤١ ـ الكافي

ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب الكليني (ت٣٢٨ـ٣٢٩هـ) :الناشر : دار الأُسوة للطباعة والنشر ـ طهران ، الطبعة الأُولى /١٣٧٦هـ .

٤٢ ـ كامل الزيارات

الشيخ أبو القاسم جعفر بن محمّد بن قولويه القمّي (ت٣٦٨هـ): نشر وتحقيق: مؤسّسة نشر الفقاهة ـ قم المقدّسة .

٤٣ ـ كشف الخفاء ومزيل الالتباس

العجلوني الجراحي (ت ١١٦٢هـ): الناشر: دار الكتب العلميّة ـ بيروت، الطبعة الثالثة /١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

٤٤ ـ كتاب المجروحين

ابن حبّان = محمّد بن حبّان بن أحمد بن حاتم التميمي البستي (ت٣٤٥هـ) : تحقيق : محمود إبراهيم زايد ، الناشر : دار الباز للنشر ـ مكّة المكرّمة .

٤٥ ـ كفاية الطالب في مناقب عليّ بن أبي طالب

أبو عبدالله محمّد بن يوسف بن محمّد القرشي الكنجي الشافعي (ت٦٥٨هـ) : تحقيق: محمّد هادي الأميني ، الناشر: دار إحياء تراث أهل البيت عليهم السلام ـ طهران ، الطبعة

الثالثة/١٤٠٤هـ . ق ـ ١٣٦٢هـ . ش .

٤٦ ـ كمال الدين وتمام النعمة

الشيخ الصدوق = محمّد بن عليّ بن الحسين ابن بابويه القمّي (ت٣٨١هـ) : الناشر : مؤسّسة الأعملي للمطبوعات بيروت ، الطبعة الأُولى / ١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م .

٤٧ ـ لسان العرب

الإمام العلّامة ابن منظور (ت٧١١هـ) : تحقيق : عليّ شيري ، الناشر : دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، الطبعة الأُولى / ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م .

٤٨ ـ لسان الميزان

شهاب الدين = أحمد بن عليّ بن محمّد بن محمّد بن عليّ بن أحمد، الشهير بابن حجر العسقلاني (ت٨٥٢هـ) : تحقيق : مكتب التحقيق بإشراف محمّد عبدالرحمن المرعشلي ، الناشر : دار إحياء التراث العربي ـ مؤسّسة التاريخ العربي ـ بيروت ، الطبعة الأُولى / ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٥م .

٤٩ ـ اللهوف على قتلى الطفوف

السيّد عليّ بن طاووس الحلّي (ت٦٦٤هـ): الناشر: دار العالم (جهان) ـ طهران / ١٣٤٨هـ . ش .

٥٠ ـ مثير الأحزان

ابن نما الحلّي (ت٦٤٥هـ) : : الناشر : مدرسة الإمام المهدي (عج) ـ قم المقدّسة / ١٤٠٦هـ .

٥١ ـ مجمع الأفكار

الميرزا هاشم الآملي (ت١٤١٣هـ): الناشر: المطبعة العلميّة ـ قم المقدّسة ، المقرّر: إسماعيل بورشهررضائي / ١٣٩٥هـ .

٥٢ ـ مختصر بصائر الدرجات

الحلّي، أبو محمّد الحسن بن سليمان بن محمّد بن خالد (من أعلام القرن الثامن الهجري): الناشر: دار المفيد ـ بيروت، الطبعة الأُولى /١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

٥٣ ـ مجمع الزوائد ومنبع الفوائد

الهيثمي = عليّ بن أبي بكر نور الدين (ت ٨٠٧هـ) : تحقيق : عبدالله محمّد الدرويس ، الناشر : دار الفكر ـ بيروت /١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م .

٥٤ ـ مروج الذهب

المسعودي = أبو الحسن عليّ بن الحسين (ت٣٤٦هـ) : تحقيق : عبدالأمير مهنّا ، نشر مؤسّسة الأعلمي ـ بيروت ، الطبعة الأُولى /١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .

٥٥ ـ المستدرك على الصحيحين

الحافظ عبدالله محمّد بن عبدالله النيسابوري (المعروف بالحاكم): تحقيق: د . محمود مطرجي ، الناشر: دار الفكر ـ بيروت ، الطبعة الأُولى /١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م .

٥٦ ـ مستدرك الوسائل

الحاج ميرزا حسين النوري الطبرسي (ت١٣٢٠هـ .): نشر وتحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم المقدّسة ، الطبعة الأُولى /١٤٠٧هـ .

٥٧ ـ مسند أحمد

الإمام أحمد بن حنبل (ت٢٤١هـ) : الناشر : دار صادر ـ بيروت .

٥٨ ـ المصباح

الكفعمي = إبراهيم بن عليّ (ت ٩٠٥هـ) : الناشر : دار الرضي (الزاهدي) ـ قم المقدّسة /١٤٠٥هـ .

٥٩ ـ مصباح المتهجّد

الشيخ الطوسي =أبو جعفر محمّد بن الحسن (ت٤٦٠هـ) : الناشر : مؤسّسة فقه الشيعة ـ بيروت، الطبعة الأُولى /١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .

٦٠ ـ المصباح المنير

الفيّومي =أحمد بن محمّد بن عليّ المقري (ت٧٧٠هـ) : الناشر : دار الفكر ـ بيروت .

٦١ ـ معاني الأخبار

الشيخ الصدوق =أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه (ت٣٨١هـ): الناشر: مؤسّسة الأعملي للمطبوعات ـ بيروت ، الطبعة الأُولى /١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م .

٦٢ ـ المفردات في غريب القرآن

الراغب الاصفهاني =أبو القاسم الحسين بن محمّد (ت٥٠٢هـ) : تحقيق : محمّد خليل عتياني ، الناشر : دار المعرفة ـ بيروت ، الطبعة الثانية /١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

٦٣ ـ مكارم الأخلاق

الطبرسي، رضي الدين أبي نصر الحسن بن الفضل (من أعلام القرن السادس الهجري): الناشر: مواسّسة الأعلمي ـ بيروت، الطبعة الأُولى /١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٦٤ ـ مقتل الحسين

العلّامة السيّد عبدالرزاق المقرّم: الناشر: آل عليّ ٧ ، الطبعة الأُولى /١٤٢٤هـ . ق ـ ١٣٨٢هـ . ش .

٦٥ ـ مناقب آل أبي طالب

أبو جعفر =محمّد بن عليّ بن شهرآشوب السروي المازندراني: الناشر: دار الأضواء ـ بيروت ، الطبعة الثانية /١٤١٢هـ ـ ١٩٩١م .

٦٦ ـ من لا يحضره الفقيه

الشيخ الصدوق =أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي (ت٣٨١هـ): تحقيق: محمّد جعفر شمس الدين ، الناشر: دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت /١٤١١هـ ـ ١٩٩١م .

٦٧ ـ ميزان الاعتدال

الذهبي =أبو عبدالله محمّد بن أحمد بن عثمان (ت٧٤٨هـ) : تحقيق : عليّ محمّد البجاوي ، الناشر : دار الفكر ـ بيروت .

٦٨ ـ الميزان في تفسير القرآن

العلّامة السيّد محمّدحسين الطباطبائي: الناشر: مؤسّسة الأعملي للمطبوعات ـ بيروت ، الطبعة الأُولى /١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م .

٦٩ ـ نهج البلاغة (ما جمعه الشريف الرضي من كلام أمير المؤمنين عليه السلام)

تحقيق: د . صبحي الصالح ، الناشر: منشورات دار الهجرة ـ قم المقدّسة ، الطبعة الخامسة .

٧٠ ـ وسائل الشيعة

الحرّ العاملي =محمّد بن الحسن (ت ١١٠٤هـ) : نشر وتحقيق مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ، الطبعة الأُولى /١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م .

المحتويات

الإهداء ٥

المقدّمة ٧

الحداثة بين النظريّة والتطبيق

المحاضرة الأُولى: الفرق بين الشريعة والدين ١١

الشريعة والدين والفرق بينهما ١٣

الدين الإسلامي خالد ١٤

المجتمعات العلمانية بين قبول الدين ورفضه ١٤

الدين واحد والشرائع متعدّدة ١٥

النسخ يقع في الشرائع دون العقائد ١٧

شواهد قرآنيّة على وحدة الدين ١٩

الشريعة والدين وقضية الغدير ٢٠

آية المودّة وقضيّة الإمامة ٢١

المحاضرة الثانية: المدارس الغربية الحديثة التي واجهت الكنيسة ٢٣

نشأة العلمانيّة والحداثويات ٢٥

الأُولى: السكولارزم *Secularism* ٢٧

الثانية: مدرسة البلوراليسم *Pluralism* ٢٧

المدرسة الثالثة: المدرسة الهرمونطيقا *Hermenutics* ٢٩

الأثر الإيجابي للمدرسة الهرمونطيقا على النقد الأدبي ٣٠

المحاضرة الثالثة: إثارات العلمانيّين الغربيّين حول الإسلام ٣٣

المحاضرة الرابعة: مناقشة آراء مدرسة البلوراليسم ٤٣
مدرسة البلوراليسم بين الاتّفاق والاختلاف ٤٥
الردّ على هذه الشبهة ٤٦
العقل الجماعي ومفهوم الشورى الصحيح في الإسلام ٤٧
مفاتيح العلوم عند النبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله ٤٩
حقيقة الكتاب المبين ٥٠
المحاضرة الخامسة: مناقشة مدرسة السكولارزم ٥٣
مدرسة السكولارزم نقد وتحليل ٥٥
الشبهة التي يطرحونها ٥٧
الجواب الأوّل ٥٨
الجواب الثاني ٦٠
المحاضرة السادسة: الإمام يطبّق الشريعة على المتغيّرات ٦١
مجهولات العلوم وحلولها ٦٣
الإمام عنده علم تأويل الكتاب ٦٤
أين يوجد الإمام المهدي؟ ٦٥
اختلاف أنماط الحكومات وأهمّية الأجهزة السريّة ٦٦
لا يمكن الاكتفاء بظاهر اللفظ القرآني ٦٩
أهل البيت عليهم السلام والعلم اللدني ٧٠
المحاضرة السابعة: مناقشة مدرسة الهرمونطيقا ٧٣
الإشكال الأوّل: تأخّر القضاء الإسلامي واعتماده على البيّنة واليمين ٧٥
الإشكال الثاني: القبيلة والعصبة ودور الإسلام في المحافظة عليها ٧٦
المدرسة الهرمونطيقا (قراءة النصّ) ٧٧
نشأة النقد الأدبي ٧٧
التعمّق في النصّ الأدبي يوازي التأويل في النصّ الديني ٧٨

تطوّر علم الفقه ٧٨
تعدّد القراءات بين القبول والرفض ٧٩
سورة الفاتحة وبيان صرط الحقّ ٨١
المحاضرة الثامنة: المنهج الحضاري عند أهل البيت عليهم السلام ٨٥
مقامات أهل البيت عليهم السلام ٨٧
الإصلاح عند أهل البيت عليهم السلام ٨٩
العصمة العلميّة والعمليّة عند أهل البيت عليهم السلام ٩٢
مقوّمات المدنيّة والحضارة ٩٤
الإمام الحسين عليه السلام والنداء الحضاري ٩٧
المحاضرة التاسعة: السنن الإلهيّة في الرثاء الحسيني ١٠١
تاريخ الرثاء الحسيني ١٠٣
الرثاء الحسيني في البيت النبويّ ١٠٤
السنن الإلهيّة في رثاء الحسين عليه السلام ١٠٥
البكاء على الحسين عليه السلام سنّة إلهيّة تكوينيّة ١٠٦
الرثاء الحسيني سنّة إلهيّة تشريعيّة ١٠٨
أحكام المودّة ١٠٩
خلاصة القول ١١٠
أدب الرثاء في القرآن الكريم ١١٢

العولمة.. أسبابها ومقوّماتها

المحاضرة الأُولى: الموقف من أحداث التاريخ وشخصيّاته ١١٩
التاريخ في نطاق المحاكمة ١٢١
سنّة الرثاء في القرآن الكريم ١٢١
البدريّون في نظر القرآن الكريم ١٢٣

مفهوم اللعن في القرآن الكريم ١٢٤
الأحداث التاريخيّة بين المحاكمة والتحليل ١٢٥
الأحداث التاريخيّة بين القبول والرفض ١٢٧
المحاضرة الثانية: إشكالات حول الشعائر الحسينيّة ١٢٩
إشكالات حول إحياء الشعائر الحسينيّة ١٣١
العولمة وتباين الثقافات ١٣٣
التقليد بين السلب والإيجاب ١٣٤
فلسفة البكاء والحزن ١٣٥
المحاضرة الثالثة: الحسين عليه السلام والخطاب العولمي ١٣٩
الشعائر الحسينيّة في دائرة العولمة ١٤١
أهداف الشعائر الحسينيّة ١٤١
زيارة الحسين عليه السلام وتحدّي الطغاة ١٤٢
العولمة في نهج الأنبياء عليهم السلام ١٤٤
نزعة البشريّة نحو التفرقة والاجتماع ١٤٥
مجالات العولمة ١٤٦
العولمة في العصور السابقة ١٤٧
الأُمم المتّحدة ومفهوم العولمة ١٤٨
المحاضرة الرابعة: الوحدة الثقافيّة أوّلاً ١٤٩
آلية تطبيق العولمة ١٥١
العولمة في الغرب بين النظريّة والتطبيق ١٥١
مفهوم الطاعة عند أهل البيت عليهم السلام ١٥٣
المعرفة والاقتناع ودورهما في الطاعة والاتّباع ١٥٦
الثقافة بين الغزو والحوار ١٥٧
المحاضرة الخامسة: الإسلام يعترف بالشعوب ولا يجعلها أساساً للمفاضلة ١٥٩

الإمام الحسين عليه السلام وخطاب العولمة ١٦١
منابع الوحدة والتفرقة عند الإنسان ١٦٢
نزعات الإنسان في القرآن الكريم ١٦٢
الوطنيّة والقوميّة في نظر الإسلام ١٦٤
التمايز القبلي في القرآن وحكمته ١٦٤
دعوة أهل الاختصاص لخدمة الدين ١٦٦
المناط الحقيقي لتقييم الإنسان ١٦٧
المحاضرة السادسة: نتائج اهتمام المجتمع بقيمه، ونتائج إهمالها ١٧١
القيم الاجتماعيّة بين القبول والرفض ١٧٤
قراءة النصوص على ضوء الفطرة والعقل ١٧٥
من أبعاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٧٧
دعوة القرآن الكريم للإصلاح المبني على العدل ١٧٨
العولمة في مرحلة التطبيق الإسلامي ١٧٩
أخلاق النبيّ صلى الله عليه وآله وأثرها في العولمة الإسلاميّة ١٨١
وحدة المنهج بين النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام الحسين عليه السلام ١٨٢
المحاضرة السابعة: الحوار الحقيقي يوازن بين نقاط الاختلاف والاتّفاق ١٨٥
توازن الحوار بين مبادئ الاتّفاق والاختلاف ١٨٧
الحوار وأثره في علاج أسباب الفتن ١٨٨
شموليّة الحوار لجميع الطوائف ١٨٩
جهات الاتّفاق بين المجتمعات الإنسانيّة ١٩٠
الأنبياء بين وحدة الدين واختلاف الشرائع ١٩١
نصرة الأنبياء: للنبيّ محمّد صلى الله عليه وآله ١٩٣
المحاضرة الثامنة: الحفاظ على الوحدة الإسلاميّة ١٩٥
آراء في الخلاف بين المذاهب الإسلاميّة ١٩٧

خلاف المذاهب بين الفقه والعقائد ١٩٨
الإمامة والعدل من أُصول الدين عند أتباع مذهب أهل البيت ١٩٩
أُصول الدين بين مرتبتي الإيمان والإسلام ٢٠٠
الإيمان النظري والعملي في سورة الحمد ٢٠١
حديث الفرقة الناجية ودلالته على المدّعى ٢٠٢
المحاضرة التاسعة: الحسين عليه السلام وتهمة شقّ عصا المسلمين ٢٠٥
الإمام الحسين عليه السلام وقرار الخروج ٢٠٧
مصطلح الجماعة المبدّل وبداية نشوئه ٢٠٩
النبيّ صلى الله عليه وآله في مواجهة قريش ٢١١
الإمام عليّ عليه السلام في مواجهة الفتنة الفكريّة ٢١٣
كربلاء وشرعيّة حكم أبناء الطلقاء ٢١٥

الارهاب .. المنشأ والآثار

المحاضرة الأُولى: إحياء الشعائر الحسينيّة ٢١٩
إحياء الشعائر الحسينيّة ٢٢١
مصاديق الشعائر الدينيّة ٢٢١
مقوّم عنوان الشعيرة راجحيّتها ٢٢٢
تطبيق على المولد النبوي ٢٢٢
الشعائر الدينيّة بين التعبّد والحداثة ٢٢٣
المعنى اللغوي ودوره في فهم النصوص الشرعيّة ٢٢٣
الشعيرة معناها العلامة ٢٢٤
مصاديق مودّة أهل البيت عليهم السلام ٢٢٤
دلالة تعظيم الله على الرجحان ٢٢٥
ثمار الشعائر الحسينيّة ومصاديقها ٢٢٦

عاشوراء شعيرة الحزن والعزاء ٢٢٨
المحافظة على قدسية الذكرى ٢٢٩
المحاضرة الثانية: البكاء وعلاج ظاهرة الإرهاب والقسوة ٢٣١
أركان الشعيرة الحسينية ٢٣٣
دلالة الشعائر الحسينيّة على أهداف ثورة الحسين عليه السلام ٢٣٣
أهداف ثورة الحسين عليه السلام وتطبيقها في الواقع ٢٣٤
هل البكاء ظاهرة سلبيّة؟ ٢٣٤
البكاء علاج لأمراض الروح والنفس ٢٣٥
الإسلام والقرآن الكريم يثني على البكّائين ٢٣٥
دور البكاء في وصول الإنسان إلى الكمال ٢٣٥
الحكمة الإلـٰهيّة لخلق حالة البكاء عند الإنسان ٢٣٦
هل الإرهاب مرادف للصلابة والشدّة؟ ٢٣٨
المراحل التي تستند إليها القضايا القانونيّة ٢٣٨
الإمام الحسين عليه السلام يرجع أعداءه إلى الأُصول الأخلاقيّة ٢٤١
المحاضرة الثالثة: إستناد القانون على الأخلاق في تشريعاتنا ٢٤٣
الاختلاف بين التعامل القانوني والأخلاقي ٢٤٥
فصل النزاعات بالقانون أم بالأخلاق؟ ٢٤٥
العلاقة بين الموازين الأخلاقيّة والقانونيّة ٢٤٦
حدّية القانون واستبعاد العنصر الأخلاقي ٢٤٦
العفو والإعراض في القرآن الكريم ٢٤٧
الرفق في مرحلة نصّ القانون وتطبيقه ٢٤٨
المصالح الشخصيّة وأثرها في سنِّ القوانين ٢٤٩
الفرق بين العفو، والإعراض عن الجاهلين ٢٤٩
كظم الغيظ والسيطرة على القوة الغضبيّة ٢٥٠

أحاديث أهل البيت عليهم السلام في الرفق والحلم ٢٥١
المحاضرة الرابعة: الحوار هو الخيار الأوّل في الفكر الإسلامي ٢٥٥
الطبيعة الأوّليّة في القوانين الشرعيّة؟ ٢٥٧
القوّة الغضبيّة ودورها في بناء المجتمعات ٢٥٧
إطلاق القوّة الشهويّة وآثاره ٢٥٨
إطلاق القوى العقليّة وحاكميّتها ٢٥٨
التعقّل أنسب الخيارات للطبيعة البشريّة ٢٥٩
الفرق بين العقوبة والردع ٢٦٠
نفي العقوبة قبل البيان ٢٦٠
الحوار في النزاعات القضائيّة ٢٦١
الحكومات الدكتاتوريّة وأثرها في تشويه الإسلام ٢٦٢
أمير المؤمنين عليه السلام وحواره مع الخوارج ٢٦٤
المحاضرة الخامسة: الجهاد الابتدائي والحروب العدوانيّة ٢٦٧
المعترضون على الإسلام ٢٦٩
الإسلام دين القوّة والعنف والإرهاب؟ ٢٦٩
طمع الجيوش الفاتحة في الأموال والنساء ٢٦٩
دخول معظم اوربا في المسيحيّة ٢٧٠
الجهاد الابتدائي هو الحرب العدوانية ٢٧١
الجهاد الابتدائي في نظر المنكرين ٢٧١
حروب النبيّ صلى الله عليه وآله كلّها دفاعيّة ٢٧٢
الجواب الصحيح عن إشكال الجهاد الابتدائي ٢٧٥
القرآن الكريم ينهى عن إهلاك الحرث والنسل ٢٧٦
الإسلام يكرّم بني آدم ٢٧٦
المحاضرة السادسة: الخلفيات الحقوقية للجهاد الإبتدائي ٢٧٧

الجهاد الابتدائي والإرهاب ٢٧٩
قوى الاستكبار وآيات الجهاد ٢٧٩
الإسلام ومخالفات المسلمين ٢٨٠
اختصاص كلّ علم بمصطلحاته ٢٨٠
الجهاد الابتدائي وخلفيّته الحقوقيّة ٢٨١
الجهاد الابتدائي في المصطلح الحقوقي ٢٨١
الجهاد الابتدائي في النصوص الشرعيّة ٢٨٢
شروط الجهاد الابتدائي وأهدافه ٢٨٥
الإسلام يدعو إلى العدالة ويطبقها ٢٨٧
الفيتو حقّ للمعصوم عليه السلام ٢٨٧
المحاضرة السابعة: الردّ على شبهة الرقّ وحقوق الإنسان ٢٨٩
مسألة الرقّ وحقوق الإنسان ٢٩١
القراءات الجديدة للنصوص الشرعيّة ٢٩١
الحداثيون: أحكام الإسلام ليست أبديّة ٢٩٢
عالميّة الدين وخلوده ٢٩٢
كرامة الإنسان في التشريع الإسلامي ٢٩٣
الكفّار في الفكر الإسلامي ٢٩٥
دور الفطرة الإنسانيّة في التشريعات الإسلاميّة ٢٩٥
معنى الرقّ في الفقه الإسلامي ٢٩٦
الإسلام وشعار عتق العبيد ٢٩٦
نيويورك مدينة بيضاء ٢٩٧
المحاضرة الثامنة: مناقشة تعريفات الإرهاب وتطبيقاتها ٣٠١
الهدف من العمليات الارهابيّة ٣٠٣
ارتباط الارهاب بالأهداف السياسيّة ٣٠٣

الإرهاب هو العنف المتطرّف ٣٠٤
لا بدّ من وجود ضوابط للقوّة ٣٠٤
أقسام الإرهاب ٣٠٦
أخلاقيّات ثورة الإمام الحسين عليه السلام ٣٠٨
الحكم وسيلة لإقامة العدل ٣٠٨
قاعدة: (دفع الأفسد بالفاسد) عند أهل البيت عليهم السلام ٣٠٩
الفرق بين جيشي الإمام عليّ والإمام الحسن عليهما السلام ٣١١
المرجعية الشيعيّة وموقعها في نظر الغرب ٣١٢
المحاضرة التاسعة: من يقف وراء مخطّطات الإرهاب ؟ ٣١٧
إرهاب الدولة ٣١٩
الإرهاب والإيديولوجيّة ٣١٩
الإرهاب الصهيوني ٣٢٠
اتّهام الإسلام بالإرهاب ٣٢٢
إدارة الارهاب العالمي بين الظهور والخفاء ٣٢٢
دور الإعلام في تمرير المخطّطات ٣٢٣
تقويم الإنسان في قواه السامية ٣٢٩
المحاضرة العاشرة: الحسين اختار الشهادة ولم يرضخ للإرهاب ٣٣١
من رضي بعمل قوم أُشركَ معهم ٣٣٣
وضوح الموقف تجاه الحقّ والباطل ٣٣٣
أسباب الارهاب في النصوص الدوليّة ٣٣٤
معالجة أسباب الإرهاب ٣٣٤
عدم الرضوخ للإرهاب ٣٣٥
تطابق المواقف بين النبيّ صلى الله عليه وآله والإمام الحسين عليه السلام ٣٣٥
عمالقة كربلاء بين الموقف والاختبار ٣٣٦